

2269
-38
-827

2269.38.827
Mubarak
al-Akhlag 'inda al-
Ghazzali

DATE

JUN 15 2007

DATE ISSUED

DATE DUE

DATE ISSUED

DATE DUE

JUN 15 2015

XXXXXX

08.

RETURNED

JUN 15 2008



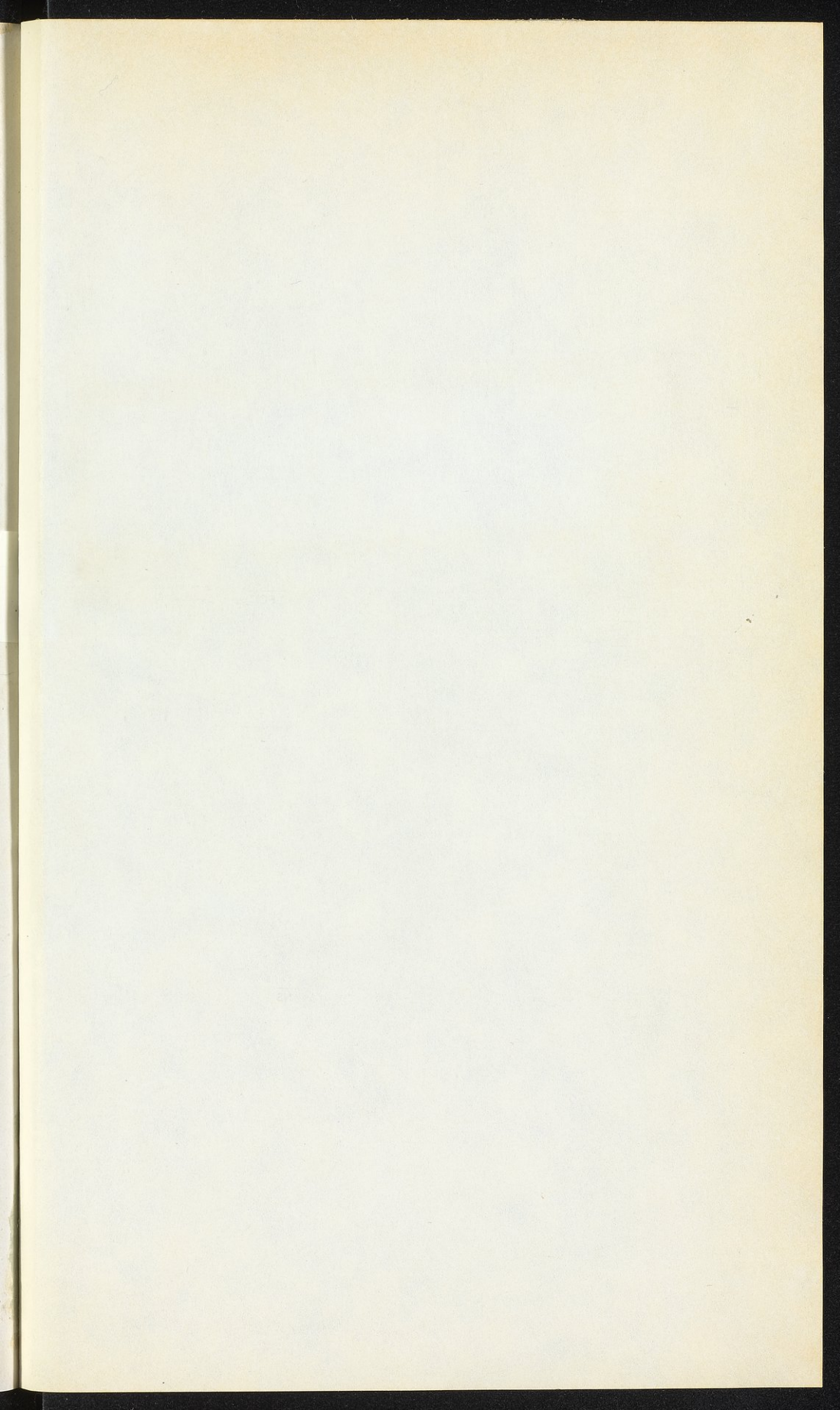
a32101



004479356b





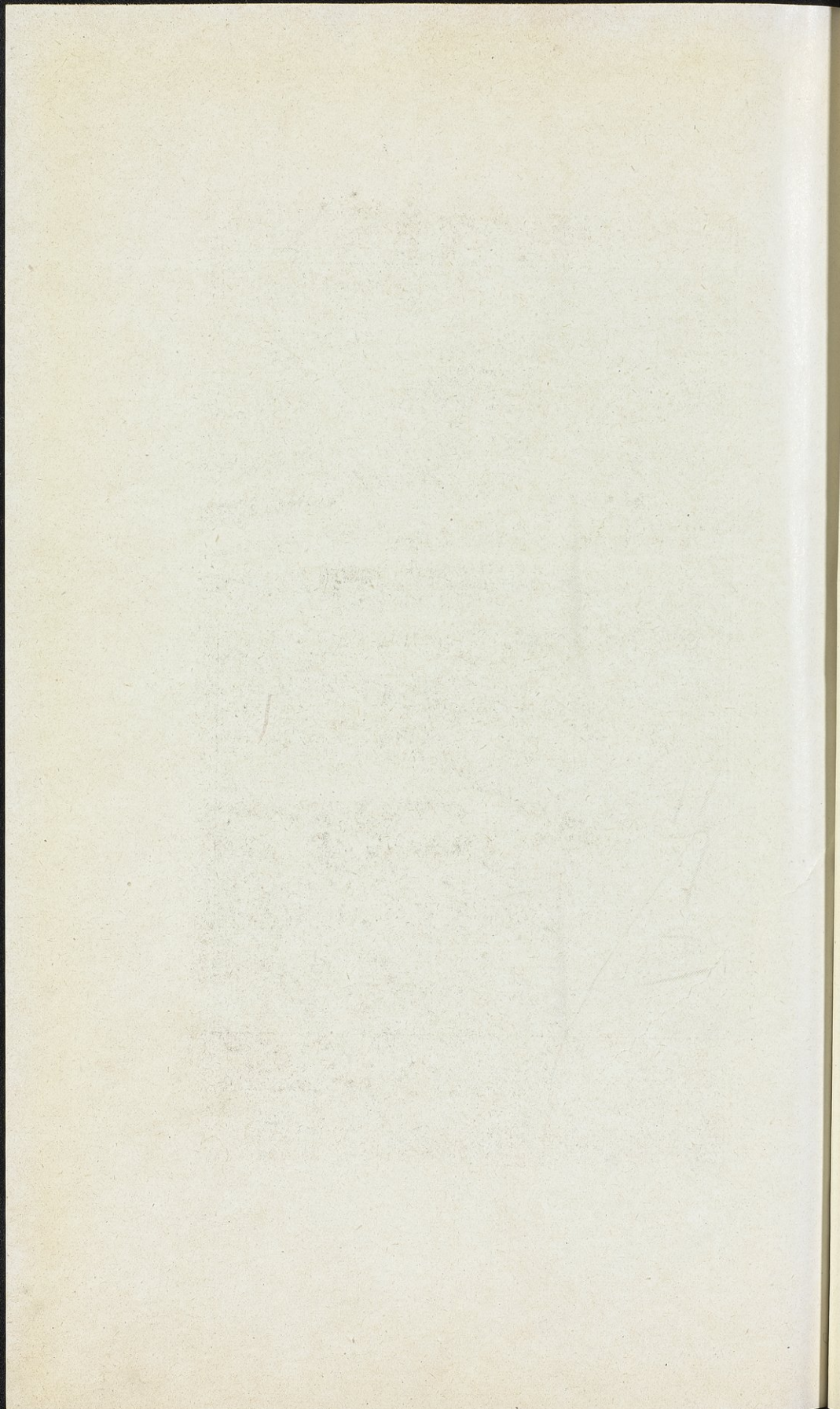


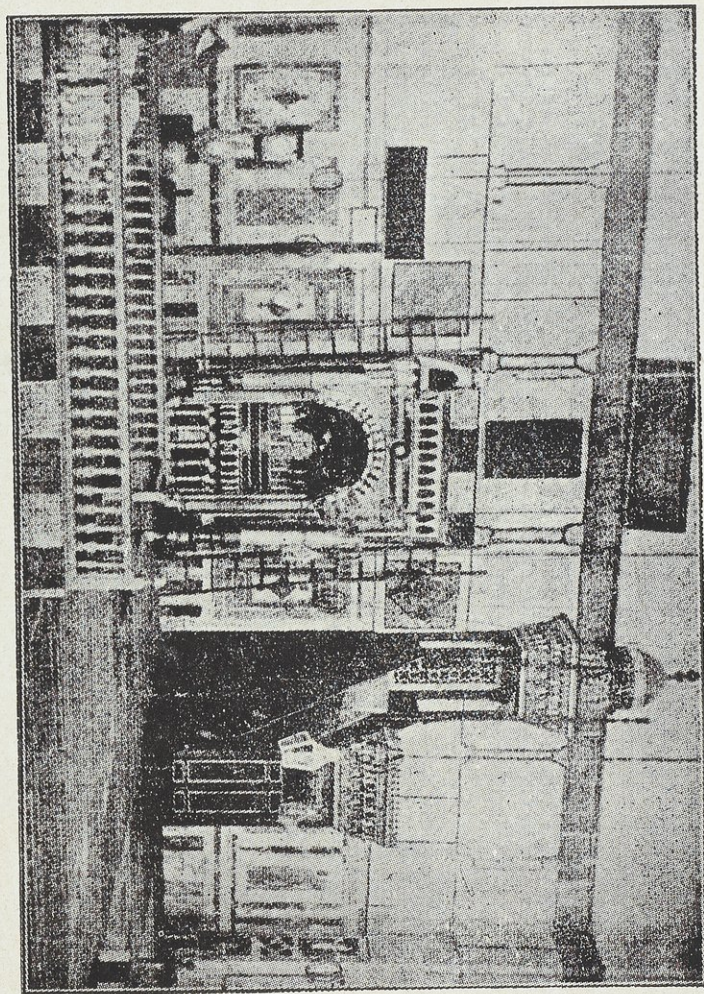
700

مجلد الملك فؤاد الاول



صاحب الفضل الأكبر على الجامعة المصرية

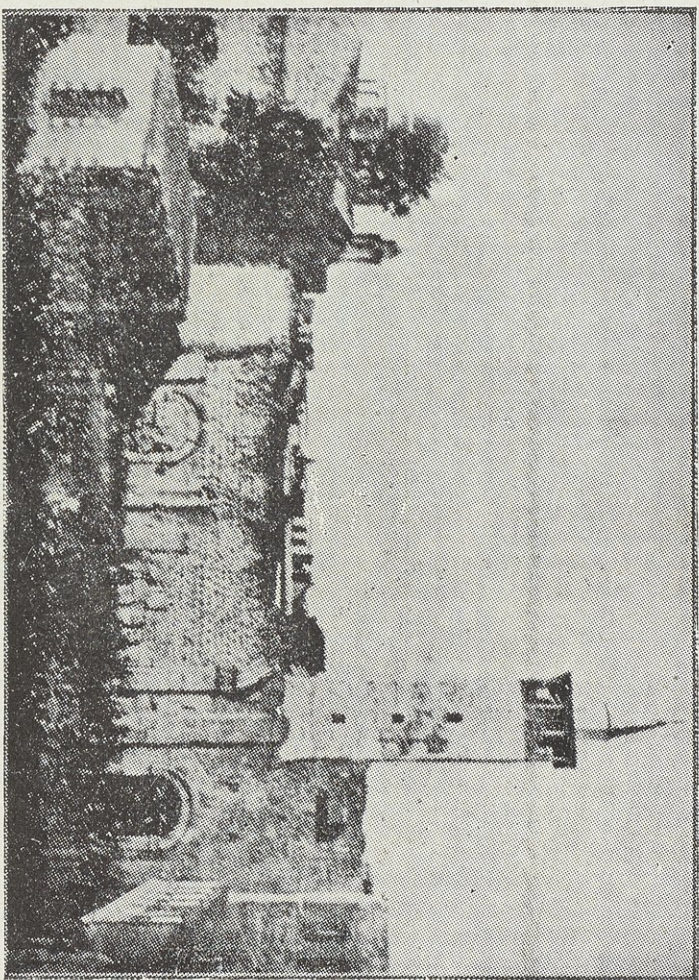




جای دمشق

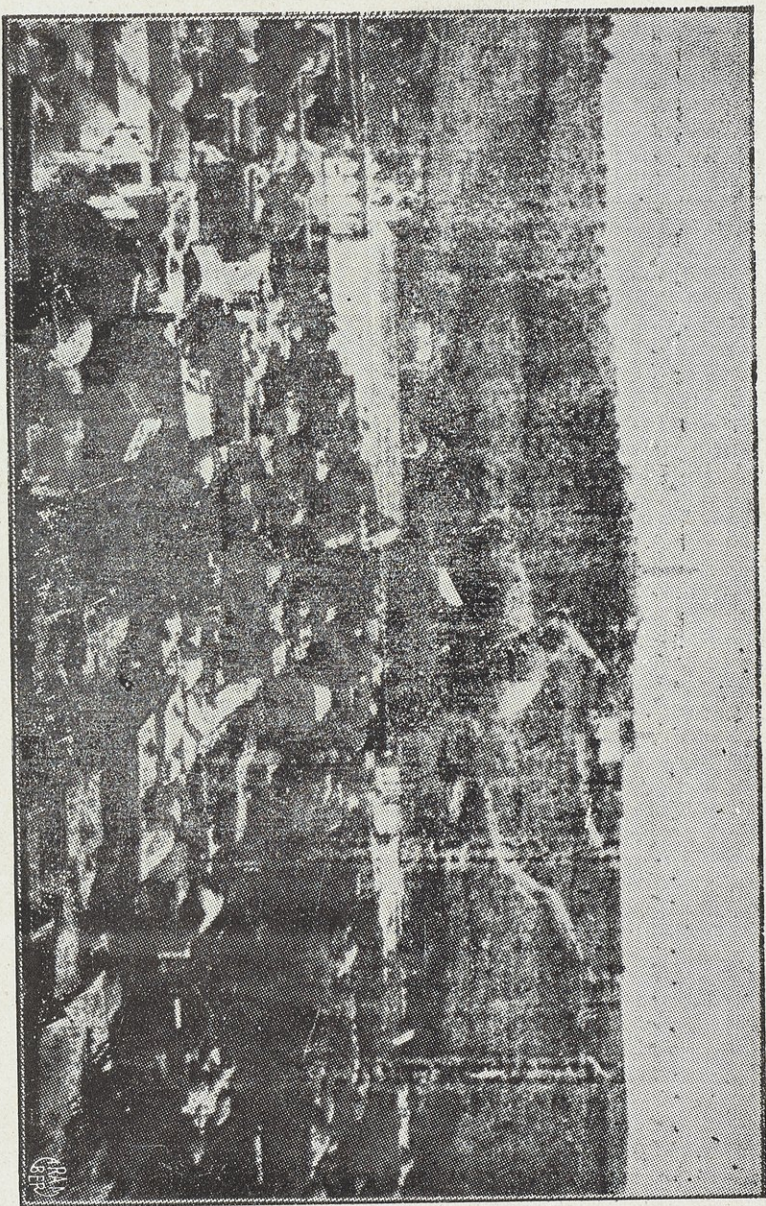
917
A
L
L

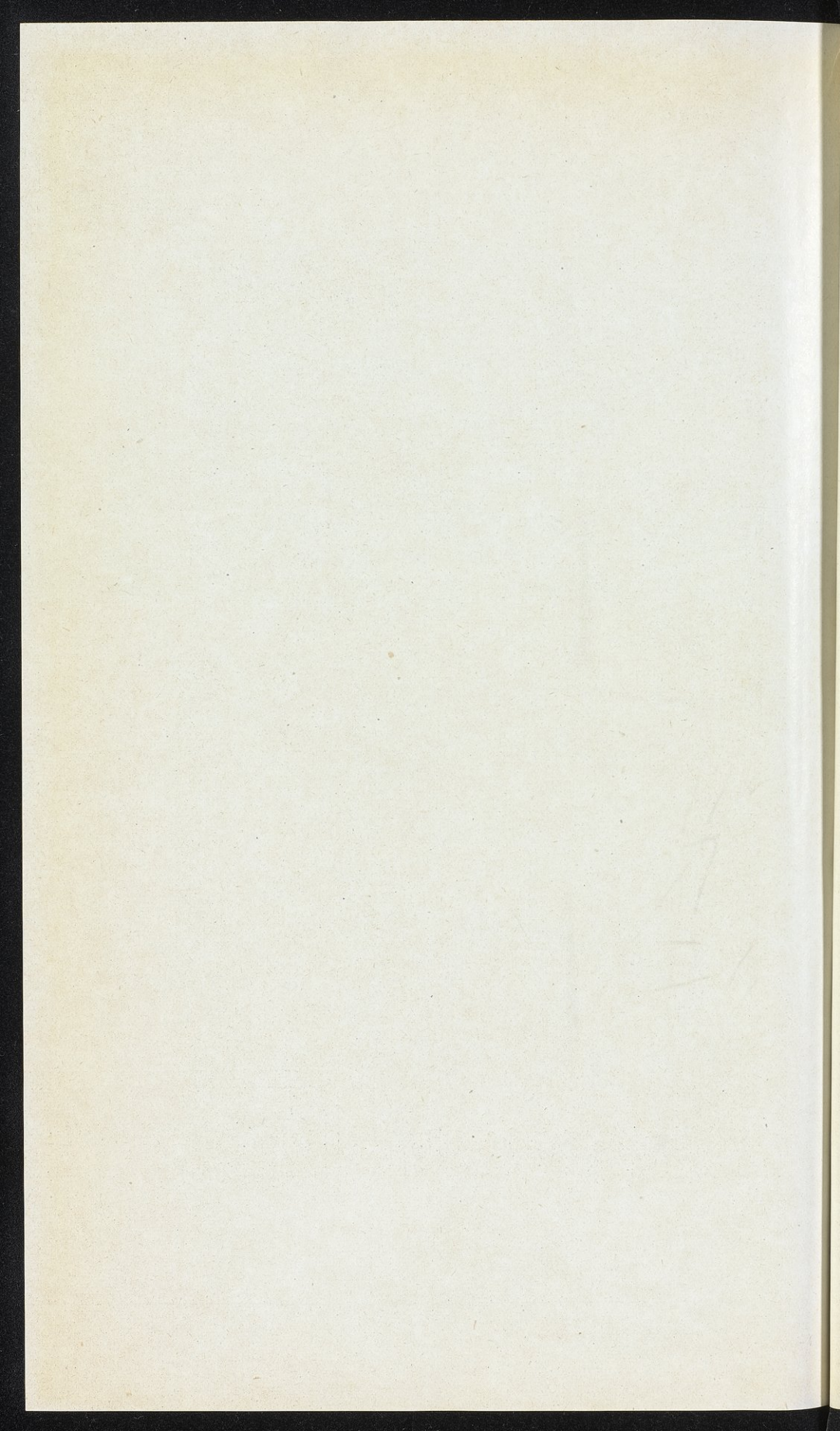
باب توما في دمشق

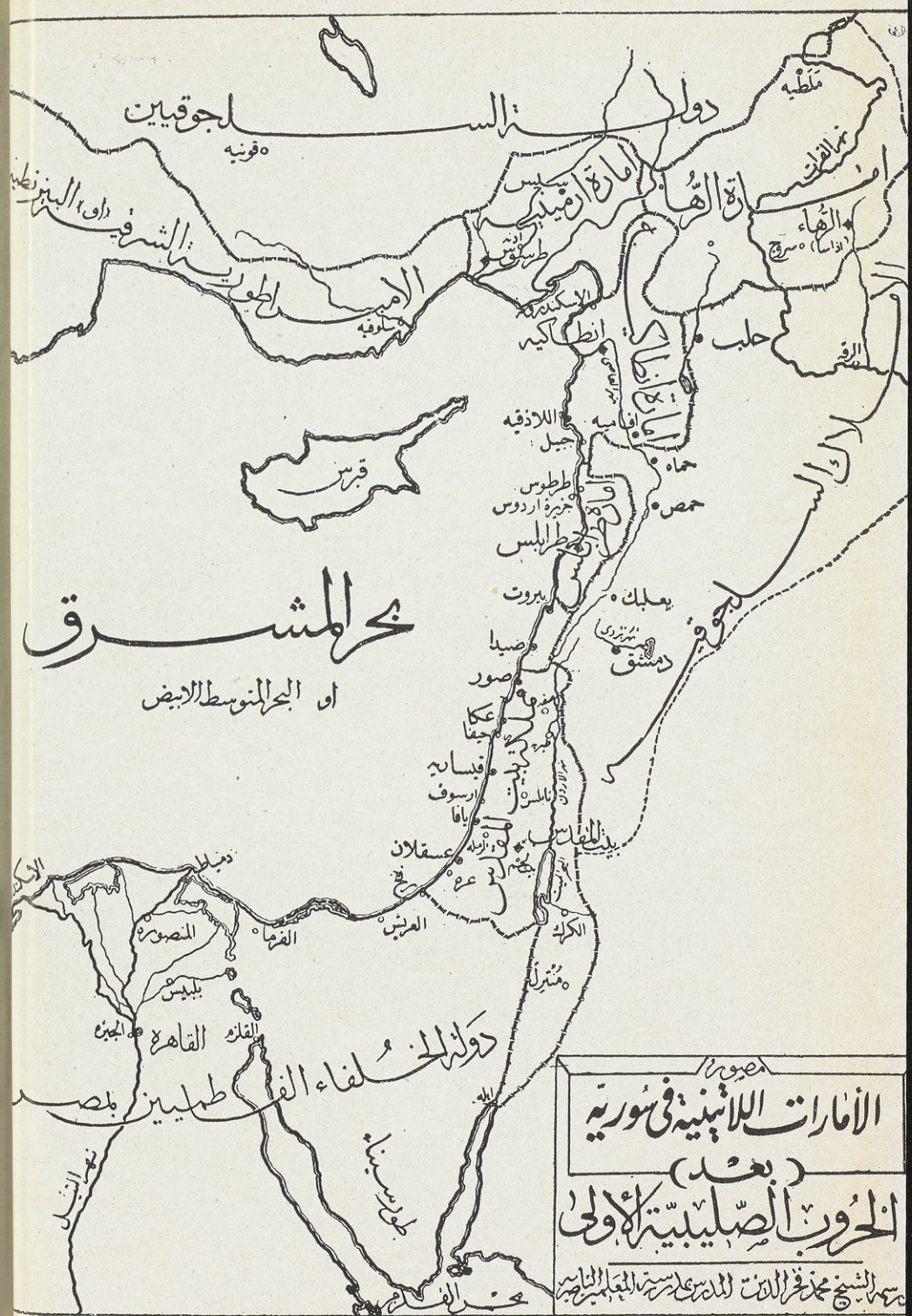


نزل به يزيد بن ابي سفیان لما حاصر المسلمون دمشق في أيام ابي بكر
ونزل به حميد بن قحطبة لما حوصرت دمشق في ابتداء الدولة العباسية

مخزنة بيت القدس





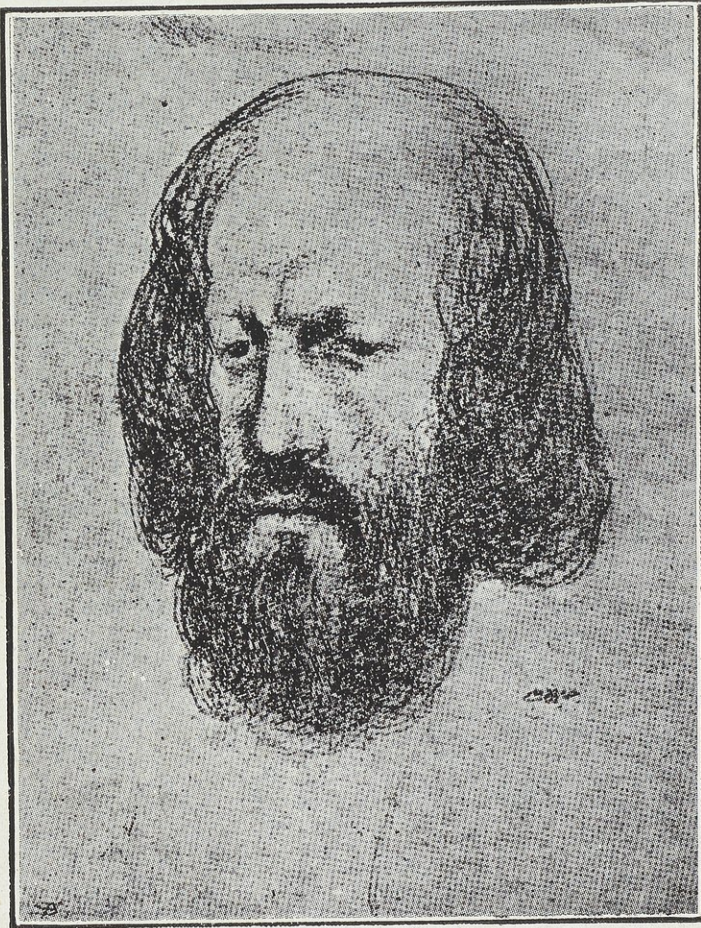


بحر الحبشة
أو البحر المتوسط الأبيض

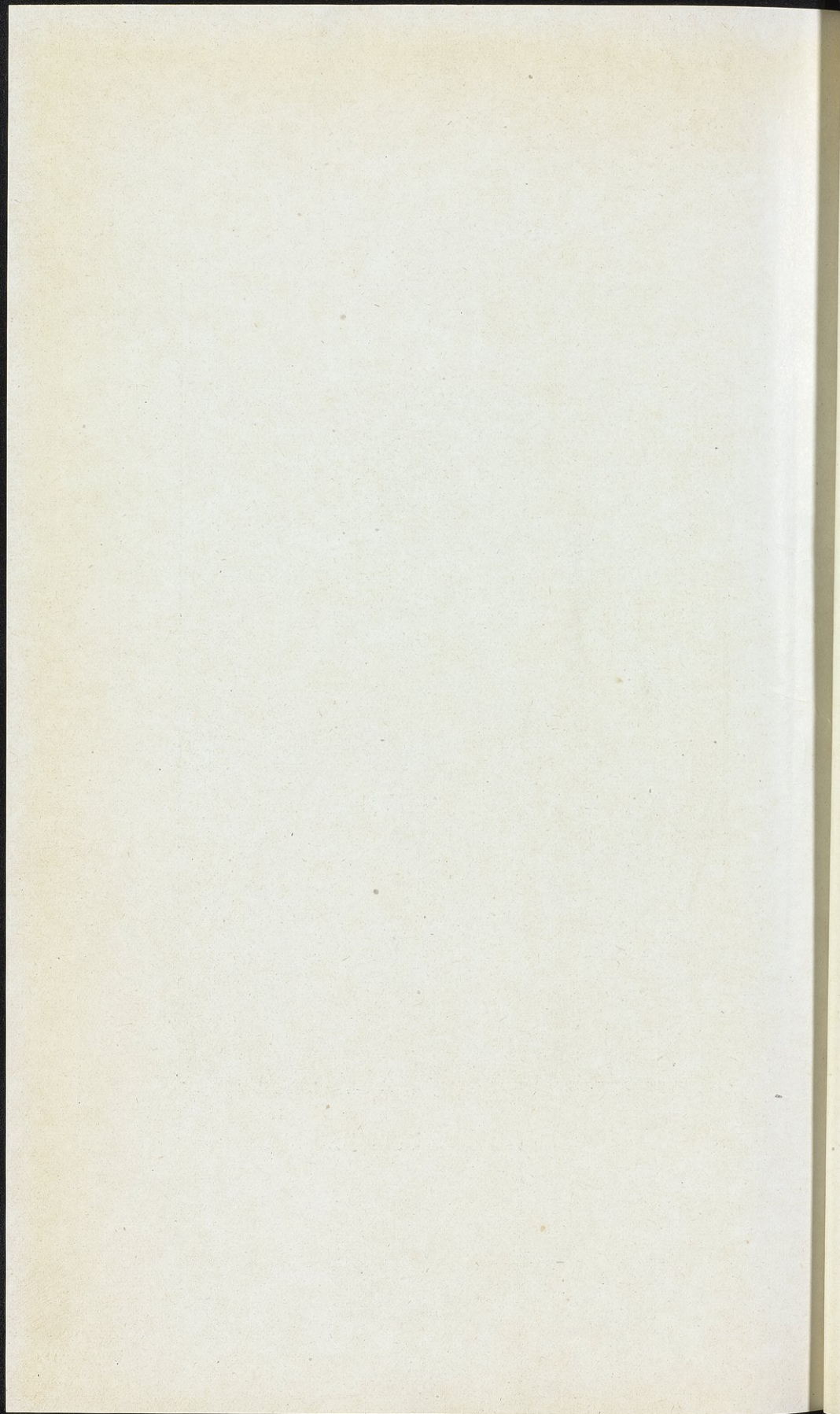
الأمانات اللاتينية في سورية
(بعد)
الحروب الصليبية الأولى

سنة ١٠٩٧م

الفزالي



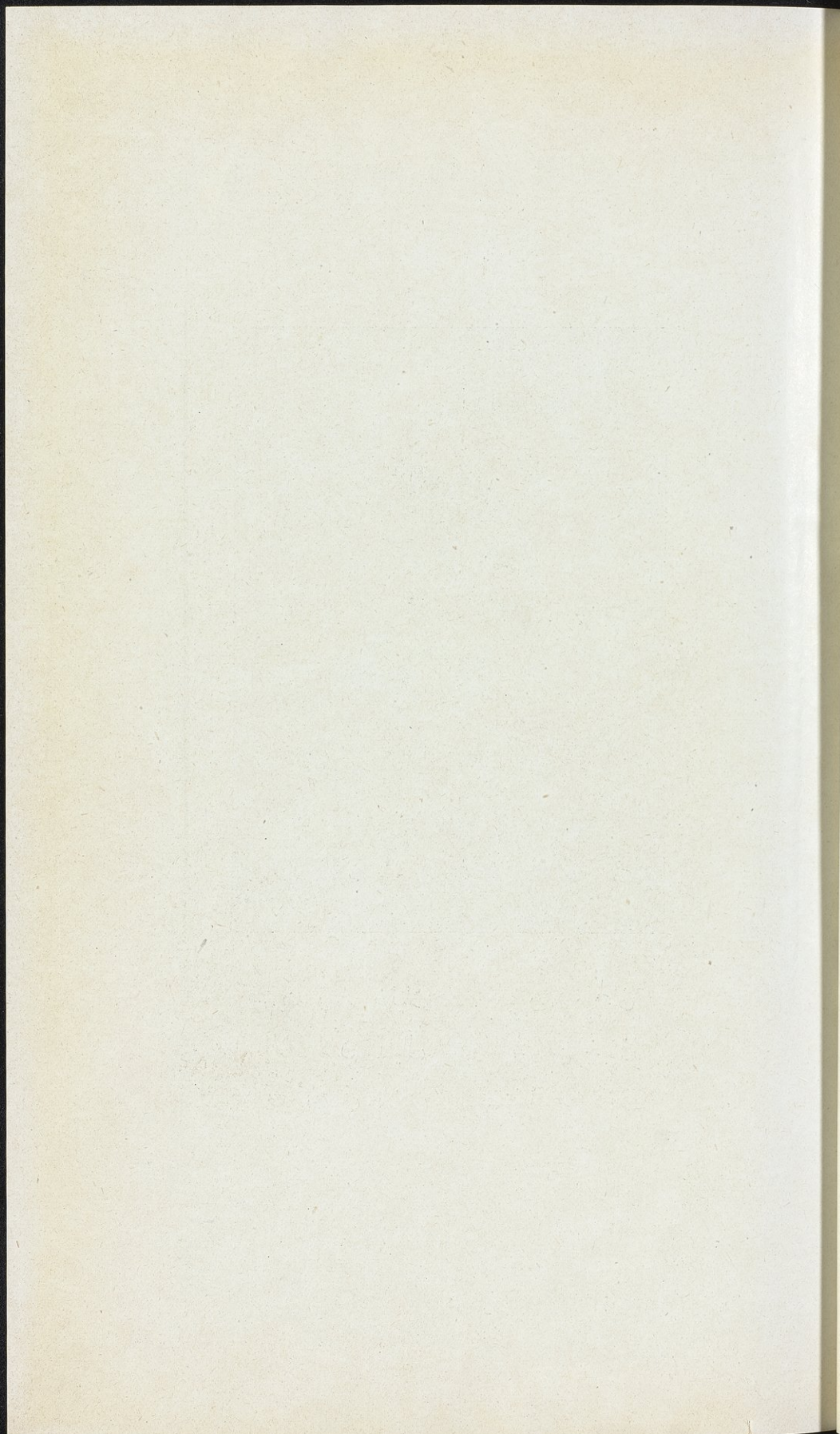
صورة تخيلها الاستاذ جبران خليل جبران



الدكتور منصور فرهمي



أستاذ الفلسفة بالجامعة المصرية



صورة المؤلف



لم يَعدُ رسمي ضئيلاً
إلا لأن الليالي
صيرتني في بلادى
كالبدر عند الحاقِ
وما لها من خلاقِ
غضنفرًا في وثاقِ
زكى مبارك

الإخلاق عند الغزالي

تأليف

الدكتور زكي مبارك

قدّم هذا الكتاب الى الجامعة المصرية ، ونُقشَ أمام الجمهور
في ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ، ونال به المؤلف شهادة العالمية
بدرجة « جيد جداً » ولقب دكتور في الآداب

« وكما عَظُمَ المطالوب وشَرُفُ ، صَعُبُ
مسلكُهُ ، وطال طريقةُ ، وكثرت عقباتُهُ »
الغزالي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يُطَبَّبُ مِنَ الْمَكْتَبَةِ التِّجَارِيَّةِ الْكُبْرَى بِأَوَّلِ شَارِعِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بِمِصْرَ
لصاحبها مصطفى محمد



الطبعة بعد الرخمانية تبصرة
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد فقد حضر

في يوم الاثنين

عشر من شهر ربيع

الثاني سنة ١٣٥٥

12-14-55 O.L.

الاهداء

الى مضمرة صاحب الجريدة الملك فؤاد الاول

مولاي

بفضلك نهضت الجامعة المصرية ، وبعنايتك تؤدي
ما أُعِدَّتْ له : من تهذيب النفوس ، وثقيف
العقول

وهذا يا مولاي كتاب نلت به الشهادة العليا
من الجامعة ، فكان من الحق أن أتشرف بإهدائه
إلى مقامك الجليل ، اعترافاً بما لجلالتك من الفضل
على ذلك المعهد ، وأملاً في أن تغمره بفضلك
من جديد ، والسلام

عبركم

زكي مبارك

دكتور في الآداب

مقدمة

لم يكدمؤلف هذا الكتاب يجتاز امتحان الدكتوراه مصحوباً بالتوفيق ، حتى قام نفر من أصحاب الأغراض : يديمون عنه المقتریات ، ويتقولون عليه الأقاويل . وقد بدا المؤلف أن يدفع الشر بالشر ، ولكن أستاذة الفيلسوف الدكتور منصور فهمى كتب إليه خطاباً يوصيه فيه بالرفق ، وينصح له بالثبوت ، ويدعوه الى مقابلة الشر بالصفح الجميل والمؤلف يشبث هنا هذا الأثر الخالد ، ويشكر أستاذة على نصيحته القيمة ، ويعاهد ربه وقومه على أن لا يعمل غير ما يعتقد أنه حق وصواب

أخي العزيز

طالما وجدنا في تاريخ الأفكار عامة حملاتٍ للنقد شديدة . وطالما رأينا علماء المسلمين وفلاسفتهم ينال بعضهم بعضاً بالنقد والتجريح . وطالما غلّوا في النقد حتى انقلب إيداءً وإيلاماً ولكن هل أخفت شدة النقد يوماً فضل المنتقد عليه ؟ وهل ضنّ الزمان على المنتقدين بما هم أهل له : من الحرمة والمكانة ؟ وكيف ذلك ، والنقد ليس إلا أداة لإظهار الحقائق واضحة جلية ؟ ولئن كان للناقد فضل في إظهار خطأ المنتقد عليه ، فلقد كان لهذا أعظم الفضل بسبقه الى موارد العلم ، وخوضه في مسائل كانت سبباً في يقظة هذا الباحث الأخير

إلا أنه يجمل بنا حين ننظر في كتب المتقدمين ، الذين يخالفوننا في أساليب البحث ، ومناهج التفكير ، أن تتمثل أنفسنا في أزمئتهم ، وأمكنتهم ، وأن تتمثل ما استخدموه للحصول على الحقائق من مختلف

الأدوات ، لكي نلتمس لهم العذر ، إذا رأيناهم لم يصلوا الى الأغوار
البعيدة ، التي ينبع منها الماء صافياً نقياً

وما أبعده الفرق بين من يدخل الهيحاء بما سلّحته به العصور الخوالى
من سهام ونبال ، وبين من يدخلها مدرّجاً بما ابتدعته العصور الحديثة من
معدات النزال ! وما أكبر الفرق بين الضوء ينبعث من زيت المصباح ،
وبين النور يتفجّر من ثريّات الكهرباء ! ولكننا مع ذلك أيها الأخ العزيز
نعجب بأصحاب القسيّ والنبال ، إذا لم تنقصهم الشجاعة ، ولم يفتهم
الثبات ، ونحمد الأضواء الضئيلة التي تنبعث من زيوت المصابيح ، لأنّها
على ضآلتها تصدع جوانب الظلام

فإذا رأينا الغزالي غفل عن حقيقة تذبّنا نحن اليها ، أو أغلق عليه
موضوع فُتحت لنا أبوابه ، أو أدركه وهن في الرأي ، أو تناقض في فهم
فكرة ، فجدّير بنا أن نقدّر ظروف زمانه ومكانه ، وأن ندكر كيف كانت
وسائله الى الفهم والإدراك ، قبل أن نصبّ عليه جام اللوم والتثريب

إن أهل تلك الأعمار الخالية ، كانوا يعتمدون كثيراً على ذاكرتهم ، وكانوا
في الوقت نفسه يتناولون كثيراً من الموضوعات ، لأن فكرة الإخضاء وتوزيع
الأعمال ، لم تكن مألوفاً لديهم على نحو ما هي اليوم ، وكانوا يرون الجد
في طلب العلم طاعةً لله . فمن ثمّ حفظوا كثيراً ، وكتبوا كثيراً ، ولكن ضاق
وقتهم ، ووهنت قوتهم ، فلم يستطيعوا ترتيب ما كنزوا من العلوم الكثيرة ،

فخلطوا الغث بالثمين ، وعرض لهم الضعف ، والتناقض ، والاضطراب
وكذلك كان من أكبر الخدمات أن يتناول الشباب المتثقف كتب
المتقدمين ، فيدرسها ، ويفهمها ، ويحلّلها ، ثم يبيّن ما فيها من الخطأ والصواب .
ومن أولى بذلك من طلبة الجامعة المصرية ، التي أنشئت لوصول القديم

بالجديد ، وحث الخلف ، على الانتفاع بيرات السلف ، وإتقاد الجيل
الحاضر ، من غلطات الجيل الغابر ؟

لا يخطئ من يتناول كتب المتقدمين بالدرس ، والتمحيص ،
والتهذيب ، بل ذلك حق وواجب ، لأن فيه حياةً لما يجب أن يحيا من
الأفكار ، وموتاً لما يجب أن يموت من الأوهام ، ولأن في النقد الصحيح
تهدياً للمشاعر ، وتنويراً للعقول

وإنما يخطئ من يبالغ في حب المتقدمين ، فينسى سيئاتهم ، مع أن
لهم سيئات ؛ أو يبالغ في بغضهم ، فينسى حسناتهم ، مع أن لهم كثيراً من
الحسنات . والنقد الحق يرتكز على سرد المحاسن والعيوب ، بلا جورٍ ولا
محاباة ، وقد يذهب بصاحبه الى التوفيق بين الآراء المختلفة ، فيجعل من
الزوايا المتعددة التي ننظر منها الى الحقائق شكلاً واحداً منسجماً الترتيب
ننظر من نواحيه الى تلك الحقائق . فأعداء النقد ليسوا فقط أعداء الحرية
الآراء ، ولكنهم أعداء لمنازع التوفيق

وأنت يا أخي درست مؤلفات الغزالي ، وفهمتها ، وحلتها ، وبينت
ما فيها من الخطأ والصواب ، فإذا ينقم الناس منك ، وقد ذكرته بالخير ،
حين رأيت أن يذكر بالخير ، وذكرته باللام ، حين رأيت أن يذكر باللام ،
وما كان الغزالي بأكبر من أن يخطئ ، ولا كنت أنت بأصغر من أن تصيب
لقد راعهم أن يقسو قلمك على مؤلف له عندهم حرمة وقداسة ، وكان
عليهم أن يذكروا أنك شاب ، وأن قلم الشباب قاسٍ شديد . بل ليتهم عملوا
بما طالبوك به من الرفق والهدوء ، فلم يوجهوا اليك قارص اللوم ، ومر التأنيب
كانت رسالتك ماثراً للجدل والمناقشة ، ويعلم الله أنا لم نغضب لذلك .
لأننا نريد أن نخدم الحقيقة ، والحقيقة بنت البحث . وهل علمناك إلا أن

تكون خادماً للحقيقة ولو شقَّ إليها الطريق؟ فما دمت ترى أنك على حق ، وما دمت تعتقد أنك سائر على الصراط السَّوى ، فلك أن تتمسك برأيك ، وتدافع عن حقك ، ولكن في رفق ونزاهة ، فان الحق لا يخدم بمثل الرفق والنزاهة . وكما يجب عليك أن تدافع عما تعتقد أنه حق ، فان عليك أن تنفض يدك بسرعة البرق مما تعتقد أنه باطل ، فان الرجوع الى الحق فضيلة ، والتماهى على الباطل نقيصة ، وليس بعد الحق إلا الضلال

لقد علمت نارسالتك ، بجانب ما تناولته من الأبحاث العديدة ، أننا قطعنا شوطاً بعيداً في سبيل الآراء الحرة ، المدعومة بالقوة والتهوض . وان كنا نأسف على أنه لا تزال هناك صدور ضيقة ، يؤذيها الهواء الطليق ، وكان الخير في أن تستروح به ، وتسكن اليه . ونأسف كذلك على أن عدد هؤلاء كثير . وعدد المفكرين قليل

لقد زاد اغتباطى برسالتك أنها أول رسالة قيمة تناولت تاريخ الأفكار الاسلامية بالنقد والتحليل ، وأرجو أن تكون خطوة تتبعها في هذا المدى خطوات . وان كان يجزئنى أن يتألب عليك رجال المعهد الذى أعدك لدخول الجامعة المصرية . ولكن الانصاف يقضى علينا بأن نعترف بأن هذه سيئة لم ينفرد بها الأزهريون . فانا نرى بكل أسف أن الأزهريين يرمون أصحاب الأفكار الحرة بالكفر والمروق ، وأنصار الآراء الجديدة يرمون الأزهريين بالجهل والجمود . وهم جميعاً من المسرفين

وإذا كان لى أن أنصحك - ومن الواجب أن أنصحك - فانى أدعوك الى حرب هذه الضلالة . وحنذار أن تقاطع أحداً من أساتذتك وزملائك فى الأزهر الشريف ، فانكم جميعاً طلاب علم ، وأنصار حق ، والتوفيق بينكم ليس بالأمر المحال

لقد فات كثيراً من عشاق الجديد أن يضموا اليهم أنصار القديم
بالرفق والمجاملة ، وأنت بحمد الله ربيب الأزهر والمعاهد الدينية ، فإذا
يضررك لو وصلت أساتذتك وزملاءك ، وجادتهم بالتى هى أحسن ، لتسيروا
أصفياء فى التوفيق بين القديم والجديد
انى أخشى عليك كثيراً أيها الأخ ، فقد رأيت كيف قامت القيامة
حين اطلع الجمهور على جانب واحد من رسالتك ، فإذا عسى أن يصنع هذا
الجمهور حين يطلع على ما فيها من شتى الجوانب ، ومختلف الأرجاء ؟
ولكن اياك أن تجزع ، وقد بُدئت حياتك العلمية ، بصدمة من تلك
الصددمات الاجتماعية ، فذلك دليل على أنك خادم من خدام الإصلاح ،
وهو خير لقب تلقى به الله

ولك خالص الدعوات ، والعطف ، والسلام

منصور فرامسى

المؤلف — أكرر الشكر لسيدى الأستاذ الدكتور منصور ، وأؤكد
له أن يبنى وبين علماء الأزهر الشريف عُرى لا تقدر على فصمها الليالى .
ولن أنسى ما حييت أنى مدين على الأقل لحضرات أساتذتى الأماجد
الشيخ الدجوى والشيخ اللبان والشيخ الظواهرى والشيخ الزنكلونى والشيخ
حسين والى والشيخ سيد المرصفي . فاذا قضت الظروف بأن تنقطع بينى
وبين الأزهر جميع الصلات — لا قدر الله ولا سمح — فانى لن أنسى
ولن ينسى أحد أنى مدين لاساتذتى فى الأزهر ، وأن خروجى عليهم ضرب
من العقوق ، ونكران الجميل

اللهم ان كنت تعلم أنى صادق فيما أقول ، فاجزنى بخير ما يجزى به
المؤمن الصادق ، وان كنت تعلم أنى أظهر غير ما أضمر ، فاغفر لى وتب علىّ
فانك وحدك التواب الغفور

فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء

والمرسلين

وبعد فهذا هو الكتاب الذي نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية ، والذي سلقني العلماء من أجله بالسنة حداد هذا هو كتاب (الأخلاق عند الغزالي) أقدمه للجمهور : ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المغرضين من الصدق ، وحظ المرجفين من الصواب

هذا هو الكتاب الذي رميت من أجله بالكفر والزندقة ، والذي سَجَرَ لحسادى ينبوعاً من اللغو والثرثرة لا ينضب ولا يغيض . وما أنا والله بنادم على رأى رأيته ، أو قول جهرت به ، فلست ممن يخافون فى الحق لومة لائم ، أو يقيمون وزناً لكيد الحاسدين ، ولغو اللادين ، من مرضى القلوب ، وضعاف العقول ،

وصغار النفوس ؛ وإنما يحزنني ما يلاقى أصدقائي من العنت في دفع ما يفترى الكاذبون ، ويخترق المفسدون

على أن الغزالي رحمه الله عانى من حاسديه مثل ما عانيت ، ولاقى ضعف ما لاقيت ، حتى لنجده يُظْمِنُ أحد إخوانه بقوله « رأيتك أيها الأخ المشفق موغر الصدر ، مقسم الفكر ، لما قرع سمعك من طائفه من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعري ولو في قيد شبر كفر ، ومباينته ولو في شيء نثر ضلال وخسر ، فهو أيها الأخ المشفق على نفسك ، لا تضيق به صدرك وفل من غربك قليلا ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأ جميلا ، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر والضلال لا يعرف ، فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا انه أساطير الأولين ، وإياك أن تشتغل بخصامهم ، وتطمع في إخمامهم ، فتطمع في غير مطعم ، وتصوت في غير مسمع ، أما سمعت ما قيل : كل العداوة قد ترجى إزالتها * إلا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من الناس ، لما تلى على أجلهم رتبة آيات الياس . أو ما سمعت قوله تعالى (وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سما في السماء فتأتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين)^(١) وقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)^(٢) وقوله تعالى (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين) وقوله تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون)^(٣) وقد صار الغزالي بعد ذلك حجة الاسلام . ونحن لانريد أن يفتن الناس بنا كما فتنوا به ، فهل نرجو أن نظفر فقط بالسلامة من تقوّل المفترين ، وتزويد المعتدين ؟

« على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » م

محمد زكي غير السلام مبارك

(١) كبر : شق — النفق : سرب في الأرض (٢) يعرجون : يصعدون . سكرت : حبست عن النظر (٣) قبلا : عياناً ومقابلة ، وأخطأ النسق حين ظنها جمع قبيل بمعنى كفيل

الباب الأول

فـ

العصر الذى عاش فيه الغزالي

تمهيد

أريد أن أذكر شيئاً عن العصر الذى عاش فيه الغزالي ؛
وليس ذلك لأن الغزالي صورة لعصره . بل ليعرف القارئ الى
أى حد تأثر الغزالي بعصره وأثر فيه . فمن المجازفة أن ندرس
عصراً من العصور ، لنعرف من نبغ فيه من الفلاسفة ، والكتاب ،
والشعراء ؛ وإنما ندرس شخصية الكاتب ، أو الشاعر ، أو
الفيلسوف . ثم يبحث عن المؤثرات التى كوّنت تلك الشخصية ،
فقد تكون هذه المؤثرات قريبة ، وقد تكون بعيدة . وفقاً لما
أحاط بالشخص من الظروف

ولتوضيح هذا أذكر أن الاستاذ الكبير الدكتور طه حسين
درس العصر الذى عاش فيه أبو العلاء ، ليعرف الأصول التى كوّنت
وجهة نظره فى الحياة ، ثم فعل مثل هذا حين شرع فى درس

أبي نواس ؛ ولكن الدكتور طه لا ينكر أن عصر أبي العلاء أنتج رجالاً يسيرون غير سيرته ، ويرون ما لا يراه ؛ وان عصر أبي نواس أخرج رجالاً لا يسيغون العبث ، ولا يجيزون المجون ؛ فمن الواجب أن ندرس أولاً ما بين أيدينا من آثار الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ، ثم نتبين بعد ذلك ما تألفت منه هذه الآثار ، فقد تكون نتيجة لمطالعات لاصلة بينها وبين العصر الذي ظهرت فيه . كما يمكن أن تكون نتيجة له بالذات

وإلا فخذني كيف يكون الشيخ محمود خطاب السبكي صورة لهذا العصر ، وهو يكون من تلامذته جمهرة لا يشعر بها الناس ؛ وأمثال الشيخ السبكي عديدون ، ولكني خصصته لكثرة مؤلفاته ، وقد يعثر عليه باحث يوماً في زوايا التاريخ ، أقره يدرس يومئذ هذا العصر ، ليعرف المؤثرات التي كوَّنت عقلية هذا الرجل الذي يدهش حين تحدّثه عن أهل هذا الجيل ؛ !

انه لا شك في تأثير البيئة والعصر ؛ ولكن ينبغي أن نعرف أن من الناس من يعيش في قومه وعصره ، بجسمه لا بروحه ، فلا يحس بما يحس به معاصروه ، وإنما يشعر بما كان يشعر به من سبقوه بأجيال ؛ ففي مصر اليوم ، ناس من القرن الثالث ، وآخرون من القرن السابع ؛ كما في مصر اليوم من يمكن أن تكون آراؤه

وأفكاره صورة صادقة لمكانه وزمانه ، وأحب أن يعينى القارئ
من ضرب الأمثال

من أجل هذا أجمل القول عن العصر الذى عاش فيه الغزالي
وأكتفى بوضع صورة قريبة من الواقع للحالة العامة فى عصره ،
ليتمثل القارئ زمان الغزالي ومكانه ، وليعرف ما تمس الحاجة اليه
مما أثر بالفعل فى حياته العقلية : فان الغرض من هذا الكتاب انما
هو أن ندرس بالتفصيل آراء الغزالي فى الأخلاق

الفصل الأول

الدولة السلجوقية



لا نريد أن نفصل وصول تلك العشيرة التركية الى الغلبة
والاستيلاء على أكثر الأقطار الاسلامية ، فانه لا حاجة الى
ذلك الآن ، وانما نذكر فقط صورة مجملة لتلك المملكة الضخمة ،
التي تفيأ الغزالي ظلها الظليل

ذكر الأستاذ محمد الخضرى بك فى محاضراته فى الجامعة
المصرية أن عشيرة السلاجقة انقسمت الى خمس بيوت : الأول

السلاجقة العظمى ، وهي التي كانت تملك خراسان ، والرى ،
والجبال ، والعراق ، والجزيرة ، وفارس ، والأهواز . والثاني
سلاجقة كرمان . والثالث سلاجقة العراق . والرابع سلاجقة
سورية ، والخامس سلاجقة الروم

أما السلاجقة الكبرى فهي الدولة التي أسسها ركن الدين
أبو طالب طغرل بك ، وحياتها ٩٣ سنة : من ٤٢٩ هـ ١٠٣٩ م الى
سنة ٥٢٢ هـ ١١٢٧ م وقد انقضت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم
وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت بك بن
داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وهو أخو ألب ارسلان ، ومدة
ملكهم ١٥٠ سنة . من ٤٣٢ هـ ١٠٤١ م الى ٥٨٣ هـ ١١٨٨ م . وقد
انقضت دولتهم على أيدي الغز التركمان

وأما سلاجقة العراق وكرديستان فقد ابتدأت دولتهم سنة
٥١١ هـ ١١١٧ م . وانتهت سنة ٥٩٠ هـ ١١٩٤ م على أيدي شاهات
خوارزم بعد أن مكثت ٧٩ سنه

وأما سلاجقة سورية فكانوا من بيت تنش بن ألب ارسلان
ابن داود بن ميكائيل بن سلجوق . وقد ابتدأت دولتهم سنة
٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م وانتهت سنة ٥١١ هـ ١١١٧ م على أيدي الدولتين :
النورية والأرتقية . فكانت حياتها ٢٤ سنة

وأما سلاجقة الروم : ملوك قونية وأقصر ، فكانوا من بيت قطمش بن إسرائيل بن سلجوق ، وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ هـ ١٠٧٧ م وانتهت سنة ٧٠٠ هـ ١٣٠٠ م . فهي أطول دول السلاجقة حياة ، إذ مكثت ٢٣٠ سنة ، وقد انقضت على أيدي الأتراك العثمانيين والمغول

والذي كان يرتبط تاريخه من هذه البيوتات بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد في حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين من سنة ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ أي ١٤٣ سنة

واستخلف من آل العباس في عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء ، أولهم القائم بأمر الله الذي انتهى في عهده العصر البويهى وآخرهم الناصر لدين الله الذي انتهى في عصره ملك السلاجقة

٢

عاصر الغزالي أكثر ملوك الدولة السلجوقية الكبرى ، فقد شهد عهد عضد الدين أبي شجاع ألب ارسلان ، وجلال الدين أبي الفتح ملكشاه ، وناصر الدين محمود ، وركن الدين أبي المظفر بركياروق ، وركن الدين ملكشاه الثاني ، ومحمد بن ملكشاه وقد ولد الغزالي في آخر عهد طغرل بك ، الذي ملك بغداد ،

وتقرب من الخليفة ، حتى تزوج الخليفة بنت أخيه . والذي
تطلع الى أن يتزوج من البيت العباسي . وهو أمر لم تجربه
العادة . فأرسل سنة ٥٤٣ يخطب بنت الخليفة ، ثم ظفر بزواجها
في حديث طويل

أما ألب ارسلان فكان واسطة عقد الدولة السلجوقية ،
وفي عهده أسست المدارس النظامية ، صاحبة الفضل على الغزالي ،
وسنعود إليها بعد قليل . وأما محمد بن ملكشاه فهو الذي وضع له
الغزالي كتاب التبر المسبوك في نصيحة الملوك

هذا ما يهمننا من دولة آل سلجوق ، وما نريد أن نزيد

الفصل الثالث

الفاطمية

في الوقت الذي كان فيه السلاجقة يسيطون سلطانهم على
فارس والعراق والجزيرة إلى آخر ما استولت عليه تلك البيوتات
التي أجمعنا حالها في الفصل الماضي ، كان الفاطميون يسيطرون
على المغرب ، وعلى مصر ، ويهيمون بيسط سلطانهم على أقطار
المشرق ، بعناية الدعاة

والذى يعينى الآن هو إجمال دعوة الباطنية ، لأن الغزالي
شغل بهم ، وكتب فى الرد عليهم ، وان لم تصلنا كتبه فى هذا
الباب ، وسترى حين نتكلم عن خطته فى التأليف كيف اتهم
بالميل إليهم . إذ شرح آراءهم عند تقديمها بطريقة تقر بها من
متناول العقول

وأحب أن يعرف القارئ أن أكثر ما يحتل رءوس
المسلمين من الأفكار والعقائد ، ليس إلا أتراباً للدعوات المتعددة
التي قام بها العباسيون فى الشرق ، والفاطميون فى الغرب ، وكل
حزب بما لديهم فرحون

والواقع أن الدعاة كانوا غاية فى المكر والدهاء ، فقد عرفوا
كيف يملؤن تلك الرءوس الجوفاء بالخرافات ، والوساوس ،
والأضاليل ؛ وهذه القاهرة لا تزال سماء مسكونة بالمعبودات
الصغيرة ؛ كسيدنا الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة فاطمة
النبوية ، ومن اليهم من الأولياء ، فيما زعم الفاطميون ومن لفّ
لهم من علماء الاسلام !!

ولولا خوف الأطلالة لشرحت للقارئ طرائق الباطنية
فى نشر الدعوة Propagande فقد كانوا أمهر من الإنجليز ،
والفرنسيين ، والاميركان فى العصر الحديث ، وكانت جنائهم

شديدة الخطر في مسخ عقول الأمم الإسلامية المسكينة ، التي قيدها الجهل ، ثم رماها بين أيدي طلاب الملك من العباسيين والفاطميين . فلم يرحمها أولئك ولا هؤلاء

كان دعاة الباطنية لمكرهم ينتقلون بالطالب من حال إلى حال ، فيفهمونه أولاً أن الآفة التي نزلت بالأمة فشتت شملها ، وفرقت جمعها ، ليس لها من سبب إلا ذهاب الناس عن أممهم الذين يعرفون بواطن الشريعة ، لأن دين محمد — فيما يزعمون — ليس هو ما تعرفه العامة ، بل هو علم خفي غامض ، ستره الله في حجبه ، وعظمه عن ابتذال أسراره ، فلا يطيق حمله ، ولا يقوم بأعبائه ، إلا ملك مقرب . أو نبي مرسل . أو عبد مؤمن امتحن قلبه بالتقوى ؛ ثم يتوغلون مع الطالب في مجاهل من ظلمات الآراء ، والأهواء ، بعضها خاص بتقديس أممهم ، ورفعهم إلى الاختصاص بفهم أسرار التشريع ، وبعضها خاص بتنظيم الدعوة ونشرها بين الناس

وأشهر دعاة الباطنية في الشرق هو الحسن بن الصباح . الذي رحل إلى مصر ، فلقى فيها الخليفة المستنصر ، وتلقى بها الدعوة الباطنية ، ثم عاد إلى مرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه ، فكان أول ما فعله ان استولى على قلعة (الموت) وتحصن بها ،

ثم ثبت قدمه في الاقطار الفارسية ، بحيث كان يحسب له ولا يتباعه
ألف حساب ، ونشبت بينه وبين السلاجقة عدة حروب
ومن شاء الزيادة على هذا القدر من أمر الباطنية فليرجع
إلى كتب التاريخ ، ثم ليرجع الى تفصيل آراهم ان شاء في كتاب
الملل والنحل للشهرستاني ، فان في آراهم غرائب وأعاجيب ، وقد
ورد ذكرهم في عدة مواطن من كتب الغزالي ، وعلى الأخص
كتابه « فيصل التفرقة ، بين الاسلام والزندقة » فليعد اليه
من أراد أن يرى مناقشته لبعض ما يقولون

الفصل الثاني

الحروب الصليبية

١

قد عرفت أن سلطان السلاجقة امتد على بلاد الروم ،
في قونية واقصرا ، وما اليهما من البلاد ، وعرفت كيف كان التنافس
بين السلجوقيين والفاطميين ، فليس من الصعب أن تعرف
كيف دعا ملك الروم حملة الصليب من الافرنج الى قتال المسلمين ،
فقد أمن جانب الفواطم لعداوتهم للسلاجقة ، وانها لفرصة سانحة ،
لا يصح أن يضيعها طلاب الملك ، وعشاق الحياة !

لجأ قيصر الروم الى البابا رئيس النصرانية ، يستصرخه لصد أعدائه السلاجقة ، فرآها البابا فرصة لبسط نفوذه على ملوك أوروبا وأمرائها ، فدعاهم الى الدفاع عن النصرانية ، واخراج بيت المقدس من أيدي المسلمين

وأود أن يعرف القارئ أن الساسة يعتمدون دائماً على استغلال العواطف ، وإخماد عقول الجماهير ، ومن هنا لم يجد دعاة الحروب الصليبية بدءاً من الكذب على الحقيقة والتاريخ ، فزعموا أن المسلمين يضطهدون نصارى الشرق ، ويسومونهم سوء العذاب ، وقد نجحوا في استنفار أوروبا ، عامتها وخاصتها ، وساقوهم باسم الدين الى ميدان القتال

والدين أداة من أدوات الفتح ، والأستيلاء ، في أيدي الشعوب القوية ، وغل في أعناق الأمم الضعيفة ، والويل كل الويل للمغلوب ! فقد ملك المسلمون الأرض باسم الدين ، كما ذلوا بعد ذلك باسم الدين ، لأن القوى الرشيد يملك بدينه آخرته ودينه ، أما الضعيف المأفون فلا يزال يرتطم في ضعفه الذي يسميه ديناً حتى يحيق به الهلاك !

وكذلك زحف شياطين الغرب على الشرق باسم الدين ففعلوا به الأفاعيل ، في حين أن المسلمين كانوا يبكون في مساجدهم يوم

الجمعة ليو قظوا الهمم الخوامد ، والنفوس الرواكد ، فما استمع لهم
أحد ، ولا استجاب لهم مجيب ! ولم ذلك ؛ ذلك بأن الدين لا يقوم
بنفسه ، وإنما يقوم به كما قلت : طلاب الملك ، وعشاق الحياة !
وإلا فحدثني لماذا تغاضى الفاطميون أبناء الرسول ، ولم يغضبوا
لزحف النصرارى على املاك المسلمين ؟

الملك . العظمة . الحياة . تلك آمال الأمم ، وأمانى الشعوب .
فإن أدّى الدين الى الملك والعظمة والحياة ، فهو نعمة من الله ، لأن
الله بالمؤمنين رءوف رحيم ، أما ان نزل بهم الى الخضيض فهو بدعة
ابتدعها الأخبار والرهبان ، وأمثال الأخبار والرهبان . ومن كان
في ريب مما نقول فليسأل التاريخ

ثم أخذ الصليبيون في فتح بلدان المسلمين ، فاستولوا على
كثير من مدن آسيا الصغرى والشام ، وكوتوا لهم فيها إمارات
سميت بالأمارات اللاتينية ، نسبة الى الأجناس التي كان يتألف
منها حملة الصليب

وأول ما أسس من هذه الإمارات الرها بوادى
الفرات سنة ٤٩٠ هـ ١٠٩٧ م . ثم انطاكية سنة ٤٩١ هـ ١٠٩٨ م ،
ثم فتحوا بيت المقدس . وقتلوا من أهله نحو ٧٠٠٠٠ مسلم ، بعد
أن سجل التاريخ من سوء رأى الفواطم ما يمنعنا من ذكره الحياء

٢

أتدرى لماذا ذكرت لك هذه الكلمة عن الحروب الصليبية؟
لتعرف انه بينما كان بطرس الناسك يقضى ليله ونهاره، في إعداد
الخطب وتحبير الرسائل، لحت أهل أوروبا على امتلاك أقطار
المسلمين، كان الغزالي (حجة الاسلام) غارقاً في خلوته، منكبا
على أوراده. لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة الى الجهاد!!
ويكفي أن نذكر أن الأفرنج قبضوا على أبي القاسم الرملي الحافظ
يوم فتح بيت المقدس، ونادوا عليه ليفتدى، فلم يفتده أحد. ثم
قتلوه، وقتلوا معه من العلماء عدداً لا يحصيه الا الله، كما ذكر
السبكي في طبقاته

وما ذكرنا هذه المأساة إلا لنعد القارئ لفهم حياة الغزالي،
ولنقنعه بأنه ليس من الحتم أن يكون الرجل الممتاز بعلمه صورة
لعصره، فان كتب الغزالي لا تنبئنا بشيء عن تلك الأزمة التي
عاناها المسلمون حين ابتدأت الحروب الصليبية
ومن الخطأ أن نقصر الأخلاق على سلوك المرء كفرد مستقل
عن الحياة الاجتماعية، فلعل ظرف واجباته، ويتعسر وجود
حالة لا تقضى فيها الأخلاق

الفصل الرابع

المدارس النظامية

نسبة إلى نظام الملك : وزير السلطان ألب أرسلان ، وابنه ملكشاه . مكث في الوزارة ثلاثين سنة : عشر منها في سلطنة ألب أرسلان . وعشرون في سلطنة ملكشاه . وقد مات نظام الملك قتيلاً ، ولكن اختلف المؤرخون في سبب قتله : فمنهم من يروى انه لما أسرف في النفقة على المدارس النظامية ، حتى بلغ ما ينفقه على طلبة العلم ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، وشى به بعضهم إلى السلطان ملكشاه ، وقالوا (ان الأموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية) فعاتبه ملك شاه في ذلك فأجابه « يا بني ! أنا شيخ أعجمي ، لو نودي عليّ في من يزيد لم أحفظ خمسة دنانير ، وأنت غلام تركي ، لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً ! وأنت مشتغل بلذاتك ، منهمك في شهواتك ، وأكبر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب ، اذا احتشدوا كالخواعض عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهي مدى مرماها الى ثلثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي ، والخمور ، والملاهي ، والمزمار ، والطنبور ، وأنا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل ، إذا نامت جيوشك ليلاً

قامت جيوش الليل على أقدامهم ، صفوفاً بين يدي ربهم ، فأرسلوا
دموعهم ، وأطلقوا ألسنتهم ، ومدوا الى الله أكتفهم بالدعاء لك
ولجيوشك ، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ،
وبركاتهم تمطرون وترزقون « فقبل ملكشاه وسكت !

نقل هذا جورجى زيدان فى كتاب التمدن الاسلامى عن
كتاب سراج الملوك ، ولم يعقب عليه ، بل اكتفى بأن ذكر أن
نظام الملك توفى مقتولاً سنة ٤٨٥ هـ

ويدكر غير واحد من المؤرخين أن نظام الملك ولى حفيده
عثمان بن جمال الملك أعمال مرو ، وأرسل السلطان اليها شحنة^(١)
اسمه قودن ، وهو من خواصه ، فنازع عثمان فى شىء . حملت
عثمان حداثة سنه ، واعتزازه بجده ، على أن قبض على قودن
وسجنه ، ثم أطلقه ، فقصده السلطان ملكشاه مستغيثاً شاكياً
فاغتاز السلطان ملكشاه لاستبدال نظام الملك وبنيه ، وخروجهم
على حدود سلطتهم . وأرسل إلى نظام الملك رسالة يقول فيها
(ان كنت شريكى فى الملك ، فلذلك حكم ، وان كنت نائبي ،
فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة ، فهؤلاء أولادك قد جازوا
أمر السياسة وطمعوا ، حتى فعلوا . . . الخ

(١) الشحنة فى التعابير القديمة يساوى ناظر المالية فى التعابير الحديثة

فقال نظام الملك لحاملي تلك الرسالة :

« قولوا للسلطان : إذا كنت لم تعلم بعد أتى شريكك في الملك ، فاعلم ! فأنتك ما نلت هذا الأمر إلا بتدييري ورأى ، أما تذكر حين قتل أبوك ، فقامت بتديير أمرك ، وقمعت الخوارج عليك : من أهلك وغير أهلك ، وأنت في ذلك الوقت تتمسك بي ؟ فلما قدت الأمور اليك ، وأطاعك القاصي والداني ، أقبلت تنتحل لي الذنوب ، وتسمع في الوشايات . قولوا للسلطان : إن دواتي مقترنة بتاجك ، فتي رفعها رفع ، ومتى سلبتها سلب ! »

ويدكرون أن الرسل اتفقوا على كتمان هذه الرسالة ، ولكن كان للسلطان عين من بين أولئك ، بلغه ما قال نظام الملك بالحرف الواحد ، فغضب السلطان ودسّ لنظام الملك من قتله بعد ذلك

والأقرب إلى الصواب ما ذكره الأستاذ محمد بك الخضري في محاضراته بالجامعة المصرية من أن نظام الملك قتل بيد أحد الباطنية حين بعث عسكره إلى قلعة الموت ، وحصر فيها الحسن ابن الصباح ، وأخذ عليه الطرق

وهذا لا ينافي ما نقل من النفرة التي وقعت بين نظام الملك وبين ملكشاه ، فان حسد الخلفاء والسلاطين لوزرائهم معروف ، وعلى الأخص في تلك الأيام المظلمة ، التي طبعت بطابع الاستبداد وكان الأمر فيها للهوى ، والحكم للجبروت !!

وقد أكثر الشعراء من رثاء نظام الملك ، فمن ذلك قول مقاتل بن عطية البكري :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة * يتيمة صاغها الرحمن من شرف
بدت فلم تعرف الأيام قيمتها * فردّها غيرةً منه إلى الصدف

وكما بنى الفاطميون الجامع الأزهر في أواسط القرن الرابع لتأييد مذهب الشيعة ، بنى نظام الملك مدارس في أواسط القرن الخامس لتأييد مذهب أهل السنة . وهكذا كان المسامون ينشئون المدارس لتثبيت الملك ، كما يفعل الاوريون والامريكيون في هذا الجيل ، ولا عيب في ذلك : فالعلم من أمضى الاسلحة في استلال السخام من الصدور ، والسياسة أدهى وأمكر من أن تُغفل مثل هذا السلاح !!

وكذلك عنى نظام الملك بإنشاء المدارس والرباطات ، ليغمر العلماء والزهاد بفضله ، فيكون له منهم جرائد شفوية تنشر دعوته في الشام ، والعراق ، وخراسان ، وهكذا فهم روح العصر فاستغل أهله ، حتى ليذكرون أنه كان إذا دخل عليه الأئمة الأكابر لا يقوم لهم ، ويجلس في مسنده ، وكان له شيخ فقير ، إذا دخل إليه يقوم له ، ويجلسه في مكانه ويجلس بين يديه ، وأنه

سئل عن ذلك فقال : إن أولئك إذا دخلوا يثنون علىّ بما ليس فيّ ، فيزيدني كلامهم عجباً وتيهاً ، وهذا يذكرني بعيوب نفسي فأرجع عن كثير مما أنا فيه !!

وإذا صححت هذه الرواية ، فإنها تدل على أن علماء ذلك العصر كانوا أضعف من أن يجهروا بالنهي عن المنكر ، وأن الخاصة كانوا لا يأبون سماع النصيح من الفقراء والمجاذيب ، لأن السياسة كانت تقضى اذ ذاك بمعاملة هذا الصنف من الناس

ومهما تكن نيات نظام الملك — والله عليم بذات الصدور — فإنه مشكور الصنيع ، فقد أكثر من المدارس ، ووقف عليها الأوقاف ، ورتب للطلبة الجرايات ، وبنى لهم الأسواق ، والمسكن ، والحمامات ، وظلت مدارسه بأوقافها زمناً ليس بالقليل ، وتخرج منها كثير من العلماء والأدباء

ولهذه المدارس النظامية فضل على الغزالي ، فقد تلقى العلم في مدرسة نيسابور . وتولى التدريس في مدرسة بغداد ، وسنعود إلى تفصيل ذلك في غير هذا الباب

الفصل الخامس

روح ذلك العصر

١

من الصعب تحديد الروح السائد في عصر من العصور ،
وانما غاية المؤرخ أن يذكر الشواهد والامثال ، ويستخلص منها
ما يرجح أن تكون عليه صورة العصر الذي يدرسه
وأنا أرجح أن تكون السذاجة هي الصفة الغالبة في ذلك
العصر ، مع شيء من المكر في الامراء والعلماء . ومن الشواهد
الدالة على هذه السذاجة ما ذكره الغزالي في كتابه « المنقذ من
الضلال » من أن الناس كانوا يقولون حين ترك المدرسة النظامية
بيغداد : انها عين أصابت الاسلام ! وما نقل السبكي من أن أحد
معاصريه سمعه يقول « قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع
مامعى ومضوا ، فتبعتهم ، فالتفت الى مقدمهم وقال : ارجع ويحك
والا هلكت ! فقلت له أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على
تعليقتى فقط ، فما هى بشئٍ تنتفعون به ، فقال لى : وماهى تعليقتك ؟
فقلت كتب فى تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ،
فضحك وقال : كيف تدعى أنك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك ،

فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة .
قال الغزالي : هذا مستنطق أطلقه الله ليرشدني به في أمري ، فلما وافيت
طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ،
وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمي »

والسداجة ظاهرة في هذا الحديث ، فمن الواضح أن حفظ
الكتب عن ظهر قلب حتى لا تبقى إلى حفظها حاجة ، آفة عظيمة
في تكوين العقول ، فليست قيمة العالم فيما يحفظ ، ولكن قيمته
في حسن الفهم ، وأصالة الرأي ، و صواب الحكم

ومن شواهد السداجة ما أورده نظام الملك في وصيته^(١)
التي تركها خلفه من الساسة حيث يقول :

« كان الامام الموفق النيسابوري من جلة علماء خراسان ، مبعجلا
مهيباً ، وقد نيّف على الخمس والثمانين . وكان السائد في عقيدة أهل
زمانه أن كل من قرأ عليه العلوم العربية ، نبغ فيها ، وبلغ الغاية ،
وانساق إليه العز والجاه ، والنعمة والثراء ، ولذلك وجهني أبي من بلدة
طوس الى نيسابور مع عبد الصمد الفقيه ، لأقرأ على ذلك الأستاذ
الناطقة الجليل . وهناك حظيت به ، فوشجت بيننا أو اصر المودة ،
وتأكدت عرى الصداقة ، ولحظني بعين عنايته ، وأنزلته من نفسي
أخص منزلة ، وألطفها ، ولبثنا على ذلك سنين عدة . وكنت أول ما نزلت
به ، وجلست في حلقة ، لقيت تلميذين في مثل سني ، حديثي عهد مثلي
بالقراءة على الامام الموفق ، وهما عمر الخيام والحسن بن الصباح ، وكانا

(١) مقدمة السباعي لرباعيات عمر الخيام

آيتين في الفطنة والذكاء ، فأنس كل منا بصاحبيه ، ونمت بيننا نحن الثلاثة أحسن صحبة وأمتها . فكان اذا قام الامام عن الدرس ، وانقضت الحلقة اجتمعنا فنذاكرنا ما تلقيناه عليه من المعارف . وكان الخيام من أهالي نيسابور ، أما الحسن بن الصباح فكان أبوه ناسكاورعا متقشفاً ، ولكنه كان زنديقاً ، فأقبل الحسن يوماً على عمر الخيام فقال له : لقد صح في أذهان الناس قاطبة أنه ليس من تلميذ يتخرج على الامام الموفق الا مصيباً عزاً واقبالاً وثروة وجاهاً ، فهب ان ذلك لم يتفق لنا نحن الثلاثة جميعاً ، فانه لا بد أن يقع لواحد منا ، فاذا يكون حق الاثنين الخائبين على ذلك الفائز الظافر ؟ قلنا له : اقترح ما تشاء فقال : فلنتماهد الآن على انه من أصاب منا الثراء فعليه أن يقسمه فيما بيننا نحن الثلاثة على السواء ، لا يؤثر نفسه بشئ دون أخويه . فأجبنا : ليكن ذلك كما قلت . ثم تحالفنا على ذلك وتعاهدنا ، ومرت الأعوام على ذلك ، وغادرت خراسان متجولاً في فضاء الله ، الى غزنه ، ثم الى كابل ، ولما عدت تقلدت منصب الوزارة في سلطنة السلطان ألب ارسلان ، وبعد مدة من الزمن عرف ذلك صاحبنا . فأتيتني يطلبان انجاز وعدى القديم ، وإشرا كهما فيما انجاز لي من النعمة والثراء »

والذي يعينني من هذه الحكاية هو أن يكون « السائد في عقيدة أهل ذلك الزمان أن من قرأ العلوم العربية على الامام الموفق نبغ فيها وبلغ الغاية وانساق إليه العز والجاه » وتلك خرافة لا يسيغها غير ضعاف العقول ، وصغار الأحلام ، وقد رأيت كيف كان الناس يتداولون « هذه العقيدة » وكيف كان

الطلبة يتغنون بها في حلقات الدروس
وقد رأينا في الفصل السالف كيف من نظام الملك على
ملكشاه بأن أقام له جيش الليل من العلماء والفقراء ، مع أنه
لا يصح الدفاع عن العلم باظهار الحاجة إلى دعوات أهله ودموعهم ،
فبئس السلاح سلاح الدمع والدعاء ، وانما تحرس الأمم بالعلم
في إقامة ما اعوجج من الأخلاق ، وإيقاظ ماخذ من النفوس ،
وإحياء ما اندرس من آثار العقول

ومن الشواهد على سذاجة ذلك العصر التحدث بالمنامات
والأحلام ، وهي شارة الارتياب في الواقع ، والأيمان بالخيال

٢

أما ما كان في ذلك العصر من مكر الأمراء والعلماء ،
فدلائله كثيرة مبعثرة في الكتب هنا وهناك ، ومؤلفات
الغزالي شهيدة على ذلك ، فكثيراً ما نراه يشن الغارة على العلماء
الذين يكثرون الجدل ، يتظاهرون بالغيرة على العلم والدين ، وهم
في الواقع طلاب جاه ، وطلاب مال !!

ويمكن الجزم بأن الغزالي يمثل عصره أصدق تمثيل وهو
يتحدث عن الأتقياء المزيفين من المتصوفة الذين يخدعون الناس

باسم التقى ، وهم في أنفسهم أنصار غيِّ وضلال . وإنما قلنا إنه
يمثل عصره ، لأنه يتكلم في هذه الشؤون بحماسة عظيمة ، ليست
صدى لمطالعائه في المؤلفات القديمة ، وإنما هي أثر لغضبته من
قوم عاش بينهم ، ولقى من مكرهم وريائهم أنواع الشقاء . وقد
سبقه المعري بنقد المتصوفة ، ولكن المعري كان غير مسموع
الكلمة في تقدمهم ، أما الغزالي فكانت كلمته في ذمهم شديدة
الأثر ، لأنه صوفي ، ولأن تلامذته كانوا عوناً له في نشر ما يريد
وإليك أمودجاً من كلامه عن أصناف المغرورين :

« وفرقة منهم عدنوا عن المنهاج الواجب في الوعظ ، وهم وعاظ
الزمان كافة ، الا من عصمه الله على الندور في بعض أطراف البلاد ان
كان ولسنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطايات والشطح وتلفيق كلمات خارجة
عن قانون الشرع والمقل طلباً للاغراب ، وطائفة شغلوا بعبارات
الذنك وتجميع الألفاظ وتلفيقها ، فأكثرهمهم الاسجاع والاستشهاد
بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم ان تكثر في مجالسهم الزعقات ،
والتواجد ، ولو على أغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الانس ضلوا
وأضلوا عن سواء السبيل » ص ٤٠٥ ج ٣ احياء

على أن الغزالي كان بنفسه أداة من أدوات الصوفية ،

وسترى كيف كان ذلك في غير هذا الباب

أما مكر الامراء والملوك فقد كاد ينحصر في ختل العامة

وجرهم إلى الحروب باسم الدين ، فمن المتعسر أن تجد أمة إسلامية حاربت أختها باسم الملك ، في دعوة صريحة ، بل كانت كل أمة تختص نفسها بالهداية ، وترمى غيرها بالمروق ، وكانت الجماهير وقوداً لنار تلك الفتن في مصر ، والشام ، والعراق ، وخراسان ، وغيرها من ممالك المساميين ، ولعن الله الساسة أصحاب الأغراض !

الفصل السادس

البلدان التي عرفها الغزالي

نريد أن نذكر في هذا الفصل بعض البلدان التي عرفها الغزالي ، لصلاة ذلك بحياته ، ونستثنى بغداد ، لأنها أشهر من أن تحتاج إلى تعريف ، وقد خصها الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بكلمة ممتعة في كتابه ذكرى أبي العلاء ، فليرجع إليه من أراد

ونعتمد في وصف تلك البلدان على معجم ياقوت^(١) لقرب مؤلفه من ذلك العصر ، ولأنه يتصور تلك المواطن على نحو ما كان يعرفها الناس إذ ذاك

(١) توفي ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان في سنة ٦٢٦ هـ وكتابه من أجود ما عرف العرب في القواميس الجغرافية

طوس

مدينة بخراسان ، تشتمل على بلدتين يقال لحداهما الطابران (وهي التي دفن بها الغزالي) وللأخرى نوقان ، ولهما أكثر من ألف قرية ، فتحت في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وبها قبر علي بن موسى الرضا وبها أيضاً قبر هرون الرشيد ، وقال مسعر ابن المهلهل : وطوس أربع مدن ، منها اثنتان كبيرتان واثنتان صغيرتان ، وبها آثار أبنية اسلامية جليلة ، وبها دار حميد بن قحطبة ، ومساحتها ميل في مثله ، وفي بعض بساينها قبر علي بن موسى الرضا وقبر الرشيد ، وبينها وبين نيسابور قصر هائل محكم البنيان ، لم أر مثله علو جدران ، وإحكام بنيان ، وفي داخله مقاصير تحار في حسنها الأوهام ، وآراج^(١) ، وأروقة ، وخزائن وحجر للخلوه ، وسألت عن أمره فوجدت أهل البلد مجمعين على أنه من بناء بعض التبايعه ، وأنه كان قصد بلاد الصين من اليمن ، فلما صار إلى هذا المكان رأى أن يخلف حرمة وكنوزه وذخائره في مكان يسكن إليه ، ويسير متخففاً ، فبنى هذا القصر وأجرى له نهراً عظيماً آثاره بينة ، وأودعه كنوزه ، وذخائره ، وحرمة ، ومضى إلى الصين فبلغ ما أراد ، وانصرف فحمل بعض

(١) مفرداً أزع بفتححتين ضرب من الابنية

ما كان جعله في القصر ، وبقيت له فيه بعدُ أموال وذخائر
تخفي أمكنتها . وصفات مواضعها مكتوبة معه . فلم يزل على
هذه الحال تجتاز به القوافل ، وتنزله السابلة ، ولا يعلمون منه
شيئا ، حتى استبان ذلك واستخرجه أسعد بن أبي يعفر صاحب
كحلان^(١) لأن الصفة وقعت له

وقد خرج من طوس عدد كبير من أئمة العلم أشهرهم أبو حامد
الغزالي ، وخرج منها الوزير نظام الملك . قال ياقوت : وأهل
خراسان يسمون أهل طوس البقر ، ولأدري لم ذلك ؟
وقال رجل يهجو نظام الملك

لقد خرب الطوسي بلدة غزنة * فصب عليه الله مقلوب بلدته
هو الثور قرن الثور في حجر أمه

ومقلوب إسم الثور في جوف لحيته^(٢)

وقال دعبل الخزاعي من قصيدة يمدح بها آل علي بن أبي طالب
رضي الله عنه ويذكر قبري علي بن موسى والرشيد بطوس :
إربع بطوس على قبر الزكي به * ان كنت تربع من دين علي وطبر
قبران في طوس : خير الناس كلهم

وقبر شرهم : هذا من العبر

(١) من مخاليف اليمن (٢) مقلوب طوس . سوط ، ومقلوب ثور . روث !

ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا
على الزكي بقرب الرجس من ضررٍ

هيات كل امرئ رهن بما كسبت
يداه حقاً . نخذ ماشئت أو فذر

وطوس هذه هي موطن الغزالي . ومولده ، وبها قبره ،
إلا إن صح مارواه بعضهم من أنه ولد بقرية تسمى غزالة بالقرب
من طوس . وأنا لا أستبعد ذلك ، مادام ياقوت يحدثنا انه كان
لطوس أكثر من ألف قرية ، وإذاً يكون الغزالي بفتح الزاي
لا بتشديدها ، على أن في طبقات السبكي ص ٩٤ ج ٤ رجلا آخر يلقب
بالغزالي ، ولا ضرورة لأن يكون هذا إسماً لعائلة قديمة كما ظن
الدكتور زويمر ، بل يمكن أن يكون كلاهما نسب لتلك القرية
الصغيرة : غزالة

نيسابور

قال ياقوت : هي مدينة عظيمة . ذات فضائل جسيمة . معدن
الفضلاء ومنبع العلماء . لم أر فيما طوّفت من البلاد مدينة كانت
مثلها . ثم قال : ومن الرى الى نيسابور مائة وستون فرسخاً ، ومنها
الى سرخس أربعون فرسخاً ، ومن سرخس الى مرو الشاهجان^(١)

(١) مرو الشاهجان ، هي قصبه خراسان وكان بها المهد ياقوت عشرة خزائن موقوفة

ثلاثون فرسخا . ثم قال : وأكثر شرب أهل نيسابور من قُرَيِّ
تجرى تحت الأرض ينزل إليها في سراديب مهياة لذلك ، فيوجد
الماء تحت الأرض ، وليس بصادق الحلاوة . ثم قال : وعهدى بها
كثيرة الفواكه والخيرات وبها ريباس ليس في الدنيا مثله ، تكون
الواحدة منه منّا وأكثر ، وقد وزنوا واحدة فكانت خمسة أرتال
بالعراق . وهى بيضاء صادقة البياض كأنها الطلع . ثم قال : وكان
المسلمون فتحوها في أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه والأمر
عبد الله بن كرز في سنة ٣١ صلحا . وبنى بها جامعاً ، وقيل إنها
فتحت في أيام عمر رضى الله عنه على يد الأحنف بن قيس ، وإنما

تحوى نفائس الكتب . منها خزانتان في الجامع احدهما يقال لها العزيرية ، وفقها رجل
يقال له عزيز الدين ابو بكر عتيق الزنجاني ، وكان فيها ١٢٠٠٠ مجلد ، وأخرى يقال
لها الكعالية ، لا أدرى الى من تنسب ، وبها خزانة شرف الملك المستوفى أبى محمد بن
منصور في مدرسته ومات المستوفى هذا في سنة ٤٩٤ هـ وكان حنفي المذهب ، وخزانة
نظام الملك في مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين ، وخزانة أخرى في المدرسة العميدية ،
وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها والخزائن الخاتونية في مدرستها ، والضميرية
في خانقاه هناك يقول ياقوت (وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد ،
أكثرها بشير رهن) ويذكر أن أكثر فوائده معجمه من تلك الخزائن . وفي مرو
الشاهجان يقول بعض الاعراب .

أقرية الوادى التى خان الفها من الدهر أحداث أت وخطوب
تعالى أطارحك البكاء فأننا كلانا بمر والشاهجان غريب
ويقول ابو الحسين مسعود ابن الحسن الدمشقي .
اخلاى ان أصبحتم في دياركم فاني بمر والشاهجان غريب
أموت اشياقا ثم أحيا تذكرنا وبين التراق والصلوع لبيب
فما عجب موت الغريب صبابة ولكن بقاه في الحياة عجيب

انتقضت في أيام عثمان فارس إلى عبد الله بن عامر ففتحها ثانية
وقد خرج من نيسابور عدد كبير من أئمة العلم ، أشهرهم
الحافظ الأمام أبو علي الحسين بن علي النيسابوري ، الذي رحل
في طلب العلم والحديث ، وعقد له مجلس الاملاء بنيسابور سنة
٣٣٧ وهو ابن ستين سنة وقد توفي سنة ٣٤٩

وقد أكثر الشعراء من ذم نيسابور . فمن ذلك قول أبي الحسن
الاسترابادي :

لا قدس الله نيسابور من بلد * سوق النفاق بمغناها على ساق
يموت فيها الفتى جوعاً وبرئهم * والفضل ماشئت من خير وأرزاق
واخير في معدن الغرثي وان برقت * أنواره في المعاني غير براق
وقال المرادي يذم أهلها :

لا تنزلن بنيسابور مغترباً * إلا وحبلك موصول بسطان
أولا فلا أدب يجدي ، ولا حسب

يعنى ، ولا حرمة تعنى لانسان

وقال معن بن زائدة الشيباني : يشكو ليله بنيسابور

تمطى بنيسابور ليلى وربما * يرى بجنوب الرى وهو قصير
ليالى إذ كل الأحبة حاضرته * وما كحضور من تحب سرور
فأصبحت أمّا من أحب فنازح * وأما الألى أقلبهم فحضور

أراعى نجوم الليل حتى كأننى * بأيدى عداةٍ سائرٍ أسير
لعلّ الذى لا يجمع الشمل غيره * يدير رحي جمع الهوى فتدور
فتسكن أشجان ونلقى أحبة * ويورق غصن للشباب نضير
وفى نيسابور تلقى الغزالي عن امام الحرمين الفقه والمنطق
والأصول ، حتى برع أنداده ، وزملاءه . وتولى فى أخريات أيامه
التدريس بالمدرسة النظامية فى نيسابور مدة يسيرة ، رجع بعدها
الى طوس ، حيث اتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقاه
للسوفية

هرماه

مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، فبعض يعدها من
هذه وبعض يعدها من تلك ، قيل إن أول من أحدث بناءها
يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة . وقد خرج منها عدد من الأدباء
والعلماء والمحدثين . ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمي . قال
الاصطخري : أما جرجان فانها أكبر مدينة بنواحيها ، وهي
أقل ندى ومطراً من طبرستان ، وأهلها أحسن وقاراً وأكثر
مروءةً ويساراً من كبرائهم ، وهي قطعتان احدهما المدينة والأخرى
بكراباذ . وبينهما نهر كبير . ولجرجان مياه كثيرة ، وضياع عريضة ،
وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسناً

من جرجان . قال ياقوت : وبها الزيتون والنخل والجوز والرمان
وقصب السكر والأترج ، وبها إبريسم جيد لا يستحيل صبغه ،
وبها أحجار كبيرة لها خواص عجيبة ، وبها ثعابين تهول الناظر ،
ولكن لا ضرر لها

وقد فتحت في سنة ١٨ هـ على يد سويد بن مقرن ، وخرج

منها عدد عظيم من العلماء ، كانت تشدّ إليهم الرّحال
وكان بها صنف جيد من الحمر ، وفيها يقول بن خزيم
وصهباء جرجانية لم يُطف بها

حنيف^ه ولم يُأمم بها ساعة غر^ه

ولم يشهد القسّ المهيمن نارها

طروقا ولم يحضر على طبخها حبر^ه

أتاني بها يحيى وقد نمت نومة^ه

وقد لاحت الشعري وقد طلع النسر^ه

فقلت اصطبجها أولغيري فاهدها

فما أنا بعد الشيب ويحك والحمر

تعففت عنها في العصور التي مضت

فكيف التصابي بعد ما كمل العمر^ه

إذا المرء وفي الأربعين ولم يكن
له دون ما يأتي حياء ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي أتى

وإن جر أسباب الحياة له الدهر
ويذكر ياقوت أن أهل الكوفة كانوا يقولون : من لم يرو
هذه الأبيات فهو ناقص المروءة ... وذكر أن مسلم بن الوليد
صريع الغواني مرض مرض الموت بجرجان ، وانه رأى نخلة لم يكن
في جرجان غيرها ، فقال :

ألا يا نخلةً بالسفِّح من أكناف جرجان
ألا إني وإياك * بجرجان غريبان

وإلى جرجان رحل الغزالي ليتلقى العلم عن أبي نصر الاسماعيلي ،
وعلق عنه التعليقة التي حدثتكم عما فعل بها العيَّارون وهو راجع
إلى طوس .

دمشق

لو أنك رجعت إلى ياقوت ، وقرأت في معجمه أخبار هذه
المدينة ، لرأيت كيف يضل العرب في بيداء الخيال ، ولعرفت أن
لهم خطأً من أساطير الأولين . وهذا الضلال في ذكر من بنى مدينة
دمشق يصور لنا منزلتها المقدسة ، التي احتلت قبلا رءوس

المسامين : فهم تارة يذكرون أن بانيتها هو دماشق بن قاني بن مالك
ابن أرغشيد بن سام بن نوح عليه السلام ، وتارة أخرى يقولون
أنها بنيت على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعين سنة من
جملة الدهر الذي يقولون إنه سبعة آلاف سنة ، وحيناً يزعمون
أن ابراهيم عليه السلام ولد بعد بنائها بخمس سنين ، وحيناً آخر
يتوهمون أن العازر غلام ابراهيم عليه السلام هو الذي بنى دمشق
وأغرب من ذلك كله قول ياقوت : وقال أهل الثقة من أهل
السيّر إن آدم عليه السلام كان ينزل في موضع يعرف الآن بيت
أناث ، وحواء في بيت لهيا ، وهابيل في مقرى وكان صاحب غنم ،
وقابيل في قنينة وكان صاحب زرع ، وهذه المواضع حول دمشق
ووجه الغرابة هو في إخلاده إلى من يسميهم « أهل الثقة »
وآين وصل أهل الثقة إلى أخبار آدم ونوح ، يأيها المؤرخ الخطير؟!
وأحب أن أنبه القارئ إلى قيمة الأغرار والغلو في وصف
البلاد ، فانه نعم الباعث على الرحلة والسياحة ، وان دل على سداجة
الواصفين ، وأربعة أخماس الناس يشتاقون إلى رؤية دمشق
حين يقرءون أنها كانت مأوى الانبياء ومصلاهم ، وانه كان بها
مسجد ابراهيم وقبر موسى عليهما السلام ، وانه لم توصف الجنة
بشيء إلا وفيها مثله !!

وكانوا يقولون (عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجة ، ومنارة
الأسكندرية ، وكنيسة الرها ، ومسجد دمشق) ولهذا المسجد
حديث عجيب ، فقد ذكروا أن الوليد بن عبد الملك بن مروان
لما أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم : إننا نريد أن نزيد
في مسجدنا كنيستكم ، يعنى كنيسة يوحنا ، ونعطيكم كنيسة
حيث شئتم ، وإن شئتم ضاعفنا لكم الثمن ، فأبوا ، وجاءوا بكتاب
خالد بن الوليد والعهد ، وقالوا إننا نجد في كتبنا أنه لا يهدمها أحد
إلا خنق ، فقال لهم الوليد : فأنا أول من يهدمها ، فقام وعليه قباء
أصفر ، فهدم وهدم الناس ثم زاد في المسجد ما أراد . قالوا ومكث
في بنائه تسع سنين يعمل فيها عشرة آلاف رجل !! وقال موسى
ابن حماد البربرى : رأيت في مسجد دمشق كتابة بالذهب في الزجاج
محفوراً فيها سورة (ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر) الى آخرها ،
ورأيت جوهرة حمراء ملصقة في القاف ، التي في قوله تعالى :
حتى زرتم المقابر . فسألت عن ذلك فقييل لى : إنه كانت للوليد
بنت . وكانت هذه الجوهرة لها ، فماتت ، فأمرت أمها أن تدفن
هذه الجوهرة معها في قبرها ، فأمر الوليد بها فصيرت في قاف
المقابر من ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر . ثم حلف لأمها أنه
قد أودعها المقابر فسكتت . ونقل الجاحظ في كتاب البلدان عن

بعض السلف أنه قال : ما يجوز أن يكون أحد أشد شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق لما يروونه من حسن مسجدهم . ويقول ياقوت : ومن عجائبه أنه لو عاش الانسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه كل يوم ما لم يره في سائر الأيام من حسن صناعاته واختلافها . ثم قال بعد كلام طويل : ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة يبهر بالحسن والتنميق الى أن وقع فيه حريق في سنة ١٦١ فأذهب بعض حسنه

وقد أكثر الشعراء من وصف دمشق ، فمن ذلك قول أبي المطاع بن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها * فلي بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء إلا استخفني * الى برّدى والنيرين حنين
وقد كان شكي في الفراق يروعي * فكيف أكون اليوم وهويقين
فوالله ما فارقتم قالياً لكم * ولكن ما يقضى فسوف يكون
وقال الصنوبري :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها * فلست ترى بغير دمشق دنياً
تفيض جداول البلور فيها * خلال حداثق يُنبئن وشياً
مكالة فواكههن أبهى المناظر في مناظرنا وأهيا
فمن تفاحة لم تعد خدّاً * ومن أترجة لم تعد ثدياً

وقال البحترى :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها * وقد وفي لك مطريها بما وعدا
إذا أردت ملأت العين من بلد * مُستحسنَ وزمان يشبه البلدا
يسمى السحاب على أجبالها فرقا * ويصبح النبات في صحرائها بددا
فلمست تبصر إلا واكفا خضيلاً * أو يانعا خصرًا أو طائرًا غردا
كأنما القيظ ولّى بعد جيئته * أو الربيع دنا من بعد ما بعدا
وقد أغرب الأقدمون في وصف دمشق ، ومسجد دمشق
والذى ذكرته من ذلك كافٍ لما أنا بصدده من صلة الغزالي بهذه
المدينة ، فقد دخلها في سنة ٤٨٩ وأقام بها أياماً قليلة ، ثم عاد إليها
بعد ذلك ، واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع ، قال السبكي :
واتفق أن جلس يوماً في صحن الجامع الأموى ، وجماعة من
المفتين يتمشون في الصحن ، وإذا بقروى أتاهم مستفتياً ، ولم
يردوا عليه جواباً ، والغزالي يتأمل ، فلما رأى الغزالي انه ليس
عند أحد جوابه ، ويعز عليه عدم إرشاده ، دعاه وأجابه ، فأخذ
القروى يهزأ به ويقول : المفتون ما أجابونى ، وهذا فقير عامى
كيف يجيبنى ؟ والمفتون ينظرونه ، فلما فرغ من كلامه معه ،
دعوا القروى وسألوه : ما الذى حدثك به هذا العامى ؟ — وكان

الغزالي إذ ذاك في زى فقير مجهول — فشرح لهم الحال فجأوا إليه وتعرفوا به ، وسألوه أن يعقد لهم مجلساً ، فوعدهم ، ثم سافر من ليلته

وهناك أحاديث كثيرة عن صلته بدمشق يضيق عن ذكرها المقام ، وحسب القارىء هذا المقدار

بيت المقدس

من المواطنين التي قدسها العرب والمسلمون ، وتركوا أمرها للخيال يصورها كيف شاء ، فهم يزعمون أن الله تعالى قال لسليمان ابن داود عليهما السلام حين فرغ من بناء البيت المقدس : سألني أعطك ! قال يارب ، أسألك أن تغفر لي ذنبي . قال لك ذلك . قال يارب ، وأسألك أن تغفر لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه ، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم وُلد . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء فقيراً أن تغنيه . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء سقيماً أن تشفيه . قال ولك ذلك !! ويروون عن أبي ذر أنه قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى مسجد وضع على وجه الأرض أولاً ؟ قال المسجد الحرام ، قلت ثم أى ؟ قال البيت المقدس ، وبينهما أربعون سنة ، وينقلون عن كعب أنه قال : معقل المؤمنين

أيام الدجال البيت المقدس يحاصرونهم فيه حتى يأكلوا أوتار قسيهم من الجوع ، فينماهم كذلك إذ يسمعون صوتاً من الصخرة ، فيقولون هذا صوت رجل شبعان ، فينظرون ، فإذا عيسى بن مريم عليه السلام . فإذا رآه الدجال هرب منه ، فبتلقاه بباب لدّ فيقتله . ويكاد الرواة يتفقون على أنها « عرصة القيامة ، ومنها النشر ، وإليها الحشر » ويزعمون أن سليمان كان اتخذ في بيت المقدس أشياء عجيبة : منها القبة التي فيها السلسلة المعلقة ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، حتى اضمحلت بحيلة غير معروفة !! وكان من عجائب بنائه أنه بنى بيتاً وأحكمه وصقله ، فإذا دخله الفاجر والورع ، تبين الفاجر من الورع ، لأن الورع كان يظهر خياله في الحائط أبيض ، والفاجر يظهر خياله أسود !! وكان أيضاً مما اتخذ من الأعاجيب أن ينصب في زاوية من زواياه عصا ابنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم تضره ، ومن مسها من غيرهم أحرقت يده !! قال ياقوت (وقد وصفها القدماء بصفات أن استقصيتها أمّلت القارئ) فياليت شعري ماذا عسى أن تكون تلك الصفات ؟

إنه لاشك في أن كل ما وصف به بيت المقدس ليس إلا صورة لمبلغ المتقدمين من فهم حقائق الأشياء ، فليست زيارته

بمخرجةٍ أحداً من ذنوبه ، ولا براحةٍ فقيراً من فقره ، ولا بمنقذةٍ
سقيماً من سقمه ، كما يزعمون أن الله قال ذلك ! وليس هناك سند
يثق به التاريخ عن بناء المسجد الحرام وبناء بيت المقدس بعده بأربعين
سنة ، كما يتوهمون أن النبي قال ذلك ! ولن يأكل المؤمنون أوتار
قسيهم من الجوع ، حين يحاصرهم الدجال في بيت المقدس ،
ولن يعود عيسى إلى هذا العالم كما يتوهم كثير من الناس ، وهب
ذلك يكون ، فن يدرينا أن المؤمنين لن يملكوا يومئذ غير القسيِّ
والنبال ؟ ولا تنس السلسلة التي علقها في القبة سيدنا سليمان ، والتي
كان ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، فتلك بلا ريب
وليدة الخيال !! وما عسى أن يكون ذلك البيت الذي كان إذا دخله
الفاجر ظهر خياله أسود ، وإذا دخله الورع ظهر خياله أبيض ؟
اذكر هذه الصورة العجيبة لبيت المقدس ، ثم اذكر قول
ابن عباس : البيت المقدس بنته الأنبياء ، وسكنته الأنبياء ، ما فيه
موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبي ، أو قام فيه ملك ، ثم اذكر
ما يزعمون من أن أول شيء حسر عنه الطوفان بيت المقدس
وأن فيه ينفخ في الصور يوم القيامة ، وعلى صخرته ينادى المنادى
يوم القيامة !!

اذكر هذا كله ، ثم دعنا نخبرك بأن الغزالي يتمدح

في كتابه « المنقذ من الضلال » بأنه كان يرحل الى بيت المقدس
فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه ، ويتعبد فيها طول
النهار !! وأنه انكشفت له في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن
إحصاؤها واستقصاؤها كما قال

هذه المواطن التي قدسها الخيال ، ووضعت في فضلها
الاحاديث ، أثرت تأثيراً بيننا في حياة الغزالي العقلية ، وطبعت
نظره الى العالم بطابع خاص . ولولا خوف الاطالة لوصفنا مارآه
في سياحاته من المشاهد والبقاع ، ولكن الرغبة في الايجاز أرصتنا
عن الاكتفاء بأشهر ما عرف من البلاد

الفصل السابع

أعيان ذلك العصر

الذي يهمننا من أعيان العصر الذي عاش فيه الغزالي انما هو
ذكر أسانته . لتأثيرهم في تكوين عقله ، غير أنه من الحسن أن
نذكر طائفة من علماء ذلك العصر ، لأن في ذلك تصويراً لحركة
العقول اذ ذاك . ونكرر ما قلناه من أن الغرض انما هو أن تقرّب
 للقارئ زمان الغزالي ومكانه ، نوعاً من التقريب . فأما تحديد

ابجاءات الفكر في تلك الآونة ، فلا يسعه هذا المؤلف ، الذي يراد به درس آراء الغزالي في الأخلاق

الشهرستاني

هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم المولود سنة ٤٧٩ والمتوفى سنة ٥٤٨ . تلقى العلم في نيسابور على أبي الحسن علي بن احمد المدني ، وقد ذكر السبكي بقية اساتذته في ص ٧٨ ج ٤ من طبقاته . ومن أشهر تأليفه كتاب (الملل والنحل) وهو كتاب جيد . قال في مقدمته « وبعد فلما وفقني الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل ، وأهل الأهواء والنحل ، والوقوف على مصادرها ومواردها ، واقتناص أوانسها وشواردها ، أردت أن أجمع ذلك في مختصر يحوى جميع ما تدبّر به المتدينون ، وانتحله المنتحلون ، عبرة لمن استبصر ، واستبصارا لمن اعتبر » وقيمة هذا الكتاب ترجع الى جمعه أكثر الآراء التي عرفها المسلمون لذلك العهد ، ومن عيوبه الأيجاز والغموض في أكثر المواطن التي تحتاج الى البسط والبيان : وقد رماه معاصروه بزيف العقيدة « لمبالغته في نصره مذاهب الفلاسفة » وسترى فيما بعد أن الشك في عقائد أنصار الفلاسفة كان من علامات ذلك الجيل

الأبيوردى

هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى ، تفقه على إمام
الحرمين ، وشهد له أهل زمانه بحسن العقيدة — وكذلك كان
العلماء دائماً في حاجة الى شهادة العامة لهم بحسن العقيدة ، كأنما
الدين خرافة يسيغها العوام وينكرها الخواص — وكان الأبيوردى
يرى نفسه أولى بالخلافة وأحق بها من سواه ، وقد جرّت له
هذه النزعة بلايا كثيرة ، اضطر بسببها الى مفارقة بغداد ، فرجع
الى همدان واشتغل مدة بالتدريس والتأليف ، ثم توفي مسموماً
بأصبهان في ربيع الاول سنة ٥٠٧

وكان الأبيوردى بارع الشعر ، وله في الصبر على أحداث
الدهر آيات بينات ، ويندر أن تجد أديباً لا يحفظ قوله :
تنكر لي دهري ولم يدر أنني * أعزّ وأحداث الزمان تهونُ
فبات يريني الخطب كيف اعتداؤه * وبت أريه الصبر كيف يكون
ومن بديع الشعر أبياته التي يتشوق فيها الى أحبائه ، وقد
خلاههم ببغداد

ألا ليت شعري هل أرا في بغيضة * أبيت على أرجائها وأقبل
هواء كأيام الهوى لا يغبه * نسيم كالحظ الغانيات عليل
وعصر رقيق الطرتين تدرجت * على صفحته نضرة وقبول

وأرض حصاها لؤلؤ وترابها * تَضَوِّع مسكا والمياه شمول
بها العيش غرض والحياة شهيته * وليلى قصير والهجير أصيل
فقل لأخلائى ببغداد هل بكم * سلو فعندى رنة وعويل
ترنحنى ذكراكم فكانما * تميل بى الصهباء حيث أميل
لئن قصرت أيام أنسى بقر بكم * فليلى على نأى المزار طويل
الأرجاني

هو أبو بكر احمد بن الحسين الأرجاني ، ولد حوالى سنة
٤٦٠ وتوفى سنة ٥٤٤ أصله من شيراز وتولى القضاء بمدينة تستر .
وهو من فحول الشعراء ، وله هذه الأبيات :

سَفَرَت كى تزود الحِب منها * نظرة حين آذنت بالتنايى
وأرت أنها من الوجد مثلى * ولها للفراق مثل بكائى
فتباكت ودمعها كسقيط الطل فى الجنارة الحمراء
فترى الدمعتين فى حمرة اللو * ف سواء وماها بسواء
خدها يصبغ الدموع ودمعى * يصبغ الخد قانيا بالدماء
خضب الدمع خدها باحمرار * كاختضاب الزجاج بالصهباء
وفى مقدور القارى أن يرجع الى كتب الأدب والتاريخ
ليعرف من نبغوا فى القرن الخامس ، فأن الوقوف على آراء
أولئك النوابغ من أقرب السبل الى فهم روح ذلك العصر ، أما
نحن فلا نريد أن نطيل

الباب الثاني

في

حياة الغزالي

تمهيد

نريد أن نتكلم بإيجاز عن حياة الغزالي ، لأنه لايعنينامنهاغير جانب واحد: وهو حاله حين وضع مؤلفاته في الأخلاق ونحب أن ننبه القارئ إلى أن المصدر الموثوق به إنما هو كتابه «المنقذ من الضلال» فأما الكتب التي ترجمته فهي في أكثرها موصومة بالمغالاة ، لأن الغزالي كما ستري نزل من أهل عصره ومن بعدهم منزلة حملت أكثر مترجميه على تصوّره كرجل لاينبغي لأحد أن يناله بنقد أو تجريح ، وانهم لوأهون ! ولم نستشير التراجم ، والمترجم نفسه يتكلم بسداجة وإخلاص عن تطور حالته العقلية ، وهي التي تهمنافي هذا الباب

الفصل الأول

أسرته

ولد الغزالي من أسرة فارسية ، لم يهتم بها التاريخ . وانه ليكنفى
أن نعرف شيئاً عن أبيه وأخيه ، لنعرف الروح السائد
في أسرته .

أما أبوه فقد نقل السبكي في طبقات الشافعية « انه كان
فقيراً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف
ويطوف على المتفهمة ويجالسهم ، ويتوفر على خدمتهم ، ويجدد
في الأحسان إليهم ، والنفقة بما يمكنه عليهم ، وأنه كان إذا سمع
كلامهم بكى وتضرع ، وسأل الله أن يرزقه ابناً ويجعله فقيهاً ، وانه
كان يحضر مجالس الوعظ ، فاذا طاب وقته بكى . وسأل الله أن
يرزقه ابناً واعظاً » ص ١٠٢ ج ٤

وقد صار ابنا هذا الفقير فقيهاً ، واعظين ، فان شئت
قلت إنها دعوة أجيب ، وإن شئت قلت إن حب هذا الرجل
للفقه والوعظ نقل إلى ولديه بطريق الوراثة

وأما أخوه فقد ذكر غير واحد انه طاف البلاد وخدم

الصوفية في عنفوان شبابه ، وصحب المشايخ ، واختار الخلوة والعزلة ، حتى انفتح له الكلام على طريقة القوم ، وأنه خرج الى العراق ، ومالت اليه القلوب ، ودخل بغداد وعقد مجلس الوعظ ، فظهر له القبول ، وازدحم الناس على حضور مجلسه ، وأن صاعد بن فارس دون مجالسه ببغداد فباغت ثلاثاً وثمانين . وذكر ابن خلكان أنه كان صاحب كرامات وإشارات ، وأنه كان من الفقهاء غير أنه مال الى الوعظ فغلب عليه . وينقلون أن قارئاً قرأ يوماً بين يديه (ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) فقال شرفهم بيباء الأضافة إلى نفسه بقوله ياعبادي ثم أنشد

وهان على اللوم في جنب حبا * وقول الأعدى إنه خليع
أصم اذا نوديت باسمي وإني * اذا قيل لي ياعبدها لسميع
ويروون أنه حكى يوماً في مجلس وعظه أن بعض العشاق كان مشغولاً بحسن صورة معشوقه ، وكان هذا موافقاً له ، فجاءه يوماً بكراً وقال له : انظر الى وجهي فأنا اليوم أحسن من كل يوم . فقال وكيف ذلك ؟ قال نظرت في المرأة فاستحسننت وجهي ، فأردت أن تنظر اليّ ، فقال : بعد أن نظرت الى وجهك قبلي لاتصلح لي . وهذه الحكاية تمثل اتجاه خاطره نحو الفناء ومن كلامه « من كان في الله تلفه ، كان على الله خلفه » وكان

ينصح أخاه أبا حامد الغزالي بقوله :

إذا صحبت الملوک فالبس * من التوقى أعزّ ملبس
وادخل إذا ما دخلت أعمى * واخرج إذا ما خرجت أخرس
وكان أسألتنا فى الأزهر يقصون علينا أحسن القصص
فى تأثير هذا الرجل على أخيه ، ويضربون لنا بورعه الأمثال ،
وقد حاولت أن أجد سنداً لما يتحدثون به فلم أجد ، فعرفت أن
أكثر ما عرف عنه إنما هو من صنع الخيال .

ولو أننا أضفنا إلى ما سلف أن الغزالي كان صغيراً حين مات
أبوه ، وأن الذى كفله مع أخيه هو رجل متصوف من أهل الخير
بوصية والده ، لعرفنا كيف تعاونت الظروف على أن تصبغ روحه
بصبغة صوفية ، وكيف أثرت هذه الصبغة على آرائه فى الأخلاق

الفصل الثانى

مولده ونشأته

ولد الغزالي فى طوس سنة ٤٥٠ هـ وفيها تلقى ما تفقه به
فى صباه على أحمد بن محمد الراذكانى ، ثم سافر إلى جرجان حيث
تلقى طرفاً من العلم عن الامام أبى نصر الاسماعيلى وعلق عنه

التعليقة — كما كانوا يقولون — ثم رجع إلى طوس وأقام بها ثلاث سنين يراجع ما تلقاه في جرجان ، ثم قدم نيسابور حيث يدرس إمام الحرمين في المدرسة النظامية علوم الفقه والمنطق والأصول فلازمه إلى أن توفي في سنة ٤٧٨ . ثم خرج إلى العسكر وهي محلة بالقرب من نيسابور يقيم فيها نظام الملك — وكان إذ ذاك في الثامنة والعشرين من عمره — وكان نظام الملك قد سمع الثناء على عقله وعلمه وأدبه . فأحضره مجلسه ، وكان منتدى العلماء ، فوجدت الفرصة لينشر الغزالي أثنى ما في خزانته من نفائس العلم وكان من نتيجة ذلك أن برع من كانوا يغشون مجلس نظام الملك وظهر عليهم ، فوُلِّاه ذلك الوزير رتبة التدريس في مدرسة بغداد سنة ٤٨٤

ولننظر ماذا يقول عن طلبه للعلم من أوائل حياته العلمية إلى أن نيف على الحسين « ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الحسين . أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمراته خوض الجسور ، لاخوض الجبان الحدور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتقحص عقيدة كل فرقة ، واستكشفت أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لأغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل

ظهارته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنهه فلسفته ، ولا امتكلمها
إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص
على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه
حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأنجس وراءه للتنبه لأسباب
جرأته في تعطيله وزندقته وقد كان التعطش إلى إدراك الحقائق الأمور
دأبى ودينى ، من أول أمرى ، وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من
الله تعالى وضعها في جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى
رابطة التقليد ، وانحسرت عنى العقائد الموروثة على قرب عهد
بسن الصبا »

وهذه الفقرة تدلنا على أمرين : الأول أن المذاهب الفلسفية
كانت كثيرة الانتشار لذلك العهد ، وأن أصحابها كانوا يجتهدون
في الدفاع عنها ، ويجدون في إذاعتها بين الناس . والثانى أن الغزالي
لم يكن من أولئك الطلبة الأغبياء الذين لا يعرفون غير رأى
واحد : يعيشون عليه ، ويموتون عليه ! بل كان طالب علم بمعنى
الكلمة ، يعرف أن واجبه يقضى عليه بأن يعلم حقيقة كل نحلة ،
وكنه كل مذهب ، ومقصد كل فرقة ، ومرمى كل عقيدة
وكان أول ما أثار فيه هذه الرغبة ما رآه من أن صبيان
النصارى ينشأون على التنصّر ، وصبيان اليهود على التهود ،
وأطفال المسلمين على الاسلام . وكانت هذه الملاحظة الوجهية
باعثاله على أن يشك في دينه حتى يتبين حقيقته - وإن لم يحدثنا

عن ذلك — لأنه ما الدليل على أن النصرانية خير من اليهودية ،
أو أن الاسلام خير من النصرانية ، أو أن اليهودية خير من
الاسلام ، كما يتحدث النصارى والمسلمون واليهود : كلٌّ على ما هو
بسبيله من تفضيل دينه على غيره من الديانات ؟

وهنا يصرح الغزالي بأنه انتهى إلى أنه لا قيمة للتقليد ،
لأنه موجود في كل أمة وفي كل ملة ، وإنما القيمة كلها لليقين
الذى لو تحدى لأظهار بطلانه من يقرب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً
لم يورث ذلك فيه شكاً ، كما أنك لو علمت أن العشرة أكثر من
الثلاثة ، وقال قائل لا ، بل الثلاثة أكبر ، بدليل أنى أقرب هذه العصا
ثعباناً ، ثم قلبها وشاهدت ذلك منه ، لم تشك بسببه في معرفة
أن العشرة أكثر من الثلاثة

الفصل الثالث

هيأة الروحية

ولكن الغزالي لم يستمر على تلك النزعة الجريئة التى أقنعته
بأن لا قيمة لغير اليقيز ، بل اندفع يحدثنا عن شكوك فرجح
أنه لم يكن فيها غير صادق ، وأخذ يبين أنه اقتنع أولاً بأن

اليقين ينحصر في الحسيات والضروريات ، ثم رأى أن الحس ليس أهلاً للثقة به ، لأنك تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفي الحركة ، ثم تعرف بعد ساعة بالتجربة والمشاهدة أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة ، بل على التدرج ذرة ذرة حتى لم تكن حالة وقوف ، ثم يذكر الغزالي أنه بعد أن بطلت ثقته بالمحسوسات ولَّى وجهه شطر العقليات التي هي من جنس الأليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً . ثم يزعم أن المحسوسات قالت له : بيم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بي فإنا حاكم العقل فكذبني ، ولولا أن جاء حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء إدراك حاكم العقل حاكماً آخر إذا تجلَّى كذب العقل في حكمه ، كما تجلَّى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلَّى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته ؟

وهنا يدخل الغزالي في مضايق من شعاب الحدس والتخمين فيتوهم أنه لا يبعد أن تكون هناك حالة فوق اليقظة التي هي بلا شك أثبت من حالة النوم ، وتكون نسبة اليقظة إليها كنسبة

النوم إلى اليقظة ، ثم يتردد في تمييز هذه الحالة فلا يدري أهي الموت الذي تنكشف به حقائق الأشياء لقوله تعالى (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) أم هي حالة الصوفية : إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي هي لهم أنهم إذا غاصوا في أنفسهم ، وغابوا عن أحوالهم وحواسهم ، رأوا أحوالاً توافق العقولات ؟؟
ثم يذكر الغزالي أنه عاد إلى قبول الضروريات العقلية ، ولكن عودته لم تكن بنظم دليل وترتيب كلام ، بل كانت بنور قذفه الله في صدره كما قال

ونحن لانزاع الغزالي في أن لله نوراً يقذفه في صدور عباده
ولكن نسأله : لم لا تكون الأحكام العقلية قبساً من ذلك النور ؟
ونسأله كذلك : ما هي حالة المرء الذي ينتظر هذا النور الذي تراه فوق البرهان والدليل ؟

على أن الذي يعيننا قبل كل شيء : هو أن نسجل أن الغزالي وضع مؤلفاته في الأخلاق وهو على هذه الحال . ونرجح أن حياته الروحية ابتدأت بعد توليه التدريس في مدرسة بغداد ، ثم لازمته إلى النهاية ، كما استراه

الفصل الرابع

فهمه للحياة

ولأجل أن نتبين وجهة نظره في أحكامه الأخلاقية ،
ينبغي أن نعرف كيف كانت صحته ، وكيف كان مزاجه ، وكيف
كان فهمه للحياة ، حين عني بالتأليف في الأخلاق . فان معرفة
مزاج المؤلف ، وصحته ، وفهمه للحياة الاجتماعية ، من أهم
ما ينبغي تقديمه قبل الشروع في درس ماترك المؤلفون
والسند الصحيح لحياة الغزالي هو كتابه (المنقذ من
الضلال) فلندعه يصف لنا حياته في عزلته التي دامت نحو عشر
سنين ، والتي وضع في أثناءها كتاب الاحياء وهو أهم ما كتب
في الأخلاق

قال بعد كلام طويل : « ثم اني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت
بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم انما تم بعلم وعمل ،
وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة
وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى
وتخليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل
علمهم ، من مظالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي ،

وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي
زيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه
مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم
والسمع ، وظهر لي أن أخص خواصهم لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ،
بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات . فكم من الفرق بين أن يعلم المرء
حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما ، وشروطهما ، وبين أن يكون
صحيحاً وشبعان . وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حال
تحصل من استيلاء أجزء تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين
أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وهو سكران
ما معه من عامه شيء ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه
شيء من السكر ، والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها
وأدويتها وهو فاقد للصحة ، فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة
الزهد وشروطه وأسبابه وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس
عن الدنيا

« فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال ، لا أصحاب أقوال ، وأن
ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق الا ما لا سبيل اليه
بالسمع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك ، وكان قد حصل معي من العلوم
التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنف العلوم
الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر : فهذه
الأصول الثلاث من الايمان كانت قد رسخت في نفسي ، لا بدليل معين
محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .
وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف
النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا

بالتجاني عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنهه
الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال
والهرب من الشواغل والعوائق ، ثم لاحظت أحوالى فاذا أنا منغمس
فى العلائق وقد أهدقت بى من جميع الجوانب ، ولاحظت أعمالى ،
وأحسنها التدريس والتعليم : فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا
نافعة فى طريق الآخرة ، ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فاذا هى غير
خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ،
فتيقنت أنى على شفاجرى هار ، وأنى قد أشرفت على النار ، ان لم
أشتغل بتلافى الاحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام
الاختيار : أصم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوماً
وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى ، لاتصدق لى
رغبة فى طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها
عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها الى المقام ، ومنادى
الايمان ينادى : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر الا القليل . وبين
يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ،
فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وان لم تقطع الآن هذى
العلائق فمتى تقطع !! ؟؟

« فبعد ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار ،
ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، واياك أن تطاوعها فانها
سريعة الزوال ، فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن
المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافى عن منازعة
الخصوم ، ربما لا تتيسر لك المعاودة . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات

الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر . أوهارجب سنة ثمان
وثمانين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى
الاضطرار ، اذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت
أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطيباً لقلوب المختلفين اليّ ، فكان
لا ينطلق لساني بكلمة ولا أستطيعها ألبتة ، ثم أورثت هذه العقلة
في اللسان حزناً في القلب بطلت معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب ،
فكان لا ينساغ لي شربة ، ولا تهضم لي لقمة ، وتعدى ذلك الى ضعف
القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا هذا أمر نزل
بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل الى العلاج »

وانما نقلت هذه القطعة الطويلة من كتابه المنقذ من الضلال
لأن الغزالي عندي صادق فيما يحدث عن نفسه ، وكلامه خير
للباحث من استشارة التراجم المختلفة ، ولم نستشير التراجم ،
والترجم نفسه يحدثنا عن تطور حالته العقلية ؟

وهل أدل على لون نفسه في ذلك الحين من قوله بعدما سلف
(ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت إلى
الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجب
المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه ، والمال ،
والأهل والولد والأصحاب) (؟!)

ويجب أن تنتبه لهذه الكلمة ، فهي كافية في تصوير نفسه ،
وينبغي أن نعرف أنه نص فيما بعد على أنه دام على هذه الحال

عشر سنين ، وقد كتب كتبه الأخلاقية وهو في هذه الحال ،
ولا تسأل كيف ترك بغداد ، ولا كيف عاد إلى أهله ، فقد رأيت
كيف اعتلت صحته ، وتغير مزاجه ، وكيف سهل على قلبه ترك
أولاده ، وهو الذي تمدح بأنه كان يصعد منارة مسجد دمشق
طول النهار ويغلق بابها على نفسه ، وكان يرحل إلى بيت المقدس
فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه !!

على أنه بعد أن عاد إلى أهله (آثر العزلة أيضاً حرصاً على

الخلوة ، وتصفية القلب للذكر) كما قال

وأنا لا أهتم بما ذكر من أنه انكشفت له (في أثناء هذه
الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها ، واستقصاؤها) وإنما يهمني
أن أثبت أنه كتب ما كتب في الأخلاق وهو على هذه الحال
ويتلخص ماسلف في ثلاثة أمور

الأول — ماورثه عن أبيه من نوعته الصوفية

الثاني — ما استفاده من وصيته تأييداً لتلك النزعة

الثالث — عشر سنين قضاها في العزلة ، لها ما لها من الأثر

في تكوين نفسه ، وتكييف مزاجه ، والتأثير في كتبه

اذن ليعلم القارئ منذ الآن أن النزعة الغالبة على فهمه

للأخلاق إنما هي نزعة الصوفية ، وسيرى ذلك مفصلاً في عدة

مواطن من هذا الكتاب

الفصل الخامس

وفاته وراثته

ترك الغزالي بغداد ، وقصد البيت الحرام ، وأدى فريضة الحج في سنة ٤١٨ بعد أن أناب أخاه عنه في المدرسة النظامية ، ثم دخل دمشق في سنة ١٨٩ ومكث فيها أياماً ، ثم توجه إلى بيت المقدس فجاور به مدة ، ثم عاد إلى دمشق واعتكف في المنارة الغربية من الجامع ؛ ثم ذهب إلى الاسكندرية وأقام بها مدة ، ويقال انه كان ينوي الرحلة إلى السلطان يوسف بن تاشفين ، لما بلغه من عدله ، ولكنه لما سمع بموته عاد إلى التجول في الآفاق لزيارة المشاهد والترب والمساجد ، كما يقول مترجموه ، ثم رجع إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم بلسان أهل الحقيقة ؛ وحدث بكتاب الأحياء . ثم عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية في نيسابور ، ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء و خانقاه للصوفية ، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب ، والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام ، إلى أن توفي رحمه الله بطوس يوم الاثنين

رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ . قال السبكي : ومشهده يزار
بمقبرة الطابران

قال الزبيدي « ووجدت في كتاب بهجة الناظرين وأنس العارفين
للعارف بالله محمد بن عبد العظيم الزمورى ما نصه : ومما حدثنا به من
أدركنا من المشيخة أن الامام أبا حامد الغزالي لما حضرته الوفاة أوصى
رجلا من أهل الفضل والدين كان يخدمه أن يحفر قبره في موضع بيته ،
ويستوصى أهل القرى التي كانت قريبة الى موضعه ذلك بحضور جنازته
وأن لا يباشره أحد حتى يصلى ثلاثة نفر من الفلاة لا يعرفون ببلاد
العراق : يغسله اثنان منهما ويتقدم الثالث للصلاة عليه بغير أمر ولا
مشورة . فلما توفى فعل الخادم كل ما أمره به ، وحضر الناس ، فلما
اجتمعوا لحضور جنازته رأوا ثلاثة رجال خرجوا من الفلاة ، فعمد
اثنان منهم الى غسله ، واختفى الثالث ولم يظهر ، فلما غسل وأدرج
في أكفانه ، وحملت جنازته ، ووضعت على شفير قبره ، ظهر الثالث
ملتفأ في كسائه ، وفي جانبه علم أسود ، معهما بعامة صوف ، وصلى
عليه وصلى الناس بصلاته ، ثم سلم وانصرف ، وتوارى عن الناس ،
وكان بعض الفضلاء من أهل العراق ممن حضر الجنازة ميزه بصفاته ولم
يعرفه ، الى أن سمع بعضهم بالليل هاتفاً يقول لهم : ان ذلك الرجل الذى
صلى بالناس هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن اسحق الشريف ، جاء من
المغرب الاقصى من عين القطر ، وأن المدين غسلها صاحبها الخ »
وهذه بالطبع خرافة لفقها المتصوفة بعد موت الغزالي ،
وهي في ذاتها تدل على أن الغزالي لم يميت إلا بعد أن اتفق العامة

على صلاحه ، فقد رمى بالزندقة في جزء من حياته ، ثم عاد في نظر العامة من المكشفين ، حتى ليذكرون أنه أنشأ عند موته هذه القصيدة

قل لآخوان رأوني ميتا * فبكوني ورثوني حزننا
أعلى الغائب منا حزنكم * أم على الحاضر معكم ههنا
أتخالوني بأني ميتكم * ليس ذلك الميت والله أنا
أنا في الصدر وهذا بدني * كان جسمي وقبصي زمتنا

وهي طويلة تجدها ضمن مجموعة مخطوطة نمرة ١٢١ تصوف بدار الكتب المصرية . وهي كذلك مما لفقّه أصحابه بعد موته ، وما أكثر ما زور باسمه من الآثار !!

ونقل ابن الجوزي في كتاب الثبات عند الممات عن أحمد أخي الغزالي أنه قال : لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضع على أبو حامد وصلي ، وقال علي بالكفن ، فأخذه وقبّله ووضع على عينيه ، وقال : سمعاً وطاعة للدخول على الملك ، ثم مدّ رجله واستقبل القبلة ، ومات قبل الإِسْفار

وسبحان من تفرّد بالبقاء

وقد رثاه الأبيوردى بقوله :

بكي على حجة الاسلام حين ثوى * من كل حيّ عظيم القدر أشرفه

فما لمن يمتري في الله عبرته * على أبي حامد لاح يعنفه
تلك الرزية تستوهي قوى جلدى * فالطرف تسهره والدمع تنزفه
فاله حلة في الزهد منكرة * وما له شبهة في العلم تعرفه
مضى ، وأعظم مفقود فجعت به * من لانظير له في الناس يخلفه
وقال في رثائه القاضي عبد الملك المعافى

بكيت بعينى ثا كل القلب واله * فتى لم يوال الحق من لم يواله
وسيبت دمعاً طالما قد حبسته * وقلت لجفنى واله ثم واله

ونحن — في جملة من انتفع بمؤلفات الغزالي — نسأل الله
أن يرحمه رحمة واسعة ، وأن يجزيه أحسن الجزاء على ما قدم في سبيل
العلم والدين من صادق الجهود ، وأن يتجاوز عن سيئاته بمنه وكرمه
انه نعم المولى ونعم النصير ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم



الباب الثالث

في

المنابع التي استقى منها الغزالي

تمهيد

يذكر مؤرخو الفلسفة أن سقراط هو أول من بدأ بالتفكير في الانسان وما يتعلق به ، وأنه أول من قال : إعرف نفسك بنفسك . ولعلمهم يريدون أنه أول من بحث في الانسان بحثاً منظماً من حيث واجبه نحو نفسه ، ونحو شركائه في الاجتماع ، على أن يكون ذلك علماً ذا قواعد وأصول

أما البحث في أن بعض الأعمال شر ، وبعضها خير ، وشيء منها نافع ، وشيء منها ضار ، فهو قديم سبق سقراط بأجيال فالأمة العربية التي ورث الغزالي وورث أساتذته آدابها القديمة ، كانت تقول الشعر والنثر في تهذيب الأخلاق ، فمن الواضح أن قول بعض الاعراب في وصية ابنه « المنية والالدينية » فيه ضرب من التهذيب الفردي ، وقول أحدهم في حض الجيش

على صدق اللقاء « الطعن في النحور أكرم من الطعن
في الظهر » فيه نوع من تقويم المحاربين ، لأن الأخلاق
لا تعرف موطناً بعينه ، وإنما تتبع الرجل في كل حال

وكذلك قول أكرم بن صيفي « العقل راقد ، والهوى
يقظان . والشهوات مطلقة ، والحزم معقول . والمستبد برأيه
موقوف على مداحض الزلل . أصبح عند رأس الأمر أحب إلى
من أن أصبح عند ذنبه . لم يهلك من مالك ما وعظك ، نفاذ
الرأى في الحرب ، أجدى من الطعن والضرب ، التقدم قبل
التندم . ويل لعالم أمر من جاهله ، يتشابه الأمر إذا قبل ، فإذا
أدبر عرفه الكيس والأحمق » في هذه الكلمات كثير من الآداب
الاجتماعية ، وهي جزء من علم الأخلاق

ونجد شعراء الجاهلية والاسلام ضربوا بسهم في معرفة
الطبائع البشرية ، فنرى في شعرهم شيئاً عن أثر الوراثة ، وأثر
الرفقة ، وأثر الجوار ، الى غير ذلك من المعاني التي بسطها الفلاسفة
حين تكلموا في الأخلاق . فقول ذي الأصبغ العدواني :

كل امرئ صائر يوماً لشيئته وأن تخلق أخلاقاً الى حين

يمائل بعض المذاهب الأخلاقية

وقول مسكين الدارمي :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم * على سر بعض غير أنى جماعها
لكل امرئ شِعْب من القلب فارغ * وموضع نجوى لا يرام اطلعها
يظنون شتى فى البلاد وسرهم * الى صخرة أعياء الرجال انصداعها
يمائل ما يضعه الفلاسفة فى الآداب الفردية

ويمكثنا أن نعد المدح والهجاء من علم الأخلاق ، لأن
المدح فى الغالب تصوير للفضائل ، والذم تمثيل للردائل ، ووصف
الفضائل والردائل مما يُعنى به علم الأخلاق
فقول قعنب بن ضمرة :

إن يسمعوا ريبةً طاروا بها فرحاً * عنى وما سمعوا من صالح دفنوا
صُمٌ إذا سمعوا خيراً أذكرت به * وان ذكرت بشر عندهم أذنوا
جهلاً علينا وجبناً عن عدوهم * لبئست اخلتتان الجهل والجبن
هذا هجاء ، ولكن فيه تصوير لبعض الصفات الذميمة التى
يُعنى بجرها علم الأخلاق

وقول حسان بن ثابت :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه * لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال إن أودى فأجمعه * ولست للعرض ان أودى بهحتال
هذا نخر ، ولكن فيه تصوير لفضيلة من كرائم الفضائل

الانسانية

ولا تنس الحكم التي فاضت بها النفوس العربية ، فأى
كلام أكرم وأمتع من قول وابصة الأسدى :

أحب الفتي ينفي الفواحش سمعه * كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطاً أذى * ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هُجراً
اذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً * أديباً ظريفاً عاقلاً ماجدا حراً
إذا ما أتت من صاحب لك زلة * فكن أنت محتالاً لزلته عذراً
غنى النفس ما يكفيك من سدخلة * فان زاد شيئاً عاد ذلك الغنى فقراً
والقرآن ؟

في القرآن تحليل دقيق لنزعات النفوس ، وخلجات القلوب ،
وفيه حل لأكثر المشاكل الأخلاقية التي شقى في حلها
الحكماء ، ففيه أدب الرجل مع ربه ، ومع نفسه ، ومع زوجه ،
ومع آبائه ، ومع أبنائه ، ومع اخوانه ، ومع أصدقائه ، ومع أعدائه ،
ويندر أن تجد مشكلة خلقية لم يعن بحلها القرآن . وفي الحديث
توضيح وتتميم لما في الكتاب العزيز ، ويكفي أن تنظر فيما يخص
الأدب من كتب السنة لتعرف صدق ما نقول

وبعد ما جاء في خطب العرب وشعرها ، وما جاء في القرآن
والحديث ، وضعت كتب خاصة لاسير والسلوك ، من أقدمها
كليلة ودمنة ، الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ، وقفاه بكتابه

الادب الكبير والادب الصغير ، ووضعت أبواب مطولة
في كتب الفقه عن آداب الزواج ، ومعاملة الرقيق ، ومعاملة
المحاربين ، وما الى ذلك مما يهتم به الناس في الحرب والسلم ، ويبني
عليه الاجتماع

ثم كانت المقامات والخطب المنبرية ، التي أودعها الأدباء
والمصلحون آراءهم في تهذيب النفوس ، وتلطيف الطباع

كل ما قدمته كان ينبوعاً صافياً ينهل منه الغزالي ويعل وهو
يضع مؤلفاته في الأخلاق ، وقد تبينت أحكامه ، فرأيته لا يضع
حكماً إلا وقد اقتبس من حكمة ، أو مثل ، أو بيت من الشعر ،
أو آية ، أو حديث ، أو أثر ، الى غير ذلك مما قرأه بنفسه أو سمعه
من أساتذته ، ولقد حاولت أن أرجع كل حكم لأصله ، ولكنني
رأيت في ذلك منافاة للإيجاز ، وهو شرط هذا الكتاب

على أن الغزالي مع ترسمه لما سبقه من الآثار الادبية لم يخل
من حرية الفكر ، والميل الى التجديد ، فقد خرج على الأشعرى
في بعض آرائه ، وخالف الشافعية في بعض ما يقولون به ، ولكنه
على كل حال يسائر المتقدمين ، ولا يخالفهم — حين يخالفهم — الا
برفق واحتياط ، كما يفعل الحذر الهيب

إفصل الأول

المصادر الفلسفية

درس الغزالي الفلسفة ، ولكنه درسها بنية سيئة ، درسها ليسبر غورها ، ثم ينشر مساويها في العالمين !

وقد درسها بنفسه ، ولم يتتلمذ لأستاذ ، فكان ذلك داعية لهذا البغض العميق ، الذي جعله ينسى الفلاسفة ، ولم يذكرهم إلا بسوء في كتبه الاخلاقية ، ولو أنه تلقاها على أستاذ كما تلقى الفقه ، والتصوف ، والتوحيد ، لرجونا أن تخف حدته كلما وجد الفرصة سانحة ليلسق الفلاسفة بلسان حديد^(١)

ذلك بأن الأساتذة ينتصرون لعلومهم ، ويؤثرون في تلامذتهم أثراً غير قليل ، وأثر المتصوفة من أساتذة الغزالي واضح كل الوضوح فيما صبغت به آراؤه الدينية والأخلاقية

ولكن هل نجا الغزالي من محاكاة الفلاسفة حين كتب في الأخلاق ؛ كلا ! وإن نظرة في تقسيم الفضائل ، وطرائق كسبها ، وتنويع الرذائل ، ووسائل اخلاص منها ، لترينا مبلغ محاكاته للفلاسفة الذين كتبوا في الأخلاق ، والآداب الاجتماعية

(١) انظر ص ١٠٩ من المنقذ

وإنك لتضحك بملء فمك حين تراه يقول في كتابه المنتقذ من الضلال
« وأما السياسات فجميع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية
المتعلقة بالأمر الديني والسلطانية ، وإنما أخذوها من كتب الله
المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأولياء . وأما
الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس وأخلاقها ،
وذكر أجناسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وإنما أخذوها
من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله ، وعلى مخالفة
الأهواء ، وسلوك الطريق الى الله بالإعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد
انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها
ما صرحوا به ، فأخذوا الفلاسفة ومزجوه بكلامهم ، توسلا بالتجمل
به الى ترويح باطلهم » ص ١٦

وقد لحظ الغزالي أن هذه الدعوى العريضة قد تقبل إذا
وجهت إلى فلاسفة الاسلام ، فقد قرءوا القرآن ، وعرفوا منه
أشياء من حكم الأنبياء والمرسلين ، وقرءوا للصوفية كثيراً من
الحكم والأمثال ، ولكن هذه الدعوى قد تظهر باطلاً إذا وجهت
إلى فلاسفة اليونان ، فانظر ماذا يقول في ذلك :

« ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر ، جماعة من المتألهين ،
لا يخلي الله تعالى العالم منهم ، فانهم أتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة
الى أهل الأرض » ص ١٧

فعلى هذا لا فضل لسقراط ، ولا أفلاطون ، ولا أرسططاليس
فيما وفقوا إليه ، حين كتبوا في الاخلاق ، وإنما الفضل لأولئك

« الأوتاد » الذين شرفت بهم بلاد اليونان منذ آلاف السنين ،
ولا أدري ماذا يفعل الغزالي إذا أقسم الأغارقة بالله جهد أيمانهم
إنه لم يكن لهم إله واحد ، وإنما كان لهم ألف إله وإله ، بل كان
من آلهتهم من يحض على اللذة ، ويمهد للفسق السبيل !!

إنه لاشك في أن الغزالي استقى من المنابع الفلسفية ، في كل
ما كتب عن الأخلاق ، وغاية الأمر وجهه الدين ، ووجهه
التصوف ، غلبتا عليه ، وصورتا آراءه بصورة دينية ، روحية ،
تبدو للنظرة الأولى وكأنها لا تمت للفلسفة بسبب ، ولا تأخذ منها
بنصيب ، وهي في الواقع متأثرة بما للفلسفة من أصول

وإنه لا حرج علينا في أن نقرر أن الغزالي أصلى الفلسفة نار العقوق
فقد كانت سبب حصافته ، وذبوع صيته ، ثم أطمع فيها العامة ،
ومكن الجهال من تصغير الحكماء ، وليس تكفيره لابن سينا
والفارابي بالأمر الهين ، وإن فعلته تلك لتحسب بذرة هذه
التقاليد الممقوتة التي يعانيتها المفكرون الأحرار ، في جميع الاقطار
الاسلامية ، منذ حين !

أهوان الصفا

جمعية شبه سرية . اجتمعت في البصرة في منتصف القرن
الرابع . وإنما كانت سرية لكره عامة الناس للفلسفة إذ ذاك .

وكان غرض هذه الجمعية نشر المعارف التي يرونها صحيحة في جميع الأقطار الاسلامية ، فقد كانوا يرون « ان الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية » وقد ألفوا إحدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة العلوم المعروفة لعهدهم — وقالوا في أول هذه الرسائل « ان الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا في علم النفس ، ولكنهم لما طولوا الخطب فيها ، ونقلها من لغة الي لغة من لم يكن قد فهم معانيها ، حرفها وغيرها ، حتى انغلق على الناظر فيها ، فهم معانيها . ونحن قد أخذنا لب معانيها ، وأقصى أغراضهم فيها ، وأوردناها بأوجز ما يمكن من الألفاظ في إحدى وخمسين رسالة »

وقد نقل الأستاذ أحمد أمين عن مكدونالد أن بعض الباحثين ظن أن هذه الجمعية جمعية باطنية ، لما بين ما يجيء فيها أحياناً وبين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة الموت على كثير من نسخ رسائل إخوان الصفا^(١) وذكر الأستاذ الكونت دي جلارزا في محاضراته بالجامعة المصرية ان أحد اخوان الصفا وهو أبو حيان التوحيدى المتوفى نحو سنة ٣١٩ هـ كان يقول « إن الشريعة لم تكن كاملة ، بل فيها

(١) مبادئ الفلسفة ص ١٢٥

غلاطات وجب اصلاحها بواسطة الفلسفة »

ورسائل إخوان الصفا محتاج إلى درس طويل لمعرفة ما فيها من الأغراض الفلسفية ، والدينية ، والسياسية . ويكفي أن يعرف القارئ أن الغزالي اطلع على هذه الرسائل ، واستفاد منها ، وان صب على أصحابها جام سخطه وغضبه ، لان استفادة المرء من كتاب لا تتوقف على حبه لصاحبه ، بل صرح الغزالي بأنه أقبل في أول حياته العلمية على درس ما عرف لهده من المذاهب والآراء

الفارابي

هو أبو نصر محمد بن طرخان . وهو فارسي من بلدة تسمى فاراب من بلاد خراسان — جاء إلى بغداد . وأخذ علم المنطق عن أبي بشر متى بن يونس النصراني الذي توفي سنة ٣٢٨ ثم انتقل إلى مدينة حرّان وتعلم بها الفلسفة ، وعاد بعد ذلك إلى بغداد ، ثم رحل إلى دمشق وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان قال سلطان بك محمد في محاضراته بالجامعة المصرية « وهو في مقدمة الفلاسفة الاسلاميين الذين طالعوا كتب افلاطون وارسطو ووقفوا على أغراضها . وأحسنوا فهمها . يدل لذلك ما حكاه الشيخ الرئيس من أنه عرف غوامض الفلسفة ، ووقف على مقاصدها ، واستظهر القسم الالهى منها ولم يقف على حقيقة أغراضه ومباحثه ،

فسمّته نفسه . وكان ذات يوم لدى الوراقين ومر عليه دلال كتب ،
وبيده مجلد ، وقال له : اشتر هذا . فلما علم أنه في الفلسفة الالهية ،
قال لا حاجة لي به . فقال له الدلال : ان صاحبه محتاج الى بيعه ، ويطلب
به ثمنًا قليلا . وأبيعه بثلاثة دراهم . قال فأخذته ووجدته تأليف
أبي نصر الفارابي ، فلما قرأته وقفت منه على أغراض ذلك العلم وفهمته
بعد أن مللت الاشتغال به ويئست من فهم أغراضه »

وكان معشوق الفارابي من فلاسفة اليونان أرسطو ، حتى
قيل انه وجد كتاب النفس لأرسطو وعليه بخط الفارابي « إني
قرأت هذا الكتاب مائة مرة » ولكثرة شرحه لآراء الفلاسفة
لقب بالمعلم الثاني كما لقب أرسطو بالمعلم الاول . وسئل : أنت أعلم
أم أرسطو ؟ فقال : لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه . وتوفي
الفارابي رحمه الله سنة ٣٣٩ هـ وهو يناهز الثمانين

وللفارابي آثار كثيرة عدا عليها الفناء ، ومن مؤلفاته الباقية
« آراء أهل المدينة الفاضلة » وهو يحاكي فيه جمهورية أفلاطون
وقد انتفع الغزالي بمؤلفاته ، وان حكم بكفره مجازفة
وبلا دليل

ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا أشهر
فلاسفة المسلمين ، توفي سنة ٤٢٨ و سنه ٥٨ سنة . وكان من أمهر

الأطباء، وكتابه « القانون » كان العمدة في الطب في القرون
الوسطى عند الشرقيين والغربيين . وقد عني العرب ببسط آرائه
الفلسفية ، وبشرح مادون في الاخلاق ، وطبائع النفوس
ولا ريب في أن الغزالي انتفع بمصنفاته ، وأن جازاه جزاء
سماّر ، حيث حكم بكفره ، مجازاةً للعامة ، وطاعةً للهوى . وسيعلم
الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون

ابن مسكويه

ومن الفلاسفة الذين انتفع الغزالي بأرائهم في الأخلاق
ابن مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢١ هـ .
وهو من فلاسفة المساميين ، وله عدة كتب في الأخلاق ،
أشهرها كتابه المسمى : تهذيب الأخلاق ، وتطهير الاعراق ،
وهو يقع في ١٨٥ صفحة ، ويقول في مقدمته (غرضنا في هذا
الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها
جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ،
ويكون ذلك بصناعة وترتيب تعليمي ، والطريق في ذلك أن
نعرف أولاً نفوسنا ما هي ، وأى شئ هي ، ولأى شئ أوجدت
فيها ، وما قواها وملكاتهما التي اذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا
بها هذه الرتبة العلية الخ)

وابن مسكويه هذا ينقل عن الفلاسفة اليونانية بطريقة صريحة ، لا لف فيها ولا مداورة ، فهو من مجددى فلسفة اليونان مع الحرص بقدر ما يمكن على موافقة الشريعة الاسلامية . وكتابه الذى نوهنا عنه ذو أثر كبير فى تكوين الغزالى من الوجهة العقلية وقد هممت بوضع مقارنة بين كتابه ذلك ، وبين كتاب الاحياء ، ثم رأيت ان هذا باب اذا أطلته طال ، واستنفد وقتاً أنا محتاج اليه فى غيره من الابواب ، فالأكتف ببعض فقرات نقلها الغزالى عن ابن مسكويه نقلاً يشبه أن يكون حرفياً ، من غير أن ينوه بالكتاب الذى نقل عنه ، وما أدرى أكان ذلك مقصوداً أو غير مقصود ، ولكنه على كل حال دليل على تأثر الغزالى بمؤلفات ابن مسكويه ، والى القارىء البيان :

(١) يقول ابن مسكويه (ومن انخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الخساعات التى لا ثبات لها فهو حقيق بالملتق من خالقه عز وجل ، خلىق بتعجيل العقوبة ، وراحة العباد والبلاد منه) ويقول الغزالى : (ومن انفق عن هذه الجملة كلها ، واتصف بأضدادها ، استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد)

(٢) يقول ابن مسكويه (إن أول ما ينبغى أن يتفرس فى الطفل ويستدل به على عقله ، الحياء ، فانه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ، ومع احساسه به يحذره ويتجنبه ، فاذا نظرت الى الصبي فوجدته مستحياً

مطرقا بطرفه الى الارض ، غير وقاح الوجه ، ولا محددك اليك ، فهو أول دليل نجابته ، والشاهد لك على أن نفسه قد أحست بالجليل والقبيح ، وهذه النفس مستعدة للتأديب ، صالحة للعناية ، لا يجب أن تهمل ولا تترك)

ويقول الغزالي : (ومهما رأى فيه مخايل التميز . فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهوراً أوائل الحياء ، فانه اذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك الا لأشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض ، فصار يستحي من شئ دون شئ ، والصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحيائه وتميزه)

(٣) يقول ابن مسكويه (ان نفس الصبي ساذجة ، لم تنتقش بعد بصورة ، وليس لها رأى ولا عزيمة تميلها من شئ الى شئ)

ويقول الغزالي (والطفل أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة)

(٤) يقول ابن مسكويه (ويؤلم ان أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللواتي يتزين للرجال . ثم العبيد والخوول . وأن الاحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه حتى يتربى على ذلك . ويسمعه من كل من يقرب منه ، ويكرر ذلك عليه)

ويقول الغزالي (ويجب اليه من الثياب البيض دون الملون ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والخنثين ، وأن الرجال يستنكفون منه ، ويكرر ذلك عليه)

(٥) يقول ابن مسكويه (ولا يترك لمخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته ، لا سيما من أترابه . ومن كان في مثل سنه ممن يعاشره

أويلاعبه . وذلك أن الصبي في ابتداء نشوئه يكون على الأكثر قبيح
الافعال . إما كلها وإما أكثرها . فانه يكون كذوباً . ويخبر ويحكي
مالم يسمعه ولم يره . ويكون حسوداً سروقاً تماماً لجوجاً ذا فضول)
ويقول الغزالي : (ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا الرفاهية
فان الصبي مهما أهمل خرج في الأغلب رديء الاخلاق كذاباً حسوداً
سروقاً نموماً لجوجاً ذا فضول)

وبين العبارتين فرق صغير ، وعبارة الغزالي أدق ، لانها تعلق فساد
الطفل على افعال تربيته وتأديبه

(٦) يقول ابن مسكويه (ثم يطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار
التي تجرى مجرى ما تعوده بالأدب . ويحذر النظر في الأشعار السخيفة
وما فيها ذكر العشق وأهله ، وما يوهم أصحابها أنه ضرب من الظرف
ورقة الطبع . فان هذا الباب مفسدة للاخلاق)

ويقول الغزالي : (ثم يشتغل في المكتب : فيتعلم القرآن وأحاديث
الاخبار ، وحكايات الابرار ، ويحفظ من الاشعار التي فيها ذكر العشق
وأهله . ويحفظ من مخالطة الأدياء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف
ورقة الطبع ، فان ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذور الفساد »

ولبن قال قائل إن هذه آراء فطرية ، لا تصلح مثلاً للنقل
والمحاكاة ، فاني أجيبه بأن موافقة الغزالي لابن مسكويه في بعض
الأبواب موافقة تكاد تكون تامة ، تدل على الأقل على أنه
صدى لمن قبله ، وأن نصيبه من الابداع قليل

الفصل الثاني

منبع التصوف

وما زال الغزالي يكرع من مناهل الصوفية حتى روى ؛ ثم اندفع يحدث الناس بما يفهمون وما لا يفهمون من أصول السلوك وقد صرح في كتاب الميزان والاربعين والاحياء بحدبه على الصوفية ، ورفقه بهم ، وإشفاقه عليهم . بل أظهر تبعيته لهم ، ونسبته اليهم ، ثم أخذ يحن اليهم حنين الغريب الى دياره !! وانظر قوله في منهاج العالدين :

« وان اللمعة التي تظهر منا الآن ليست الا بمن بقي على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحرث المحاسبي ، ومحمد بن ادريس الشافعي والمزني ، وحرملة ، وغيرهم من أئمة الدين — رحمهم الله أجمعين . فهم كما قال القائل :

وما صحبوا الأيام الا تعففا * وما وجدوا من حب سيدهم بدأ
أفاضل صديقون أهل ولاية * الى سيد السادات قد جعلوا القصد
تحلل عقد الصبر من كل صابر * وما حلت الايام من عقدهم عقدا
وكنا في الصدر الأول ملوكا فصرنا سوقة ، وكنا فرسانا فصرنا
رجالا ، وليتنا لا ننتقع عن الطريق . والله المستعان على المصائب ، وهو
المستول أن لا يسلبنا هذا الرمق ، انه جواد كريم ، منان رحيم ، ولا
حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ص ٩٦ و٩٧
فهل رأيت تحرقاً أمراً من هذا والدع؟

أصل التصوف

وهذا التصوف الذي يترسم الغزالي آثار أصحابه ليس في جملته مما تدعو إليه الشريعة الإسلامية ، وإنما هو مزيج من عدة مذاهب هندية ، وفارسية ، ويونانية ، نقلت إلى المسلمين ، وصادفت هوى في نفوس الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا لها على حسابه القواعد والاصول

ويمكن الحكم بأن ما في التصوف من الدعوة إلى طهارة الباطن ، وحب الخير ، وبغض الشر ، وما إلى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات ، يرجع في جوهره إلى روح الإسلام ، أما ما يختص بقطع العلائق مع الناس ، والتزهيد في الحياة ، فهو بعيد عن روح الدين ، لأن الإسلام دين فتح وسيطرة ، وهو يُعدّ معتنقيه لأن يكونوا سادة ، بخلاف التصوف فإنه يلبس أصحابه أرواح العبيد

أنفاس الصوفية

وانك ترى الغزالي يحاكي الصوفية في أنفاسهم وخطرات قلوبهم ، ويسايرهم خطوة خطوة في ذم الناس ، وشكوى الزمان ، وأظهر ما يكون هذا في ذم الاتقياء المزييفين ، وسترى أنه في كتبه

الأخلاقية قد أشرب حب من يسميهم علماء الآخرة ، حتى
ليصف حاله بهذه الآيات

ظفر الطالبون واتصل الوصل وفاز الأحاب بالآحباب
وبقينا مذبيين حيارى * بين حد الوصال والاجتناب
نرتجى القرب بالبعد وهذا * نفس حال المحال للأباب
فاسقنا منك شربة تذهب الغم * وتهدى الى طريق الصواب
يا طيب السقام يا مرهم الجر * ح ويا منقذى من الأوصاب
لست أدري بم أدوى سقامى * وبماذا أفوز يوم الحساب
ومن هنا نراه ينقل كلمات تحتاج الى قيد من الشريعة ،
وليسكت عنها لا يقيد بها بشئ . وأكثر ما أنكره عليه
معاصروه لم يأت به الا من جهة استسلامه للخطرات الوجدانية ،
التي علقته بنفسه من قراءة كتب التصوف ، حين اعتزل الناس
في دمشق وبغداد

على ان النقاد لم يتركوا له هذا الأديم صحيحاً ، بل رموه
بجهل التصوف ، وسلوكه منه في بيداء يضل فيها النسيم ، حتى
اضطر الزبيدي وغيره الى أن يثبتوا أنه لم يزد على ان حاكي
ما في قوت القلوب والرسالة القشيرية من مختلف الآراء في طرائق
السلوك .

قوت القلوب

وأهم الكتب التي تأثر بها الغزالي من بين كتب الصوفية كتاب قوت القلوب ، في معاملة المحبوب ، تأليف أبي طالب المكي المتوفى سنة ست وثمانين وثلثمائة ببغداد ، ولا يوجد الآن في الأسواق ، ومنه نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية نمرة ٢٦٧٧٢ وهو في مجلدين ، يقع الاول منهما في ٢٧٠ صفحة والثاني في ٢٩٧

ويعد هذا الكتاب — بحق — مصدراً لكتاب الاحياء ويكفي أن تقرأ باب التوكل مثلاً في الكتاتين لتعرف أنهما يسيران في طريق واحد ، الى غاية واحدة ، حتى لتجدهما يتفقان غالباً في الشواهد من الآيات ، والاحاديث ، والأخبار . ويمكن الجزم بأن الغزالي أودع كتاب الاحياء كل ماصح لديه ، وحسن عنده ، من كتاب قوت القلوب ، وان لم يشر الى ذلك ، وربما ستر هذا بتغيير العناوين . فاذا قال أبو طالب المكي (ذكر حكم المتوكل اذا كان ذا بيت) قال هو (بيان آداب المتوكلين اذا سرق متاعهم) وربما وضع عنواناً لمسألة لم تعنون في قوت القلوب ، وقد يضع صاحب القوت مسألة تحت عنوان ، فيأتي الغزالي

ويدمجها في كلامه ، فيخيل الى القارى انها له ، ولولا خشية الاطالة
لضربنا لذلك الامثال

وقد كان قوت القلوب واحياء علوم الدين موضع رعاية
الصوفية على السواء فيما سلف من الايام . وينقلون عن ابي الحسن
الشاذلى انه قال : كتاب الاحياء يورثك العلم ، وكتاب القوت
يورثك النور . ولهذا القول وجه من الصواب ، فانك تجد
الإسهاب والتفصيل في الاحياء ، وتجد الدقة وروعة الإخلاص
في القوت ، ويمتاز كتاب القوت فيما نرى بحرص مؤلفه واحتياطه
فيما يتعلق بمذاهب الصوفية ، وبجمال لغته ، بخلاف الاحياء ، فانه
يغرب في التصوف ، وخط أسلوبه من الدقة قليل

الرسالة القشيرية

هي رسالة في التصوف لابي القاسم عبد الكريم بن هوازن
القشيري المتوفى في ١٦ ربيع الآخر سنة ٤٦٥ هـ . وهي تقع
في ١٨٦ صفحة . ولها شرح مخطوط بدار الكتب المصرية تأليف
شيخ الاسلام زكريا الانصارى ويسمى هذا الشرح (احكام الدلالة
في شرح الرسالة)

وقد كتب القشيري رسالته هذه (إلى جماعة الصوفية

يبلدان الاسلام في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة) كما قال في المقدمة
فهي اذن منشور عام للإصلاح المتصوفة في ذلك الحين ، وقد
ابتدأها بصرخة تشبه التي نقلناها للغزالي من منهاج العابدين ،
فهو يقول (اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض
أكثرهم ، ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم ،
كما قيل :

أما الخيام فانها كخيامهم * وأرى نساء الحى غير نساءها

حصلت الفترة في هذه الطريقة ، بل اندرست بالحقيقة الخ)

وقد شرح القشيري في بداية هذه الرسالة اعتقاد طائفة
الصوفية في مسائل الاصول في التوحيد ، ثم ذكر تراجم اثنين
وثمانين من مشايخ الصوفية بإيجاز ، ثم فسر الألفاظ التي تدور
بين هذه الطائفة ، وبين مايشكل فيها على المريدين ، كالوقت
والمقام ، والحال ، والقبض ، والبسط ، والتواجد ، والوجد ،
والوجود ، إلى آخر ما قال

ثم وضع عدة أبواب في المجاهدة ، والخلوة ، والعزلة ،
والمراقبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، وما إلى ذلك
حمايهم السالكين

وتمتاز هذه الرسالة بكثرة النقل عن المتقدمين من شيوخ

الطريق. وقد صدق الزبيدي فيما رآه من أن الغزالي اعتمد عليها عند تأليف الإحياء، وإن كانت النسبة بين الكتابين بعيدة من جهة المادة، ومن السهل أن يثبت الإنسان أثر هذه الرسالة في أكثر أبواب الإحياء، وما أدري لم لم يُشَدَّ الغزالي بذكر مؤلفها ومؤلف قوت القلوب، مع أن فضلها عليه كبير!

الفصل الثالث

من عرف الغزالي من الصوفية

ويجمل بنا أن نذكر طائفة من الصوفية الذين عرفهم الغزالي ونريد بذلك من قرأ لهم، واستشهد بكلامهم في مؤلفاته، لأن تأثيرهم غير قليل في تكييف أحكامه الأخلاقية، وطبعها بذلك الطابع الصوفي المعروف

الامام السافمي

ولد رضى الله عنه بعزة، ومات بمصر سنة ٢٠٤ بعد أن أقام بها أربع سنين. وكان سنه حين مات ٥٤ سنة. وليس غرضنا أن نتكلم عنه من الوجهة التشريعية، فإن لذلك مجالا غير هذا المجال، غير أنه لا يفوتنا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب الأم الذى

ينسب إليه ليس له ، وإنما هو من تأليف البويطى كما نص الغزالي
في الإحياء

والذى يهمننا الآن : هو أن تصور الشافعى كما تصوره
الغزالي ، أى من الوجهة الصوفية ، فقد كان رضى الله عنه معروفاً
بالتقوى ، ونسيان الذات ، حتى يقول : وددت لو أن الخلق
تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إلىّ منه حرف

نماذج من كلامه

وإلى القارىّ نماذج من كلماته التى جرت مجرى الأمثال .
قال رضى الله عنه : « أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه
ورغب فى مودة من لا ينفعه ، وقبل مدح من لا يعرفه — المرء
فى العلم ، يقسى القلب ، ويورث الضغائن — من لم تعزّه التقوى
فلا عز له — سياسة الناس أشد من سياسة الدواب — لو علمت
أن الماء البارد ينقص مروءتى ما شربته — ليس بأخيك من
احتجت إلى مداراته — من علامة الصادق فى أخوة أخيه أن
يقبل عله ، ويسد خلله ، ويغفر زلله — لا تشاور من ليس فى بيته
دقيق — لا تقصر فى حق أخيك اعتماداً على مروءته ، ولا تبذل
وجهك إلى من يهون عليه ردك — من نمّ لك نمّ عليك — من
نظف ثوبه قل همّه ، ومن طاب ريحه زاد عقله »

المزني

هو الامام أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزني . ولد سنة ١٧٥
وتوفي سنة ٢٦٤ تلقى العلم عن الشافعي وصار من ناشري مذهبه .
وكان الشافعي يقول فيه : لو ناظر الشيطان لغلبه !! ونقل السبكي
عن عمرو بن عثمان المكي : ما رأيت أحداً من المتعبدين في
كثرة من لقيت منهم أشد اجتهاداً من المزني ، ولا أدوم على
العبادة منه ، وما رأيت أحداً أشد تعظيماً للعلم وأهله منه ، وكان
من أشد الناس تضيقاً على نفسه في الورع ، وأوسعهم في ذلك
على الناس

حرملة

هو حرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة ولد سنة ١٦٦ ،
وتوفي سنة ٢٤٣ ، وهو من تلامذة الشافعي ورواة حكمه . قال
السبكي : وقد ينفرد حرملة في بعض المسائل ويخرج عن المذهب
تأصيلاً وتفريعاً ، كما قد يفعل ذلك المزني وغيره في بعض
الأحايين .

المحاسبي

هو أبو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبي المتوفى ببغداد سنة
٢٤٣ ، وهو شيخ الجنيد ، ويقال انه سمي المحاسبي لكثرة محاسبته

لنفسه ، وقد ألف في الفقه والتصوف والحديث والكلام نحو مائتي كتاب . وكان الجنيد يقول : كنت كثيراً ما أقول للحرث (عزلي أنسى) فيقول : كم تقول أنسى وعزلي ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا مني ما وجدت بهم أنساً ، ولو أن نصف الخلق الآخر نأوا عني ما استوحشت لبعدهم . وأنشد منشد بين يدي الحرث هذه الأبيات :

أنا في الغربة أبكي * ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي * من بلادى بمصيب
عجباً لي ولتركي * وطناً فيه حبيبي

فقام وتواجد وبكى حتى رحمه كل من حضره

ومن كلامه : « خيار هذه الأمة هم الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم — حسن الخلق احتمال الأذى وقلة الغضب ، وبسط الرحمة ، وطيب الكلام — الظالم نادم وان مدحه الناس ، والمظلوم سالم وان ذمه الناس — القانع غني وان جاع والحريص فقير وان ملك »

الجنيد

هو في نظر الصوفية سيد علماء الآخرة على الإطلاق ،

توفي سنة ٢٩٨ ، وكانت له أحوال لا يقرها شرع ولا عقل

ومن كلامه : « ان الله يُخْلِص الى القلوب من برِّه ، على حسب ما تخلص اليه القلوب من ذكره . فانظر ماذا خالط قلبك — الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار — اذا رأيت الفقير فلا تبدأ بالعلم ، وابدأ بالرفق ، فان العلم يوحشه ، والرفق يؤنسه »

*
* *

وفي كتب الغزالي عدد عظيم من الصوفية ، يؤيد بكلامهم رأيه ، وكان لأولئك الصوفية مصنفات معروفة ، وكلمات مأثورة يتداولها الناس لعهد ، وإنه لا شك في انتفاعه بتلك الآثار . والرغبة في الايجاز هي التي أرضتنا عن الاكتفاء بترجمة هذا العدد القليل

الفصل الرابع

منبع الشريعة

وأهم المنابع التي استقى منها الغزالي هو منبع الشريعة ، ممثلة في الآيات والأحاديث والأخبار . ويرى غير واحد من علماء هذا العصر أن الأخلاق عند الغزالي هي عين الأخلاق الاسلامية ، وهذا رأى غير صواب ، ولكنهم حملوا عليه بما يرون من إكثاره

في مؤلفاته من الآيات والأحاديث ، وسترى كيف أخطأوا حين
تقرأ ما فصلنا من آرائه في الأخلاق

ويشمل هذا المنبع فقهاء المسلمين الذين تأثر الغزالي بأرائهم
في المعاملات . مع أنه احتاط في النقل عنهم ، ولكن هذه الحيلة
لا تزيد عن مطابقتهم بمسايرة أصول الشرع الحنيف

الإنجيل

إطلع الغزالي على الإنجيل ، واستفاد منه ، واعتمد عليه ماشاء
في مؤلفاته . وهذا طبيعي من رجل مسلم أوصاه دينه أن لا يفرق
بين أحد من الأنبياء

ولاعبرة بما كتبه الدكتور زويمر في هذا الموضوع . لأن
الدكتور زويمر يريد أن ينسب هداية الغزالي الى مطالعته للإنجيل ،
مع أن الغزالي لم يضلّ الا حين تعلق بأهداب الآداب السلبيه
التي دعا اليها الإنجيل !!

ولتوضيح هذا نذكر أن الآداب التي وضعها الإنجيل غير
طبيعية ، على معنى أنه لا يمكن أن يسكن اليها بطبيعته أحد من
الناس . فالحكمة الإنجيلية التي تقول : من ضربك على خدك
الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، حكمة غير معقولة ، لا يقرها
عرف . ولا يدعو اليها قانون — والحكمة المسيحية التي تقول :

من سخرك ميلاً فامش معه ميلين ، حكمة غير ممكنة القبول .
ومن المستحيل أن تجد مسيحياً يدير لك خده الأيمن حين تضربه
على خده الأيسر ، أما المسيحي الذي يتبعك ميلين حين تُسخره
ميلاً فهو نادر الوجود !!

ومن المستطرف ما لاحظته الدكتور زويمر على مارواه
الغزالي عن المسيح من أنه مكث يناجى ربه ستين صباحاً لم يأكل .
فقد قال : الحقيقة أنها أربعون ، ولم تتمعب نفسك ياسيدي الدكتور
في هذا التصحيح ؟ المسألة برمتها خيال في خيال ، لأن الذي
يمكث ستين يوماً أو أربعين يوماً بلا طعام لا يصلح لشيء في هذا
الوجود الزاخر بالجهد والجلاد . وهل يستطيع القسيسون والرهبان
أن يحيوا هذه الحياة ! وهبهم استطاعوا ، فما عسى أن تكون
منزلتهم بين الأحياء ؟

وأى خطأ أفدح من قول الغزالي في الدررة الفاخرة « اعتبروا
بعيسى عليه السلام ، فقد قيل انه لم يملك الا ثوبا واحداً لبسه
عشرين سنة ؛ ولم يأخذ معه في كل سياحته إلا كوزاً وسبحة
ومشطاً . ورأى ذات يوم رجلاً يشرب من نهر بحفنتيه فطرح
الكوز ولم يستعمله ثانياً ، ثم رأى رجلاً يمشط لحيته بأصابعه ،
فطرح المشط ولم يستعمله ثانياً ، وكان يقول دائماً : حصاني قدماي ،

وبيوتى مغائر الأرض ، وطعامى خضرتها ، وشرابى من ماء
أنهارها ، ومقرى بين بنى آدم »

وهذه من الغزالي دعوة مردودة ، لأن الاسلام لا يعرف
هذا النوع من الحياة ، وكيف يدعو المسلمين الى أن يعتبروا بما
روى من أن عيسى لم يملك الا ثوبا واحداً لبسه عشرين سنة ، مع
أنه من المستحيل أن يبقى الثوب الواحد على جسم المرء عشرين
سنة ، الا أن تكون هذه أيضاً معجزة ، وعفا الله عن من لا يفهم
هذه المعجزات !!

ان عيسى الذى يصورونه بهذه الصورة شخص خرافى لم
يعرفه التاريخ . والا فأى أرض يسمح جوها بأن يظل الثوب
على صاحبه عشرين عاما لا يبلى ، ولا يُعرض لابس له لنفرة تلامذته
وأصدقائه ؟ وكيف يقابل هذا بما روى الغزالي عن المسيح من
أنه قال : اذا كان صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، وليمسح
شفتيه ، لئلا يرى الناس أنه صائم ؟ فان فى هذا الحديث دعوة الى
كتمان الصوم ، والظهور بمظهر الترف ، تجنباً للتمدح بمظهر
الصيام

أليس من العجيب أن يصدق الغزالي أن عيسى يقول : من
أخذ رداءك فأعطه إزارك ، ومن ذا الذى يرضى من المسلمين

أو النصرارى أن يتأدب بهذا الادب الغريب؟!

ويستشهد الغزالي بقول عيسى عليه السلام: لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد مع أن هذا مناقض للآية الكريمة: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار — ويستشهد بقول عيسى: انظروا الى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر، والله تعالى يرزقها يوماً بيوم، فان قلمن نحن أكبر بطوناً فانظروا الى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق. وهذا يناقض الآية الكريمة: ولا تنس نصيبك من الدنيا. ومن الواضح أن الذى لا ينسى نصيبه من دنياه، يسعى له، ويجتهد في طلبه

ونحن بهذه الكلمات لا ننكر نبوة عيسى عليه السلام. وإنما نرجح أن أتباعه جنوا على شريعته، بما زوروا باسمه من الأحاديث، وهذه جناية كثيرة الامثال في الشرائع، فان الاسلام مع تواتر سنده الاول وهو القرآن، لم يعدم من أصحاب الغفلة وأصحاب الغرض من زوروا الاحاديث باسم النبي حتى كادوا يقضون على ما للدين من قوة الحق، وروعة الجمال

ونحن كذلك لا ننكر أن المسيحية تدعو الى الزهد. فان الدعوة الى الزهد أصل من أصولها الاولى. ولكننا نرجح انها

كانت تدعو الى الزهد بقدر ما تفل من حدة الناس . وتقلل من
جشعهم وطمعهم . فأما الدعوة الى الفرار من طبيبات ما أحل الله
فهي دعوة بعيدة الوقوع من الانبياء والمرسلين

وكننا نحب أن لا يصدق الغزالي كل ما نقل عن المسيح ،
ولكن الغزالي كان طيب القلب أكثر مما يجب ، وما أحوج
العلماء الى الاعتصام بجبل الشك ، فان الشك وحده سبيل اليقين

الفصل الخامس

أساتذة الغزالي وأصحابه

وبعد الذي قدمناه من ورود الغزالي للمناهل الفلسفية ،
والشرعية ، والصوفية : لانجد بدأ من التنبيه الى انه اغترف
كذلك من المنهل الذي ورده أساتذته وأصحابه . وقد لاحظنا
أن الذين تتلمذ الغزالي لهم كانوا في الأغلب صوفية ، كما أن أكثر
من صحبتهم كانوا صوفية

فمن أساتذته الأمام احمد بن محمد الراذكاني ، وكان من الفقهاء
الصالحين ، وقد تلقى عنه دروسه الاولى في طوس
ومن أساتذته الامام أبو نصر الاسماعيلي ، وكان من الأمثلة
النادرة في الورع والتقوى ، وقد تلقى عنه الغزالي في جرجان ،

وعلق عنه التعليقة ، كما كانوا يقولون
ومن أساتذته إمام الحرمين ، وكان من أتقى أهل زمانه ،
وقد تلقى عنه الغزالي في نيسابور ، ويقال انه كان يحسد الغزالي ،
بالرغم من شهادته له بالتفوق والنبوغ
ومن أساتذته الامام الزاهد أبو علي الفارمذي من أعيان
تلامذة أبي القاسم القشيري وكان أستاذه في التصوف ، وقد عده
السبكي من أصحابه
هؤلاء وغيرهم من أساتذة الغزالي وأصحابه أثروا في حياته
العقلية تأثيراً غير قليل ، وطبعوا نظره إلى الحياة بطابع خاص ،
وفي مقدور القارئ أن يرجع إلى تفصيل حياة هؤلاء الذين
اختصرنا أخبارهم في طبقات الشافعية . أما تلامذة الغزالي فسنعود
إليهم في غير هذا الباب



الباب الرابع

في

مؤلفات الغزالي

تمهيد

تكلم ابن السبكي في طبقاته عن مؤلفات الغزالي ، وتبعه الزبيدي في شرح الاحياء ، ثم كتب جرجى زيدان في صدر الجزء السادس من السنة الخامسة عشرة للهلال كلمة مفصلة عن مصنفات الغزالي ، وتتماز هذه الكلمة بشيئين : الأول ترتيب تلك الكتب بحسب موضوعاتها ، والثاني الاشارة إلى أما كن وجود النسخ النادرة ، مخطوطة كانت أو مطبوعة . إلا أنه لحسن حظ العلم نجد أكثر ما نوه جرجى زيدان بندرته أصبح اليوم في المكاتب والأسواق وأهم كتب الغزالي فيما نحن بصدد من درس الأخلاق ، كتاب الاحياء ، وسنكتب عنه كلمة مفصلة ، وكتاب ميزان العمل ، وهو يقع في ٢١٥ صفحة ، ونحسبه يفضل في دقته

كتاب الإحياء ، بل يشبه أن يكون خلاصة له ، وميزان العمل هذا مقابل لكتابه معيار العلم . وقد قال في مقدمته (لما كانت السعادة التي هي مطلوب الأولين والآخريين لا تنال إلا بالعلم والعمل ، وافتقر كل واحد منهما إلى الاحاطة بحقيقته ومقداره ، ووجب معرفة العلم والتميز بينه وبين غيره بمعيار ، وفرغتنا منه ، ووجب معرفة العمل المسعد ، والتميز بينه وبين العمل المشقى ، فافتقر ذلك أيضا إلى ميزان ، فأردنا أن نخوض فيه الخ) وقد نص على أنه وضع أكثر هذا الكتاب على طريقة التصوف

ويلى هذين الكتابين في الأهمية كتاب الأربعين . وهو جزء من كتاب جواهر القرآن ، كما ذكر صاحب كشف الظنون ، وقد وضع بعد الإحياء ، وهو قريب منه في الموضوعات وفي التبويب .

ومن مؤلفاته الهامة في الأخلاق كتاب منهاج العابدين وهو آخر مصنفاته ، ولعل هذا هو السرفيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب ، وقد رأيت كيف اعتلت صحته بسبب العزلة ، ونقل الزبيدي عن المسامرة لابن عربي أنه ليس له ، وإنما هو لأبي الحسن علي بن خليل السبتي ، وسترى بعد قليل ما زور باسم الغزالي من التأليف

وهناك التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، كتبه للسلطان محمد بن ملكشاه ، وعن هذا الكتاب أخذنا رأى الغزالي في آداب الكتاب ، وواجبات الملوك ، وحقوق الوزراء . وسترى بعد كلمة في نسبة هذا الكتاب إلى الغزالي ، وهو يقع في ١٢٤ صفحة وتجده مشحوناً بالأقاصيص ، وهي فكرة حسنة في الترغيب والترهيب ، ولم يختص بها كتابه هذا ، ولكنها فيه أظهر من سواه

ولا تنس كتابه المنقذ من الضلال ، ففيه صورة صادقة لحياته العقلية ، وهو يمثل وجهة نظره فيما شهدته من الحركة العالمية في عصره ذلك ، وقد كتبه بسداجة ظاهرة تكشفت لنا عن قلب أبيض ، ونفس تجيش بالاخلاص وكتابه المستصفي في الأصول كان المرجع فيما كتبنا عن الحسن والقبیح ، وهو كتاب قيم يدل على مبلغه من دقة الفهم ، وحسن الأداء

ورسالته مشكاة الأنوار تمثل لنا رأيه في منازل الناس بحسب قربهم أو بعدهم من فهم ما بنى عليه العالم من دقائق الجمال ، وقد توسع في شرح قوله تعالى : الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح إلى آخر الآية

ويعد الغزالي من أكبر المؤلفين حتى زعموا أن مؤلفاته
قسمت على أيام حياته فخص كل يوم أربعة كراريس (!) وأهمها
جميعاً كما قدمنا هو كتاب الإحياء وهو سبب ما رزق من الخلود

الفصل الأول

طريقته في التأليف

وللغزالي في التأليف منهج جميل ، فهو يشرح أولاً المذهب
الذي يريد تقده ، وقد بلغ من حرصه على هذا المنهج أن ألف
كتاباً في مقاصد الفلاسفة ، حين هم بتأليف كتاب في تهافتهم ،
ويقول في كتابه ذلك (ولنفهم الآن ما نوردده على سبيل الحكاية
مهملاً مرسلًا ، من غير بحث عن الصحيح والفاقد ، حتى إذا
فرغنا منه استأنفنا له جداً وتشميراً في كتاب مفرد نسميه
تهافت الفلاسفة)

وصنع مثل هذا الصنيع حين رد على الباطنية ، وقد ذكر
في المنتقد من الضلال ص ٢٠، ٢١ أن بعض أهل الحق أنكروا عليه
مبالغته في تقرير حججهم ، وقالوا : هذا سعى لهم ، فانهم كانوا

يعجزون عن نصره مذهبهم بمثل هذه الشبهات ، لولا تحقيقه لها ،
وترتيبه إيها ، وأجاب بأنه استحسن أن يقرر شبهتهم إلى حد
الامكان ثم يظهر فسادها ، وهذا منهج لا نسرف إن كررنا
أنه جميل

ومما تمتاز به خطة الغزالي في التأليف ، الاعتماد على الخطايات
في إصلاح القلوب ، فهو حين يتكلم عن فضيلة من الفضائل ،
يبدأ بذكر ماورد في حمدها من الآيات ، ويعقب بسرد ما جاء
عنها من الأحاديث ، ثم الأخبار ، ثم الآثار ، وينطلق بعد ذلك
في ذكر القصص والحكايات التي تستولى على قلب القارئ ،
وترسم في نفسه أثر تلك الفضيلة ، ومالها من مقام محمود . والأمر
كذلك إذا تكلم عن رذيلة من الرذائل ، وهو في هذا الباب
لا يعتبر مبتكراً ، فقد سبقه القصاص ، ولكنه آخر عفى على
الأولين ، وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذه الخطة ، وهو
استنكار على غير أساس ، ويكفي أن تقرأ كتب سميلا الانجليزى
المتوفى في ١٦ ابريل سنة ١٩٠٤ لتعرف حسن هذا المنهج في رأى
المعاصرين ، فاني لم أر أحداً يستنكر منهج سميلا في الاكثار من
الأقاصيص للترغيب في مكارم الأخلاق
وتمتاز كتب الغزالي الاخلاقية بأنها صالحة لكل قارئ ،

فلم يقصد المؤلف وضعها لطائفة معينة ، أو فريق خاص ، وإنما وضعها لجمهور المسلمين

وهناك ميزة خطيرة لمؤلفات الغزالي : وهي إقباله على الخيال فهو يحسن ويقبّح بطريقة فنية بديعة ، تخاب العقول ، وتمتع القلوب . وانظر كيف يشبه من يحسب الحسن انما يحسن باختياره إنه يشبهه بالتملة ترى سواد الخيط على البياض يحصل من حركة القلم فتضيف ذلك إلى القلم : إذ حدقها الصغيرة الضعيفة ، لا تمتد إلى الإصبع ، ومنها إلى اليد ، ومنها إلى القدرة المحركة لليد ، ومنها إلى الإرادة التي القدرة مسخرة لها ، ومنها إلى المعرفة التي يتوقف انبعاث الإرادة عليها ، ومنها إلى صاحب القدرة والعلم والإرادة^(١) ويشبه الضعيف القلب ، بالحمار في معلقه ، والدجاج في قفصه يرمق ما تعود من صاحبه ، لا يكاد ينفك عن ذلك ، وتقاعدت نفسه عن معالي الأمور ، وانقطعت همته ، فلا يكاد يقصد أمراً شريفاً^(٢)

والذي يعبرُ بنظره كتاب الأحياء وكتاب الأربعين وكتاب المنهاج ، يرى البدائع الفنية ، وألوان البيان . في طرق الترغيب والترهيب . وهو يجيد في التخيل حتى يغلب القارئ على أمره ،

ويشكك في نفسه ، ويحمله قهراً على أن يدرس نفسه من جديد ، وهذا وجه الخطر في مؤلفات الغزالي ، إذ كانت في الأغلب وساوس صوفية عُشِّيت بألوان السحر والفتون ، فلا يسلم منها إلا العالمون والأقوياء

الفصل الثاني

الصوت المردد في مؤلفات الغزالي

ومع محاكاة الغزالي لمن تقدمه من المؤلفين ، فإنا نراه يكرر كثيراً الأفكار ، والعبارات ، والأمثلة ، حتى لنظن بضاعته واحدة ، في جميع مؤلفاته ، ويمكن الحكم بأن الأحياء ، والأربعين ، والميزان ، والمنهاج ، والتبر المسبوك ، والأدب في الدين ، وبداية الهداية ، وجزءاً كبيراً من مؤلفاته في الفقه والتوحيد ، أقول يمكن الحكم بأن جميع هذه المؤلفات يندر أن تكون بينها فروق جوهرية . ولو أننا وازنا بين كتبه في باب كباب الاخلاص لوجدنا الأمثلة واحدة ، والعبارات واحدة ، وإنما تختلف بالأطناب والايجاز

وإذ كان الرجل مفتوناً بآراء الصوفية . فإنا نجد تأثره بهم

يختلف اختلافا قليلا بحسب الظروف ، فهو في المنهاج ، أقرب اليهم منه في الاحياء ، فايحترز منه هنا قد لا يحترز منه هناك ونلاحظ أنه ليست هناك غاية موحدة يسعى لنصرتها الغزالي بمصنفاته العديدة : فهو تارة يلوذ بأكناف الشريعة ، فيمنع ما تمنع ، ويبيح ما تبيح . وتارة يساير الصوفية ، فينصرهم فيما يسمون اليه من الانفراد بفهم أسرار الوجود ، وهو مع ذلك يصرح بأن علم المكاشفة لا يودع الكتب ، ولا يصح أن يلقي لغير الخواص ! وينتج مما سلف أن الغزالي ليس من المبتكرين المبدعين ، وإنما يمتاز بصبره على قرع ذلك الناقوس الذي أراد أن يوقظ به الناس من سباتهم ، وان لم يكن ذلك الناقوس من صنع يديه ، وقد أفاق الناس ولم يروا غير الغزالي ، ثم هرعوا اليه ، فوجدوا كتاب الاحياء في يمينه ، وما زالوا به يحملون !

الفصل الثالث

كتاب الاحياء

هو أهم ما كتب الغزالي في الأخلاق ، ألفه في أخريات حياته حين جنح الى اعتزال الناس ، ثم قرأه في دمشق وبغداد ، ووضع له مختصرات عديدة ، منها الوجيز ، ومنها المبسوط ،

وقد أسسه على أربعة أرباع: ربع العبادات ، ويشتمل على كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة، وكتاب أسرار الزكاة، وكتاب أسرار الصيام، وكتاب أسرار الحج، وكتاب آداب تلاوة القرآن، وكتاب الاذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الاوراد في الاوقات

وربع المعادات ، ويشتمل على كتاب الاكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

وربع المهلكات : ويشتمل على كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور

وربع المنجيات : ويشتمل على كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والانس والرضى ، وكتاب النية والصدق والاخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت

ونظرة الى هذا البرنامج تريك مبلغ عناية الغزالي بكتاب الاحياء ، وليس كثيراً أن ذكرنا هذا البرنامج ، فان الاحياء

عمدتنا فيما قصدنا اليه من تحرير ما وضع الغزالي في الاخلاق ،
ومن الخير أن نذكر رأى الغزالي نفسه في ذلك الكتاب الممتع
الجامع : فقد قال بعد ان بين ما اختطه في شرح العبادات ،
والعادات ، والمهلكات ، والمنجيات « ولقد صنف الناس في بعض
هذه المعاني كتباً . ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور :

الاول — حل ما عقده ، وكشف ما أجموه

الثاني — ترتيب ما بددوه ، ونظم ما فرقوه

الثالث — ايجاز ما طولوه ، وضبط ما قرروه

الرابع — حذف ما كرروه ، واثبت ما حرروه

الخامس — تحقيق امور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض
لها في الكتب أصلاً ، اذ الكل وان تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر
أن ينفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه
رفقاؤه »

الفصل الرابع

أغراض الاحياء

نذكر هنا شيئاً من المآخذ التي أخذها المتقدمون على الغزالي
فيما يخص كتاب الاحياء . لان في ذلك بياناً لقيمة هذا الكتاب

في نظر المتقدمين ، ولأن فيه تمهيداً لما نحن بسبيله من نقد آراء
الغزالي في الاخلاق

١ - نقل السبكي في طبقات الشافعية أن أبا عبد الله المازري

قال : وقد سئل عن الاحياء ، إن الغزالي يستحسن أشياء مبنهاها
على مالا حقيقة له ، مثل قوله في قص الأظفار : تبدأ بالسبابة لأن
لها الفضل على بقية الأصابع لكونها المسبحة !

٢ - وأنكروا عليه كما نقل الزبيدي ، قوله في الاحياء ،

ليس في الامكان أبدع مما كان ، واستندوا في إنكارهم إلى أن هذا
يُؤم عجز الجنب الالهى ، وهو كفر صريح ، وإنما انحصر انكارهم
في هذه الوجهة لاغراقهم في المباحث الدينية ، ولو كان لهم نصيب

من العلم والفن لعدوا هذا عقبة في سبيل الاختراع

٣ - ونقل الزبيدي عن الأجوبة المرضية للشعراني أن مما

أنكر على الغزالي قوله : يباح للصوفية تمزيق ثيابهم عند غلبة

الحال ، ان قطعت قطعاً مربعة تصالح لترقيق الثياب والسجادات ،

كما يجوز تمزيق الثوب ليرقع به ثوب آخر ! وقد أجاب الزبيدي :

على هذا بجواب مضحك جاء فيه (وبالجملة فلو كان جميع أموال

الدنيا وأمتعتها بيد الفقير ورأى حضور قلبه مع الله تعالى لحظة

باتلافها كلها ، بحرقها أو رميها في بحر ، لكان له ذلك بطريق

الاجتهاد ، ولا لوم إلا على من يمزق ثيابه ويتلف ماله إسرافاً
وسفهاً) وقد فات الزبيدي أن غرض المنكر ليس منصباً على
التبديد والاسراف ، وإنما هو موجه الى الخروج من الوقار ، فإنه
لامرية في أن غرض الشرع من التجمل إنما يرجع الى الرغبة في أن
يسبغ على المؤمن رداء الجلال

٤ — ومما أنكروا عليه قوله في الاحياء : المقصود بالرياضة
تفريغ القلب ، وليس ذلك الا بالخلوة ، والجلوس في مكان مظلم ،
فان لم يكن مظلماً لف رأسه في جيبه ، أو تدثر بكساء أو رداء
فانه في مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالى ويشاهد جلال
الربوبية (!؟)

وقد تنبه ناقدوه الى أن التقليل من الطعام قد يورث الجنون!
فن يدرينا أن ما يسمعه المتريض هو نداء الحق ، أو أن الذي يشاهده
هو جلال الربوبية ، ومن يضمن أن لا يكون ما يجده هو من
الوساوس والخيالات الفاسدة !

٥ — وأنكروا عليه كذلك تقريره قول الجنيد : اذا كان
الأولاد عقوبة شهوة الحلال ، فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام (!)
٦ — وأنكروا عليه كذلك تقريره ما حكاه عن بعضهم أنه
بات عند السباع في برية ليمتحن توكله على الله هل صح أم لا (!؟)

قالوا وكيف جاز له أن يسكت على ما فعله هذا الرجل مع تعرضه
لأسباب الهلاك؟

٧ — ومما أنكروا عليه قوله : كان بعض الشيوخ في بدايته
يكسل عن قيام الليل ، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل
لتصير نفسه بحيث تجيبه الى قيام الليل اختياراً ، وكذلك عاج
بعضهم حب المال : فباع جميع أمتعته ورمى ثمنها في البحر خوفاً
من أن يقع في حب تزكية الناس له ، ووصفه بالجدود ، أو الرياء
في فعلها ، ولذلك كان بعضهم يستأجر من يشتمه على رعوس
الاشهاد ليعود نفسه الحلم ، وكان آخر يركب البحر في الشتاء عند
اضطراب الموج ليعود نفسه الشجاعة ، وكان بعضهم اذا خاف
النوم يقف على رأس حائط عال حتى لا يأخذه النوم (:) قال ابن
القيم : وإني لأتعجب من أبي حامد هذا كيف يأمر بهذه الامور
التي تخالف ظاهر الشريعة ، وكيف يحل لأحد أن يقوم على رأسه
طول الليل ، وكيف يحل رمي المال في البحر ، وكيف يحل سب
المسلم بلا سبب ، وهل يجوز لمسلم أن يستأجر من يشتمه ، وهل
يجوز لأحد أن يقوم على رأس جدار عال ويعرض نفسه للوقوع
بالنوم فتنكسر رقبتة فيموت ؟؟؟

٨ — ومما أنكروا عليه حكايته عن ابن السكريتي شيخ

الجنيد انه قال : نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح ، فشت قلبي ،
ونفر مني ، فدخلت الحمام ، وسرقت ثيابا فاخرة ولبستها ، ثم
لبست مرقعتي فوقها ، وخرجت فجعلت أمشي قليلا قليلا ،
فلحقوني وأخذوا مني الثياب ، وصفعوني وسموني لص الحمام ،
فسكنت نفسي (!؟) قال الغزالي : فهكذا كانوا يروضون أنفسهم
حتى يخلصهم الله تعالى من فتنة النظر الى الخلق ومراعاتهم لهم ،
وأهل النظر الى النفس وأرباب الأحوال ربما عاجلوا أنفسهم بما
لا يفتي به الفقيه ، إذا رأوا صلاح قلوبهم في ذلك ، ثم يتداركون
ما فرط منهم من صورة التقصير كما فعل هذا في الحمام (!!) قال ابن
القيم سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب
الاحياء ! فليت له لم يحك فيه مثل هذه الأمور التي لا يحل لأحد
السكوت عليها ، ثم نقل نص الامام احمد والشافعي في أن من
سرق من الحمام ثيابا عليها حافظ وجب قطع يده . ثم قال : وتعجبني
من هذا الفقيه الذي استتاب التصوف علمه وعقله ، أكثر من
تعجبني من هذا المستلب الثياب من الحمام ! فيا ليت أبا حامد بقي
مع قواعد الفقه واستغنى عن هذه المذيانات !

٩ — وأنكر واعليه تقرير ما حكاه عن أبي الحسن الدينوري
أنه حج اثنتي عشرة حجة ، وهو حاف مكشوف الرأس ! قال ابن

القيم ، وهذا من أعظم الجهل لما في ذلك من الأذى للرأس
والرجلين ، ولا تسلم الأَرْض من الشوك والوعر ، وكان هؤلاء
الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها بالتصوف ،
وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فنعوذ بالله من تلبس
إبليس . فإن مثل هذه الحكايات تفسد عقائد العوام ، اذ يظنون
أن فعل مثل هذا من الصواب

١٠ - وأنكروا عليه تقريره عن أبي الخير الأقطع التيتاني
قوله : إني عقدت مع الله عهداً أن لا آكل شيئاً من الشهوات ،
فددت يدي الى ثمرة في شجرة فقطعتها ، فيدما أنا أمضغها إذ
ذكرت العهد فرميت بها من فمي ، فدار بي فرسان وقالوا قم !
وأخرجوني الى ساحل بحر اسكندرية ، واذا أمير وحوله خيل
وجند ، فقالوا أنت من اللصوص ، واذا معهم جماعة من لصوص
السودان ، فسألوهم عنى ، فقالوا لا نعرفه ، فكذبهم الأمير ،
وشرع يقدم يداً ويقطعها إلى أن وصل إلى ، وقال لى : تقدم ومد
يدك ، فددها فقطعت الى آخرها !! قالوا : فانظروا ما يفعل الجهل
العظيم بصاحبه ، فلو أن عند التيتاني رائحة علم ، لعلم أن ما فعله
حرام عليه ، وليس لابليس عون على الزهاد والعباد أكثر من
الجهل ، وما أظن غالب ما يقع لهؤلاء إلا من الجنون

١١ - وأنكروا عليه قوله : ان الاشتغال بعلم الظاهر
بطالة (!) قال ابن القيم : هذا جهل مفرط منه . وأصل ذم
الصوفية للعلم أنهم رأوا طريق الاشتغال به لا يوصلهم الى الرياسة
إلا بعد طول زمان ، بخلاف طريقهم المبتدعة من لبسهم الزى ،
وصلاتهم بالليل ، وصيامهم بالنهار ، وتقصير الثياب والأحجام
١٢ - وأنكروا عليه حكايته عن أبي تراب النخشي أنه قال
لمريد له : لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة ، كان أنفع لك من رؤية
الله عز وجل سبعين مرة (!؟) قال ابن القيم : وهذا الكلام فوق
الجنون بدرجات

١٣ - وأنكروا عليه تقريره لرمي الشبلي ما كان معه من
الدنانير في دجلة ، وقوله : ما أعزُّك عبد إلا أذله الله تعالى . قال
ابن القيم : وأنا أتعجب من أبي حامد أ كثر من تعجبى من هؤلاء
الجهلة بالشرعية ، كيف يحكى ذلك عنهم على وجه المدح لهم ، لا على
وجه الانكار ، وأى راحة بقيت من الفقه عند أبي حامد حتى
يكتب عنه شيء من العلم ؛ فإن الفقهاء كلهم يقولون إن رمى المال
في البحر لا يجوز

١٤ - وأنكروا عليه تقريره قول أبي سليمان الداراني : إذا
طلب الرجل الحديث ، أو سافر في طلب المعاش ، أو تزوج ،

فقد ركن إلى الدنيا (!؟) قالوا : هذه الأشياء الثلاثة مخالفة لقواعد الشريعة . وكيف لا يطلب الحديث وقد ورد : ان الملائكة لتضع أجنحتها على طالب العلم ؟ وكيف لا يطلب المعاش . وقد قال عمر رضی الله عنه : لأن أموت من سعى رجلی أطلب كفاف وجهی أحب إليّ من أن أموت غازياً في سبيل الله ؟ وكيف لا يطلب التزويج ، وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقول : تناكحوا تناسلوا فإنی مباهبكم الأمام يوم القيامة ؟

١٥ - وأنكروا عليه تقريره قول أبي حمزة البغدادي : إني لأستحي من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان ، وقد اعتقدت التوكل ، لئلا يكون شبعي زاداً تزودت به (!) قالوا : ومن العجب اعتذاره عن أبي حمزة بقوله : كلام أبي حمزة صحيح ، ولكن يحتاج إلى شرطين : أحدهما أن تكون للإنسان قدرة من نفسه بحيث يمكنه الصبر عن الطعام أسبوعاً ونحوه . الثاني أن يمكنه التقوّت بالحشيش ، ولا تخلو البادية من أن يلقاه الذي معه طعام بعد أسبوع ، أو ينتهي إلى محلة أو حشيش يجده مايقوته . قال ابن القيم : أقبح ما في هذا القول صدوره من فقيهه فإنه قد لا يلتقي أحداً ، وقد يضل ، وقد يمرض فلا يصلح له الحشيش ، وقد يلقاه من لا يطعمه ، وقد يموت فلا يدفنه أحد

١٦ — وأنكروا عليه ما أجاب به من سأله عن رجل يدخل البادية بلا زاد حيث قال : هذا من فعل رجال الله — قيل له فان مات ؟ قال : الدية على العاقلة (!) قالوا : هذه فتوى جاهل بقواعد الشريعة ، اذ لا خلاف بين فقهاء الاسلام أنه لا يجوز لأحد دخول البادية بغير زاد ، وان فعل ذلك ومات بالجوع فهو عاص مستحق للعقوبة في الآخرة

١٧ — وأنكروا عليه أيضاً ما حكاه عن شفيق البلخي أنه رأى مع شخص رغيفاً ليفطر عليه من صومه فهجره ، وقال : تمسك رغيفاً الى الليل !

١٨ — وكذلك أنكروا عليه قوله : اعلم أن ميل قلوب أهل التصوف إنما هو الى تحصيل العلوم الدنية ، دون العلوم النقلية ، ولذلك لم يحضوا على دراسة العلم ، ولا تحصيل ما صنفه المصنفون ، وانما حضوا على الاشتغال بالله تعالى وحده ، والاشتغال بذكر الله فقط (!؟)

١٩ — وأنكروا عليه تفسير قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام : واجنبني وبنّي أن نعبد الأصنام . فقد قال : الأصنام الذهب والفضة . وعبادتهما حبهما والاعتزاز بهما . وواضح أن هذا التفسير بعيد عن المعنى المراد

٢٠ — وأنكروا عليه أيضاً تقريره قول سهل التُّسْتَرِي :

إن للربوبية سرّاً لو ظهر لبطلت النبوة ، وإن للنبوة سرّاً لو ظهر لبطل العلم ، وإن للعلماء بالله سرّاً لو ظهر لبطلت الأحكام والشرائع (!؟)

وأنا أكتفي بهذا القدر من أغلاط الإحياء ، ففيه صورة واضحة لآراء العلماء في ذلك الكتاب ، وسترى في باب غير هذا أن هذه الحركة الغنيفة لم تحمد بموت الغزالي ، بل ظلت نائرة عدة أجيال . وما عجبت لشيء عجبى للزيدي ، فقد تولى تنفيذ هذه المآخذ ، واحداً واحداً ، وهو تعسف ممقوت ، يكفي أن تعلم أنه لا يرتكز على قاعدة مسامة ، من عرف ، أو تشريع ، وإنما يستند على قواعد من التصوف بنيت على الماء . ومن أراد التحقق من صحة هذا الحكم فليرجع الى الجزء الأول من شرح الاحياء ، من ص ٢٧ الى ص ٤٠

ومن الأجوبة السخيفة ما أجاب به السبكي عن الغزالي في قص الأظفار ، فقد قال : وأما ما ذكروه في قص الأظفار ، فالأمر المشار اليه يروى عن علي كرم الله وجهه غير انه لم يثبت وليس في ذلك كبير أمر ولا مخالفة شرع ، وقد سمعت جماعة من الفقهاء يذكرون أنهم جربوه فوجدوه لا يخطيء ، ومن داوم عليه

أمن من وجع العين . ويروون من شعر على كرم الله وجهه هذا :
ابداً ييمناك وبالخنصر * في قص أظفارك واستبصر
واختم بسبابتها هكذا * فافعل في الرجل ولا تتمر
وابداً ليسراك باهامها * والأصبع الوسطى وبالخنصر
ويتبع الخنصر سبابة * بنصرها خاتمة الأيسر
هذا أمان لك قد حزنه * من رمد العين كما قد قرى

والسخف ظاهر كل الظهور في هذا الجواب ، والا فإهي
الصلة بين قص الأظافر بهذه الكيفية ، وبين الأمن من وجع
العين ؛ وكيف قال علي بن أبي طالب هذا الشعر السخيف وقد كان
من أفصح الناس ؛

الواقع أن الغزالي كان فتنة من فتن العصور القديمة ، وقد
نسى العلماء في الدفاع عنه أن هناك عقلاً يجب أن يُحكّم ، وأنه لن
يخلو العالم من أصحاب العقول ، ولو كره الجامدون ؛

الفصل الخامس

غفلة الغزالي وعناده

١

أما غفلته فدليلها ما في كتبه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة . وهي تقرب من ستمائة حديث وأنا لا أشك في نزاهة الغزالي وبعده من الكذب على رسول الله ، فحال على مثله في ورعه وتقواه أن يزور على النبي حديثاً ، أو يضع في كتبه أحاديث يعلم أنها من الموضوعات . وحقبة الأمر أن الرجل كان « يمتاز » بقسط كبير من الغفلة والبساطة ، وإلا فكيف صدق ان النبي يقول : إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ . وأقل الناس علماً بالبلاغة يدرك أن رسول الله لا ينطق بمثل هذا الحديث ؛ وكيف يصدق ما روى من أن جبريل نزل فقال : ان الله يقرئك السلام . ويقول : أتحب أن أجعل هذه الجبال من ذهب فتكون معك أينما كنت ؟!

ومالي أطيل في تقد ما جاء في الاحياء مما لا اسناد له من الأحاديث ، وهي مسطورة في طبقات الشافعية ، في ثمان وثلاثين

صفحة من الجزء الرابع . والضعف فيها ظاهر لا يحتاج الى دليل

٢

وأما عناده فدليله إصراره على إبقاء ما جاء في كتبه من الأغلط ، ورميه ناقدية بالغباوة ، والحسد ، والكذب ، مع أنه كان يجمل به أن يتأمل تقدم برفق ، ويميز بين الغث منه وبين الثمين ، ولكنه اندفع كالصخر حطه السيل من شاهق ، وأخذ يرميهم بالزيف والفسوق

وبيان ذلك أنه ما زال يغرب معاصروه في الإنكار عليه حتى ضاق تلامذته ذرعا بذلك ، فكتب إليه أحدهم يرجوه دحض تلك المزاعم ، فصنف كتابا سماه : الاملاء ، في اشكالات الاحياء . وما تريد الآن تلخيص هذا الكتاب ، فهو في أيدي الناس ، وإنما نذكر مقدمته لرى كيف ابتأس بما فعل أولئك المنكرون ، فإن في هذا صورة جانب من جوانبه الاخلاقية ، وهو يدلنا على الأقل على مبلغ ثقته بنفسه ، وإيمانه بصحة ما جاء في الاحياء ، وعدم اكترائه بأراء الناس

قال : سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقبها ، وقرب لك مقامات الولاية تحمل مغانيها ، عن بعض ما وقع في الاملاء الملقب بالاحياء مما أشكل على من حجب فهمه ، وقصر علمه . ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شوش به شركاء الطعام ،

وأمثال الأنعام ، وأجماع العوام ، وسفهاء الأَحلام ، وعار أهل الاسلام ، حتى طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيره باطراحه ومنابدته ، ونسبوا مملية الى ضلال واضلال ، ونبذوا قراءه ومنتحلبيه بزيع في الشريعة واختلال ، فالى الله انصرافهم وما بهم ، وعليه في العرض الأَكبر ايقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسألون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا أفك قديم ، ولوردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولكن الظالمون في شقاق بعيد . ولا عجب فقد توى^(١) أدلاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، فلم يبق في الغالب الا أهل الزور والنسوق ، متشبهين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة ، متظاهرين بطواهر من العلم فاسدة ، ومتقاطعين بحجج غير صادقة ، كل ذلك لطلب دنيا أو محبة نناء ، أو مغالبة نظراء . قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر . وتآلفوا جميعاً على الفعل المنكر . وعدمت النصائح منهم في الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر ، ان نصحهم العلماء أغروا بهم ، وانصمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ، أولئك الجهال في علمهم ، الفقراء في طولهم البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم ، لا يفلحون ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لا تظهر عليهم موارثة الصدق ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تتحقق لديهم أعلام المعرفة . ولا يستر عوراتهم لباس الخشية . لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ، ومراتب النجباء ، وخصوصية البدلاء ، وكرامات الأوتاد ، ولو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق . وعلموا علم أهل الباطن ... الى آخر ما قال

وبقليل من التأمل نعرف من هذه المقدمة أن الغزالي يُصرّ
بعد أن تقدّمه معاصروه على التشبث بأذيال الصوفية . ويمكننا أن
نتوقع ماسيجيب به في كل ما أخذ عليه من الوجهة الشرعية ،
ويجب أن نفهم ذلك منذ الآن ، لنخرّج كل ما نلقاه في آرائه
الأخلاقية من الشذوذ هذا التخرّيج ، ولنرجع اسرافه في بعض
المواطن الى هذا الأصل الذي اختاره وارتضاه ، وهو التصوف
والإفن هم النقباء ، والنجباء ، والبداء ، والأوتاد ، إن لم يكونوا
جماعة المتصوفة الذين يستيحيون مالا يباح ؟ !

ومن أظرف ما أجاب به الغزالي فيما أخذ عليه من الأغلاط
النحوية ، أنه قليل الخبرة بالنحو ، ثم ما أجمل نصحه لتلامذته بأن
يصلحوا ما يعثرون عليه من أشباه هذه الأغلاط ! وباليته نصح
بمثل هذا في إصلاح ماضل فيه من الأحكام !

الكذب على الغزالي

ومما يجب التنبيه له أن الغزالي لم يسلم من الكذب عليه
فقد وضعت المؤلفات باسمه ، واتجر به المضللون . ويذكر
الزبيدي من هذه الكتب (السر المكتوم في أسرار النجوم)
وينص على أن هذا الكتاب نسب أيضاً إلى الفخر الرازي ، وأنه
سئل عنه فأنكره . ومما دس على الغزالي كتاب تحسين الظنون

وكتاب النفخ والتسوية . وكتاب المضمون به على غير أهله . قال السبكي : ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه ، ثم قال : معاذ الله أن يكون له . وبين سبب كونه مختلفاً موضوعاً عليه . قال الزبيدي والامر كما قال . فقد اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفى علم القديم بالجزئيات ، وكل واحد من هذه يكفر الغزالي قائلها هو وأهل السنة أجمعون ، فكيف يتصور أنه يقولها ؟

وقد ذكر الأستاذ الدكتور على العناني في محاضراته بالجامعة المصرية أنه يبعد أن يكون المضمون به على غير أهله هو ما بأيدي الناس ، لأن هذا الكتيب الضعيف لا يدل على المعنى الذي قصده الغزالي من « المضمون به على غير أهله » ويرجح الدكتور العناني أن يكون المضمون به على غير أهله كتاباً ضخماً يشمل آراء الغزالي الفلسفية التي يَصْنَعُ بنشرها على الجمهور

وعندي أن رأى الدكتور العناني صواب لأمرين : الأول أن الغزالي كان ينصح دائماً بأن لا يلتقى للعامة غير الكلام البسيط فمن المعقول أن تكون له آراء خاصة تخالف ما في كتاب الأحياء ، وأمثال كتاب الأحياء . الثاني ما ذكره الزبيدي من أن كتاب المضمون به على غير أهله يشتمل على التصريح بقدم العالم ونفى علم القديم بالجزئيات ، فإن هذه المسائل لا توجد في النسخة التي يتداولها الناس

وقد رجح جرجى زيدان في فهرس تاريخ الآداب العربية أن كتاب التبر المسبوك مدسوس على الغزالي ، وقد حاولت تحقيق ذلك ، فوجدت ما يقرب رأى جرجى زيدان وما يبغده . أما ما يقربه فهو إسقاط إسم من ترجمه من الفارسية . و ظهور الكتاب بمظهر الضعف في كثير من الموضوعات ، وأما ما يبغده فهو تقارب مادته من مؤلفات الغزالي الأخلاقية ، وإحاطته على الأحياء في كلامه عن رذيلة الغضب ، إلا أن يكون من دسه عليه غشى فعلته تلك بهذه القران الصناعية ، التي توهم القارى أن لاوضع ولا اختلاق . ومما لامرية فيه أن مصنفات وضعت باسم الغزالي ، فأما عددها ما فلا يزال مظنة الارتياب

ولا يفوتنا في ختام هذا الباب أن نذكر القارى بما لاحظناه فيما سلف من اختلاف آراء الغزالي في كتبه ، باختلاف سنه ، وصحته . فقد وضع مؤلفاته في ظروف مختلفة ، كان في بعضها يحكم العقل والشرع ، وكان في بعضها يسائر الصوفية في أوهامهم ووساوسهم . والرجل في الواقع معذور ، فقد كان يؤلف في أوقات لا تصلح مطلقاً للتأليف ، لأنه يشترط في المؤلف ما يشترط في القاضى من الصحة وهدوء البال

الباب الخامس

في

مباحث خمس الاضداد

نبيّن في هذا الباب قيمة العمل في ذاته ، شر هو أم خير ،
حسن أم قبيح ، ضار أم نافع . ثم تتكلم عن الارادة ، وعن
الضمير ، وعن الأغراض والنتائج ، والوسائل والغايات . وسبيلنا
في هذا الباب أن نجمل الآراء الفلسفية إجمالاً لتبين بازاها آراء
الغزالي نوعاً من البيان

الفصل الأول

الخير والشر

العمل الذي يجب أن يُعمل ، أو يحسن أن يُعمل ، هو الخير
والعمل الذي يجب أن لا يُعمل ، أو ينبغي أن لا يعمل ، هو الشر .
فلخير درجات ، وللشر درجات

هذه لغة اليوم . أما الغزالي فكان تارة يسمي ما يجب أن
يعمل واجباً ، وما يحسن أن يعمل مستحباً ، وما يجب أن لا يعمل

حراما ، وما ينبغي أن لا يعمل مكروها ، وما عدا أولئك فهو مباح
وكان تارة أخرى يقسم الأفعال إلى : حرام ، وواجب ،
ومباح . أما الحرام فهو المقول فيه : تركوه ولا تفعلوه . وأما
الواجب فهو المقول فيه : افعلوه ولا تتركوه . وأما المباح فهو
المقول فيه : إن شئتم فافعلوه ، وإن شئتم فتركوه

الحسن والقبیح

وربما قسم العمل إلى : حسن ، وقبيح ، ومباح — وإليك
إجمال مافصله في كتابه المستصفي في الأصول :

هناك اصطلاحات ثلاثة مختلفة في إطلاق لفظ الحسن والقبح :

الأول — أن الأفعال تنقسم إلى ما يوافق غرض الفاعل ،

وإلى ما يخالفه ، فالموافق يسمى حسنا ، والمخالف يسمى قبيحا ،

والثالث يسمى عبثا

الثاني — الحسن ما حسنه الشرع بالثناء على فاعله . ويقول

الغزالي : ويكون المأمور به شرعا ، ندبا كان أو ايجابا ، حسنا ،

والمباح لا يكون حسنا

الثالث — الحسن ما لفاعله أن يفعله ، فيكون المباح حسنا

مع الأمور

والمقصود من هذه الاصطلاحات الثلاثة هو ما حسنه الشرع
أو قبّحه . وهنا يجزم الغزالي بأن العمل لا يكون حسناً لذاته ،
ولا قبيحاً لذاته ، فيخالف المعتزلة الذين يقولون بأن من الأعمال
ما يدرك حسنه بضرورة العقل ، كاتخاذ الغرق والهلكى ، ومعرفة
حسن الصدق ، ومنها ما يدرك قبّحه بضرورة العقل : كالكفران
وإيلاء البريء ، والكذب الذى لا غرض فيه

ويحتج المعتزلة لذلك : بأننا نعلم قطعاً أن من استوى عنده
الصدق والكذب أثر الصدق ، ومال إليه ، إن كان عاقلاً ، وليس
ذلك إلا لحسنه . وأن القوى إذا رأى ضعيفاً مشرفاً على الهلاك
يميل إلى انقاذه ، وإن كان لا يعتقد أصل الدين لينتظر ثواباً ، ولا
يوافق ذلك غرضه : فقد يتعب به . بل يحكم العقلاء بحسن الصبر
على السيف إذا أكره المرء على إفشاء السر أو نقض العهد
ويجيب الغزالي : بأنه لا ينكر اشتهار هذه القضايا بين الخلق
وكونها محمودة ، ولكنه يصر على أن مستندها : إما التدين
بالشرائع ، وإما الأغراض

معارات الغلط

ولكن الأغراض قد تدق ، فلا يتنبه لها إلا المحققون ،
من أجل ذلك نبه على معارات الغلط ، وهى ثلاثة :

الأول : ان الانسان يطلق اسم القبح على ما يخالف غرضه ،
وان كان يوافق غرض غيره . فان كل طبع مشغوف بنفسه ،
فيقضى بالقبح مطلقاً ، وربما يضيف القبح الى ذات الشيء ، فيكون
قد قضى بأمور ثلاثه ، هو مصيب في واحد منها ، وهو أصل
الاستقباح ، ومخطىء في أمرين : أحدهما إضافة القبح إلى ذاته ،
إذ غفل عن كونه قبيحاً لمخالفته غرضه ، والثاني حكمه بالقبح
مطلقاً ، ومنشؤه عدم الالتفات الى غيره ، بل عدم الالتفات
الى أحوال نفسه ، فانه قد يستحسن في بعض الأحوال عين
ما يستقبحه اذا اختلف الغرض

الثاني : ما هو مخالف للغرض في جميع الأحوال ، إلا في حالة
واحدة نادرة ، قد لا يلتفت إليها الوهم ، بل لا يتخطر بالبال ،
فيراها مخالفاً في جميع الأحوال ، فيقضى بالقبح مطلقاً ، لاستيلاء
أحوال قبحه على قلبه ، وذهاب الحالة النادرة عن ذكره

الثالث : سبق الوهم الى العكس ، فان ما يرى مقروناً بالشيء ،
يظن أن الشيء أيضاً مقرون به مطلقاً لا محالة ، ومثاله نفره من
نهشته الحية من الجبل المبرقش اللون ، لأنه وجد الاذى مقروناً
بهذه الصورة ، فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالاذى ، فان الوهم

عظيم الاستيلاء على النفس ، ولذلك ينفر طبع الانسان من المبيت
في بيت فيه ميت ، مع قطعه بأن لا يتحرك ، ولكنه يتوهم
في كل ساعة حركته ونطقه

نقض شبهة المعتزلة

وبعد أن بين الغزالي هذه المشارات أخذ يناقش ما احتج به
المعتزلة ، وهو يرى أن الانتقاد إنما يرجع على الاهمال في حق من
لا يعتقد الشرائع ، لدفع الأذى الذي يلحق الانسان من رقة
الجنسية ، وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه ، وسببه أن الانسان
يقدر نفسه في تلك البلية ، ويقدر غيره معرضاً عنه وعن إنقاذه ،
فيستقبحه منه بمخالفة غرضه ، ويعود فيقدر ذلك الاستقبح من
المشرف على الهلاك في حق نفسه ، فيدفع عن نفسه ذلك القبح
المتوهم ، فان فرض في بهيمة أو في شخص لا رقة فيه ، فهو بعيد
تصوره . ويبقى أمر آخر : هو طلب الثناء على إحسانه . فان
فرض حيث لا يعلم أنه المنتقد ، فقد يتوقع أن يعلم ، فيكون ذلك
التوقع باعثاً . فان فرض في موضع يستحيل أن يعلم ، فقد يبقى
في النفس ميل يضاهاى نفرة طبع الملدوغ من الحبل المبرقش :
وذلك أنه رأى هذه الصورة مقرونة بالثناء فظن أن الثناء مقرون

بها على كل حال ، والمقرون باللذيد لذيد ، كما أن المقرون بالمكروه
مكروه

بل الانسان اذا جالس من عشقه في مكان . فانه يحس من
نفسه بتفرقة بين ذلك المكان وغيره ، اذا انتهى اليه . ولذلك قال
الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وماحب الديار شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا
وقال ابن الرومي :

وحبب أوطان الرجال اليهم * ما رب قضائها الشباب هنالك
اذاذكروا أوطانهم ذكرت لهم * عهود الصبا فيها فحنوا لذلك
وكذلك إخفاء السر ، وحفظ العهد . انما توأصى بهما الناس
لما فيهما من المصالح . فمن يحتمل في سبيلهما الضرر ، فانما يحتمله
لأجل الثناء ، فان فرض حيث لا ثناء ، فقد وجد مقرونا بالثناء .
فيميل الوهم الى المقرون باللذيد وان كان خاليا عنه

تحرير هذا البحث

هذه خلاصة ما يراه الغزالي في تأييد أهل السنة ، وتخطئة
المعتزلة . وتكون النتيجة على رأى أهل السنة أنه لاحسن ولا

قبیح قبل ورود الشرع ، وأنه لا ثواب ولا عقاب قبل ورود الشرع
وهذا الرأى خطأ من وجهين :

الاول — مخالفته لجوهر الشريعة ، فان الشريعة انما جاءت
لهداية الناس ، ولا معنى للهداية غير إرشادهم الى ما حسن أو قبیح
من الافعال ، ليفعلوا الحسن ، ويتجنبوا القبیح . ولو كانت الاعمال
خالصة في ذاتها من صفة الحسن والقبیح ، لما كانت هناك حاجة
الى الشرائع ، وكان خيراً للناس أن لا يحملوا أعباء التكالیف

الثانى — استهانتة بالشخصية الانسانية ، فانه اذا صح أن
لا حکم للعقل قبل ورود الشرع ، فان معنى ذلك أن الشخصية
الانسانية لاتصلح لفهم حقائق الاشياء ، وما أدرى كيف صلحت
بعد ذلك لحمل أمانة الدين الحنيف ؟

والواقع أن الأشاعرة يحنون على العقل حين يحكمون بأن
التحسين والتقبیح لا يكون الا بالشرع . فالزنا عندهم قبیح ، لاضرره
كما يحکم بذلك العقل ، بل لأن الشرع حکم بقبحه ، وعلى ذلك
لو حکم الشرع بحسن الزنا لكان حسناً ، ولوجد الأشاعرة من
أوجه المغالطة ما يثبتون به حسن ، ولهذا الرأى نتيجة من أسوأ
النتائج : وهى الركون الى ما وقع في الشرائع من الاعلاط ، فقد

يندر أن تجد شريعة لم تمتد إليها التحريف ، فذاشئت أن تتحاكم
الى العقل لتتقى الشرائع من أوشاب المسخ والتشويه ، وقف
في وجهك الجهال باسم الدين ، وقالوا مالنا وللعقل ؟ إنا وجدنا
آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون !

الضار والنافع

لا يفرق الغزالي بين كلمة شر وكلمة ضار ، كما يفعل علماء
الأخلاق ، فمن الواضح أني قد أعمل عملاً ضاراً ولكنه غير شر ،
إذا حسنت النية ، وخفي وجه الصواب

لكن العمل الضار شر مطلقاً عند الغزالي ، لأن القاعدة
عنده أن العمل ليس شراً إلا لأنه ضار ، وليس خيراً إلا لأنه نافع
نعرف هذا من قوله في ص ١٣٩ ج ٣ إحياء (إن الكذب ليس
حراماً لعينه ، بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره)
ونعرفه كذلك من تقسيمه الحرام الى ما حرم لصفة في عينه ، وما
حرم لخلل في إثبات اليد عليه : فلا يحرم من المعادن إلا ما يضر
بالآكل ، ولا يحرم من النبات إلا ما يزيل العقل ، أو يضعف
الصحة ، أو يزيل الحياة ، ولا يحرم السم اذا خرج عن كونه مضرراً :
لقلته ، أو لعجنه بغيره . وحرمة المال المغصوب ظاهرة ، لأن
الغصب ايداء للغير ، والايذاء ضرر

وانما كان الضار شراً على كل حال ، لأن الحالكم بالخير أو بالشر هو الشرع . وعلم الشرع فريضة على كل مسلم ، والجاهل لا عذر له ، الا اذا كان حديث عهد بالاسلام ، وهو عذر ضيق محدود ، لا يوجد الا في بعض الأحوال

العمل والاعتقاد

ولكن إذا غلب المرء على أمره ، فاعتقد أن الشر خير ، ثم عمل بمقتضى اعتقاده ، فماذا عسى أن يكون في رأى الغزالي ؟ يظهر لمن تأمل مؤلفاته : أنه يفرق بين الخير في العمل ، والخير في الاعتقاد . إذ يراه يقول في ص ٤٧ من الجزء الثالث من الاحياء :

« اذا حكم قلب المفتى بايجاب شئ ، وكان مخطئاً فيه ، صار مثاباً عليه . بل من ظن أنه تطهر ، فعليه أن يصلى . فان صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله ، فان تذكر ثم تركه كان معاقباً عليه . ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها وان كانت أجنبية فان ظن أنها أجنبية ، ثم وطئها ، عصى بوطئها وان كانت زوجته »
ويراه يقول في ص ١١ من كتابه المنقذ من الضلال :

« والظبيعون قوم أكثروا بحبهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات . وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطر وامعه الى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح

ومنافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير
البناني لبنية الحيوان ، ولا سيما الانسان . إلا أن هؤلاء لكثرة بحمهم
عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوى الحيوان ،
فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل
ببطلان مزاجه ، فتنعدم . ثم إذا انعدمت فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا
فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة . وهؤلاء
أيضاً زنادقة . لأن أصل الايمان هو الايمان بالله وبالرسول واليوم
الآخرة وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وان آمنوا بالله وبصفاته »

وتهافت الغزالي في هذا الحكم واضح . فقد قرر أن من
يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء يحصل له العلم الضروري
بكمال تدبير البناني لبنية الحيوان والانسان ، فهو إذن أقوى ايماناً
وأرسخ عقيدة ممن لم يطالع التشريح . ولكن الباحث في منافع
الأعضاء مضطر الى أن يؤمن بأثر المزاج فيما يعتور النفس من
قوة وضعف ، وهو بالتالي مضطر الى الايمان بأن النفس تموت .
وإذن فهو زنديق فيما يرى الغزالي ! وكيف ذلك والغزالي يرى
أن من وجد على فراشه امرأة فظن انها زوجته ، لم يعص بوطئها
وان كانت أجنبية !؟

لقد صرح الغزالي في عدة مواطن من كتبه ، بأن من جهل
على شرب الخمر لا يحد ؛ وصرح في ميزان العمل بأن الأمزجة
تشكل الأخلاق ؛ فهو يرى الاختيار شرطاً للمؤاخذة ، كما

أوضح ذلك حين تكلم عن حديث النفس في الجزء الثالث من الاحياء ، فكيف يحكم بكفر الرجل العالم الذي أقنعه العلم مثلاً بأن النفس تموت ؛ أيرى الغزالي أن من المحرم شرعاً أن يدرس التشريح ؛ وإذا كانت الشريعة تدعو الى تحكيم العقل كما نطق بذلك القرآن ، أفليس معنى ذلك انه ليس للشريعة أن تضع بنفسها نتيجة ذلك التحكيم ، والا كان ايماناً بقوة الحديد ؟

الحق أن الغزالي مال كثيراً الى ترضية العامة حين بحث صحة الايمان ، حتى رأيناه يذكر أن المرء قد يتكلم بما هو كافر ، وهو لا يدري !

وما أغرب قوله في كتابه المتقدم من الضلال « ثمرد ارسططاليس على افلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الالهيين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم ، إلا أنه استقى أيضاً من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع منها . فوجب تكفيره ، وتكفير متبعية ، من متفلسفة الاسلاميين : كابن سينا والفارابي ، وأمثالهم »

والغزالي الذي أسرف هذا الأسراف في الحكم على الايمان وفق كل التوفيق حين دعا الى حسن الظن بالناس . وانظر مقاله في تحريم الغيبة بالقلب « ليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا اذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل . . . حتى ان من استنكته فوجد منه رائحة الحجر ، لا يجوز أن يجد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تغمض بها وجهها وما شربها ، أو حمل على الشرب قهراً . فكل ذلك لا محالة دلالة

محملة ، فلا يجوز تصديقها بالقلب ، وإساءة الظن بالمسلم بها «
وعندي أن الرجل لا يكفر الا اذا عرف الحق وعاند، فأى
فيلسوف رأى رأياً شاذاً عن حسن قصد فهو ناج ولو كان رأيه
يخالف الدين مخالفة صريحة . فكان من الحق على الغزالي أن يقيم
الأدلة على ما عند ابن سينا والفارابي من العناد ، وسنعود الى
تفصيل هذا الرأى فى غير هذا الباب

مقياس الخير والشر

ومع أن الغزالي قرر أن لا دخل للعقل فى حسن العمل
وقبحه ، وإنما الامر فى ذلك للشرع ، فقد رأيناه يقيس العمل
بمقياس العقل والشرع معاً ، حين يريد أن يحكم : أخير هو أم
شر . فالعمل خير اذا وافق العقل والشرع ، وشر اذا خالف العقل
والشرع

ولم يفرد الغزالي باباً لهذا البحث ، ولكنه نوه بمدلوله
فى مواطن كثيرة ، فقد جاء فى ص ٨١ من ميزان العمل فى تعريف
السخاء ما نصه : « هو أن يتيسر عليك بذل ما يقتضى الشرع والعقل بذله عن
طوع ورغبة ، ويتيسر عليك إمساك ما يقتضى الشرع والعقل إمساكه عن
طوع ورغبة » وجاء فى ص ١٣٦ من هذا الكتاب ما نصه :
« وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها فى شيء مما يختص بها الا فيما

يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذي يسوغه « وقال في ص ٥٧ من الجزء الثالث من الاحياء « وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع » وقال في وصف العمل الصالح « وذلك بأن يكون موزوناً بميزان العقل والشرع » ص ٢٢ ج ٣ إحياء

اعمال الغزالي لهذا المقياس

هكذا يقاس الخير والشر بمقياس العقل والشرع فيما يرى الغزالي . ولكن ماهو الشرع ؟ وما هو العقل ؟
إن الغزالي نفسه وضع في الأُخلاق أحكاماً لانظنها تستند على عقل أو دين ! ولنضرب مثلاً بما وضعه لنظام الطعام . جاء في الميزان ص ١٨٤ ما نصه « وأما المطعم فهو الأصل العظيم . إذ المعدة مفتاح الخيرات والشرور - ولهذا أيضاً ثلاثة مراتب : أدناها قدر الضرورة وهو ما يسد الرمق ويبقى معه البدن ، وقوة العبادة . وذلك يمكن تقليله بالعادة ، تارة بتقليل الطعام شيئاً فشيئاً حتى يتعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين . وقد انتهى الزهاد في القدر كل يوم الى حمصة وبعضهم في الوقت إلى عشرين يوماً وقيل أربعين . وهذه رتبة عظيمة يقل من يستقل بها » وقد أطال القول في فضائل الجوع في الربع الثالث من الاحياء حتى قال « روى أن عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحاً لم يأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة ، فاذا رغيف موضوع بين يديه ، جلس يبكي على فقد المناجاة ، واذا شيخ قد أظله ، فقال له عيسى : بارك الله فيك يا ولي الله ، ادع الله تعالى لي . فاني كنت

في حالة فخطر يبالي الخبز فانقطعت عني ! فقال الشيخ : اللهم إن كنت تعلم أن الخبز خطر يبالي منذ عرفتك فلا تغفر لي ! بل كان إذا خطر لي شيء أكلته من غير فكر ولا خاطر ! »

وقال أيضاً « الفائدة السابعة من فوائد الجوع — تيسير المواظبة على العبادة . فان الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج الى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج الى زمان في شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج الى غسل البدن والخلال ، ثم يكثر ترداده الى بيت الماء لكثرة شربه ، والأوقات المصروفة الى هذا لو صرفها الى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثير ربحه »

ففي الكلمة الأولى نراه يدعو إلى تقليل كمية الطعام حتى تصل إلى حمصة ، وتطويل المدة حتى تصل إلى عشرين يوماً أو أربعين ، ثم يعد هذه الرياضة رتبة عظيمة . فياليت شعري ، أيرضى بذلك العقل ، وهو لا يرضى بأقل من أن يكون المرء حياً فيه فضائل الحياة من قوة ونشاط ؟ أم يرضى بذلك الشرع ، وهو لا يرضى بأقل من أن يكون الرجل جندياً يضرب في الارض ، ويحرس الثغور ، ويرهب القوم الكافرين ؟

وفي الكلمة الثانية ، يصف عيسى بما لا ينبغي أن يوصف به الأنبياء ، وإلا فكيف ينبغي لثبي أن يناجى ربه ستين صباحاً بلا طعام ، وهو مسئول عن الدعوة إلى دينه ، وقاما ينجح في الدعوة ضعيف ؟ هذه جرعة في وصف الأنبياء والمرسلين ،

فما أحسبهم إلا رجالاً أشداء تمت لهم صفات الفتوة والرجولة ،
أما هذه الرهينة التي تصورها الغزالي فلا تنتج غير الضعف
والحلول ، وما كان الأنبياء كسالى ولا واهنين

وفي الحكمة الثالثة ، يستكثر على المرید أن يضيع وقتا في شراء
الطعام وطبخه ، ثم غسل يده ، وتحليل أسنانه ، وما أدرى كيف
يصير الناس ، إذا قاسوا الخير والشر بهذا المقياس !

الواقع أن الغزالي وضع مؤلفاته في الأخلاق مشربة بنزعة
صوفية ، بل صرح بأن مدار أكثر كتابه الميزان على مذهب
التصوف . والتصوف ليس مذهب الأحياء ، ولكنه مذهب
الأموات . وما ظنك بمذهب يحيز للغزالي أن يصور
للنظر للمستقبل بهذه الصورة المنكرة حين يقول « وأرفع
الدرجات درجة من يلتفت الى غيره ، ويقصر همته على يومه ، ويومه
على ساعته ، وساعته على نفسه ، وقدّر نفسه كل لحظة مرتحلا من الدنيا
أو مستعداً للارتحال »

وما أظن أمة تفهم الأخلاق هذا الفهم ، ثم تقدر على
الجلاد في عالم الأحياء . ولم يبعد من وصف الاخلاق في رأى
الغزالي بأنها أخلاق العبيد !

الفصل الثاني

الارادة

١

وردت كلمة الارادة في كتب الغزالي لأغراض متعددة :
فتارة يريد بها السلوك في طريق الله ، ومنها المرید الذي يرد كثيراً
في كلامه ، ويريد به السالك في ذلك الطريق ، طريق الصوفية
والارادة بهذا المعنى شرط يتقدمها : وهو رفع السد الذي
بين المرید وبين الحق ، وهذا السد فيما يرى الغزالي أربعة أشياء :
المال ، والجاه ، والمعصية ، والتقليد
ويُرفع حجاب المال بمخروج المرید عن ملكه ، حتى لا يبقى
له إلا قدر الضرورة . ويُرفع حجاب الجاه بالبعد عن مواطنه مع
إيثار الخمول . ويُرفع حجاب التقليد بترك التعصب للمذاهب .
أما المعصية فلا يرفعها إلا التوبة ، والندم ، والعزم على عدم العود
والخروج من المظالم

والتجرد من هذه الحجب هو فيما يرى الغزالي كالتطهر
للمصلاة ، ولا بد للمصلي من إمام . فكذلك لا بد للمرید من أستاذ

وقد وضع عدة آداب للمريد مع أستاذه ، وليس ذلك مما يعيننا الآن . ويكفي أن يعرف القارئ ما يقصد من كلمة مرید التي يكثر دورانها في الميزان والمنهاج والإحياء

٢

وتارة يذكر الإرادة ويريد بها ما ينبعث عن المعرفة ويسخر القدرة . والإرادة بهذا المعنى هي المقصودة عند علماء الأخلاق . ولها عند الغزالي أسماء مختلفة : فراه حينما يسميها القوة العاملة إذ يقسم قوى النفس الإنسانية إلى قوة عالمة ، وقوة عاملة ، ويذكر أن الثانية « هي قوة ومعنى للنفس هو مبدأ حركة بدن الإنسان إلى الأفعال المعينة الجزئية المختصة بالفكر والرؤية على ما تقتضيه القوة العاملة النظرية » الميزان ص ٢٦

ونراه حينما آخر يسميها النية . ويعنونها كذلك في الأربعين والاحياء . فلو أنك نظرت في الفهرست لتعرف في أي موضع تكلم عن الإرادة ، ثم نظرت في الفصل الذي شرحها فيه ، لما رأيتها الإرادة التي يتكلم عنها الأخلاقيون ، وإنما رأيتها الإرادة التي عنها الصوفية ، واشتقوا منها كلمة مرید . فاما الإرادة التي هي من موضوعات الأخلاق ، فاسمها عند الغزالي النية ، وله في شرحها كلام طويل



يقول الغزالي « إن النية والإرادة والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب ، ويكتنفها أمران : علم وعمل . والعلم يتقدم لأنه أصل وشرط . والعمل يتبع لأنه ثمرة وفرع . وذلك لأن كل عمل ، أغنى كل حركة وسكون اختياري . لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة . لأنه لا يريد الانسان ما لا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من ارادة . ومعنى الارادة انبعث القلب الى ما يراه موافقا للغرض ، إما في الحال ، وإما في المال » ص ٣٨١ ج ٤ احياء

ويقول (النية هي الإرادة الباعثة للقدرة ، المنبعثة عن المعرفة . وبيانه أن جميع أعمالك لا تصح الا بقدرة وارادة وعلم ، والعلم يهيج الإرادة . والإرادة باعثة للقدرة . والقدرة خادمة الارادة) ص ٢٦٢ من الأربعين

وواضح أن الارادة كما يراها الغزالي لا تختلف عما نراه الآن فانك لا تجد فرقا بين كلامه هذا وبين قول چول سيمون (والواقع اننا لأجل أن نعمل يجب أن نريد ، ولأجل أن نريد يجب أن نعرف ماذا نريد ، ولماذا نريده) الواجب ص ١٩



ويقرر الغزالي فوق ماتقدم انه لا يكفي أن يعلم الانسان صواب العمل ليريده وينفذه ، بل لابد من أن يقوى في نفسه

كون الشيء موافق له ، فإذا جازمت المعرفة بان الشيء موافق
ولا بد أن يفعل ، وسامت عن معارضة باعث آخر صارف عنه ،
انبعثت الارادة ، ونهضت القدرة لتنفيذ المراد
ويقرر كذلك أن نهوض القدرة للعمل قد يكون بباعث
واحد ، وقد يكون بباعثين اجتماعاً في فعل واحد . وإذا كان
بباعثين فقد يكون كل واحد من القوة بحيث لو انفرد لكان
كافياً لإنهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا
بالاجتماع ، وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر ، ولكن قام
الآخر بمعاونته . فالباعث الثاني إما شريك أو رفيق أو معين .
ولهذا التقسيم مزية في تقدير ما في العمل من خير أو شر ، بتقدير
البواعث ؛ فإن العمل تابع للباعث عليه ، فيكتسب الحكم منه ،
إن خيراً بخير ، وإن شراً فشر . بل ربما كانت النيات أقوى في
التقدير من الأعمال ، ومن هنا كانت نية المرء خيراً من عمله ،
كما جاء في الحديث الشريف ، وكما ذكر الغزالي من أن أعمال
الجوارح ليست مرادة إلا لتأثيرها في القلب ، ليميل الى الخير ،
وينفر من الشر^(١)

(١) انظر ص ٢٦٣ من الاربعين

تربية الارادة

تُرَبَّى الارادة فيما يرى الغزالي بتكرار طاعة الميل المحمود
وتكرار مجاهدة الميل المذموم . وفي ذلك يقول : «واذا حصل أصل
الميل بالمعرفة فانما يقوي بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه . فان المواظبة
على مقتضى صفات القلب تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفات
فالمائل الى طلب العلم أو طلب الرياسة ، لا يكون ميلاً في الابتداء إلا
ضعيفاً . فان اتبع مقتضى الميل ، واشتغل بالعلم ، وتربية الرياسة ،
والاعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميله ورسخ ، وعسر عليه النزوع .
وان خالف سقتضى ميله ، وضعف ميله ، وانكسر ، وربما زال . بل الذى
ينظر الى وجه حسن مثلاً فيميل اليه طبعه ميلاً ضعيفاً ، لو تبعه وعمل
بمقتضاه فداوم على النظر ، والمجالسة ، والمخالطة ، والمحاوره ، تأكد
ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه . ولو فطم
نفسه ابتداء ، وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء
عن صفة الميل ، ويكون ذلك دفعاً فى وجهه حتى يضعف . . . لان بين
الجوارح والقلب علاقة ، حتى انه ليتأثر كل واحد منهما بالآخر . إلا
أن القلب هو الأصل المتبوع ، فكأنه الأمير والراعى . والجوارح
كالخدم والراعى والاتباع»

والغزالي لا يرى للعمل قيمة بغير النية ، وان شئت الارادة .
واذ كانت النية هى التى تقوم بالعمل ، فمن الخير أن تكون قوية ،
لأنه كما تكون الرغبة فى عمل طيب ، أو النفرة من عمل خبيث ،
يكون جزاء العامل : فيكثر أجره إن قوى حبه للخير ، وبغضه

لشر ، ويقبل فيما عدا ذلك . وقد نص في عدة مواطن من كتبه بان المعوّل على القلوب ، حتى لنجده يذكر أن الصغيرة تنقلب كبيرة بالاصرار والمواظبة ، أو بالاستهانة بما لها من الخطر . وأن الكبيرة اذا وقعت بغتة ، ولم يتفق اليها عود ، واستعظمها المرء ، كانت مرجوة العفو ، وفي ذلك يقول :

« فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله ، وكلما استصغره كبر عند الله ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه ، وكرهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به . واستصغاره يصدر عن الإلّف له ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحدور تسويده بالسيئات » ص ٣٣ ج ٣

أهمية الإرادة

الإرادة شرط للمسئولية ، وشرط للجزاء . فالذي يعمل وهو ناسٍ أو غافل لا يجازى ولا يؤخذ . وإنما كان الأمر كذلك فيما يرى الغزالي : لأن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة ، والقلب عند الغزالي هو كل شيء ، فليست الحسنة حسنة إلا لأنها تصلحه ، أو تزيد في صلاحه ، وليست السيئة سيئة إلا لأنها تفسده ، أو تزيد في فساده . والجريمة الهائلة اذا اقترفها المرء وهو مضطرب متردد ، لا خطر لها عنده ، لان القلب لا يتأثر بما يفعل المرء وهو

كاره ، والهفوة التافهة عظيمة الخطر إذا أتاها المرء وهو راضٍ مسرور ، لأنه بقدر ماتحمو السيئة يعظم أثرها في تسويد القلب وإفساده . والذنب الواحد تختلف قيمته حين يأتيه رجلان : أحدهما عارف به ، وثانيهما جاهل له ، فهو بالنسبة للأول كبيرة ، وبالنسبة للثاني صغيرة ، لأن الإرادة تختلف قوةً وضعفًا باختلاف درجة العلم ، إذ كانت ثمرة له

ويقول الغزالي بعد كلام طويل « فهكذا يجب أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب ، وتبديل صفاتها فقط ، دون الجوارح ، فلا تظن في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب . ومن وجد في قلبه رقة على يتيم ، فانه إذا مسح رأسه وقبّله تأكدت الرقة في قلبه » ص ٢٨٤ ج ٤

الجبر والاختيار

وقد اختلف العلماء ، ولا يزالون مختلفين ، في حرية الإرادة فمنهم من يقول انها مجبورة ، ومنهم من يقول انها مختارة ، ومنهم من يحكم بأنها دائرة بين الجبر والاختيار وأنا أرجح الرأي الأخير ، لأن الواقع أن هناك مؤثرات تحمل الإرادة على الاتجاه إلى جهة معينة ، كالوراثة ، والصحة ، والبيئة ، والظروف الخاصة . والإرادة فيما عدا ذلك حرة مختارة

فالذي ورث عن أبيه أو أمه خلقاً من الأخلاق ، يسير مضطراً إلى ما يوافق ذلك الخلق . والذي يحمله ضعف صحته على اللدد في الخسومة لا يستطيع اجتناب هذه الخصلة . والذي تقضى عليه البيئة التي يعيش فيها باحترام زى خاص ، يشعر بالاضطرار إلى التزيى بهذا الزى . فأنا أستطيع نزع العمامة لألبس الطربوش ، ولكنى لا أستطيع لبس القبعة ، لأننى مقهور على مسaire الوسط الذى أعيش فيه ، وإن زعمت ثم زعمت أننى مختار . والذي يقهره ظرف من الظروف على إتيان جريمة من الجرائم غير مختار . وسيرق القضاء يوماً فيحلل الظروف التى وقعت فيها الجريمة ليتبين صحة المسؤولية . فكثيراً ما يعاقب المجرم وهو غير مسئول

فاذا انتفت موانع الاختيار ، فالارادة حرة فى الاقبال على الفعل ، أو الانصراف عنه . وفى هذه الحالة تصبح للخير قيمته ، وللشر قيمته ، ويصير الخيرُ جديراً بالمشوبة لأنه أحسن وهو مختار ، والشرير خليقاً بالعقوبة لأنه أساء وهو مختار . أما المضطر الى فعل الخير أو الشر لسبب من الأسباب فهو فيما أرى غير أهل للشواب والعقاب

والغزالي لا يقول بحرية الارادة حرة مطلقة ، ولا بعجزها العجز المطلق . ويقول « بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً .

وخلق الاختيار والمختار جميعاً ، فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب ،
وأما الحركة فخلق للرب ، ووصف للعبد وكسب له ، فانها خلقت مقدورة
بقدره هي كسب وصفة . وكانت الحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة
فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا . وكيف تكون جبراً محضاً وهو بالضرورة
يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية؟ أو كيف يكون
خلقاً للعبد وهو لا يحيط علماً بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة
وأعدادها؟ وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد في الاعتقاد ، وهو أنها
مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً ، وبقدرة العبد على وجه آخر من
التعلق يعبر عنه بالاكتساب (ص ١٢٠ ج ١ إحياء

والواقع أن رأى الغزالي هذا لا يفصح عن قيمة ما في أعمال
المرء من الاختيار ، فهي في رأيه ليست جبراً لأنها تفرق عن
الرعدة ، وهي ليست اختياراً لأن المرء لا يحيط بتفاصيل ما لحركاته
من الأجزاء . مع أن الاختيار لا يتوقف إثباته على معرفة
الأجزاء والإعداد ، لأن العمل الاختياري قد تكون له لوازم
ضرورية ، لا يتنبه لها المرء ، ولا تكون غفلته عنها قادحة في
اختياره

ويقرر الغزالي مع هذا (أن فعل العبد وإن كان كسباً له ، لا يخرج
عن كونه مراداً لله سبحانه ، فلا يجري في الملك والملكوت طرفة عين ،
ولا لفتة خاطر ، ولا فلتة ناظر ، إلا بقضاء الله وقدرته ، وبارادته ومشيتته ،
ومنه الشر والخير ، والنفع والضرر ، والاسلام والكفر ، والعرف والنكر ،

والفوز والخسر، والغواية والرشد، والطاعة والعصيان، والشرك
والإيمان) ص ١٢٠ ج ١

وأنا لأفهم ما هو هذا الكسب الذي يُقره أهل السنة،
ويتابعهم الغزالي في إقراره. فهم لا يقولون بأن العبد مضطر،
والا كانوا جبرية، والجبرية في رأيهم خاطئون. ولا يقولون بأنه
مختار، والا كانوا معتزلة، وهم قد سلقوا المعتزلة بالسنة حداد.
فلم يبق إلا أن العبد لا هو حر ولا هو مختار، وإنما هو مكتسب:
وهذا الكسب أيضاً مراد لله. إذن فما الذي بقي للعبد المسكين!
الحق أن هذه وسوسة أوقعهم فيها الخلاف!

وأساس هذه الوسوسة أنهم يحسبون حرية الإرادة خروجاً
على الله في ملكوته، والغزالي يضرب المثل بزعم الضيعة يستنكف
أن يكون لأحد العمال رأى معه، وما كان أغناه عن ضرب هذه
الأمثال!

إن حرية الإرادة الانسانية لا تضر الله شيئاً، فال بال أهل
السنة يابون إلا أن تكون طرفة العين، وهي حركة طبيعية،
أثراً لإرادة الله؟

ولا قيمة لما يجيب به المعتسفون من أن اختراع الله للقدرة
كافٍ في إقرار الكسب للمرء، فانه لا خلاف في أن الله واهب

القُدْرَ ، ولكن ليس معنى ذلك أنه يسيّرهما أنى شاء ، ومتى شاء ،
والا كان التكليف ضرباً من العبث ، ولو كره المتكفون . فلم يبق
الا أن الارادة حرة ، وذلك هو ماوضع الله من قانون ، فلا
يبتسوا بما تقول !

على ان العهد قريب بما قال الغزالي في تربية الارادة ، فاذا
كان ما أريده هو ما يريد الله ، فأى الأرادتين تربى ؟ ان هذا إلا
تناقض

ونعود فنذكر انه قرر في مكان آخر من الإحياء (أن النية
غير داخلة تحت الاختيار) وقد عرفت انه يريد بالنية الارادة ،
وأن رأيه وسط بين الجبر والاختيار ، أفلا يكون متناقضاً في
حكمه : تارة بان النية حرة ، وتارة بانها مجبورة ؟

الحقيقة أن الارادة التي يقرر الغزالي أنها غير مختارة ليست
هي الارادة بمعنى القصد ، وإنما ذلك ما يسمى ارادة صادقة ، وهي
التي يعقبها التنفيذ . فمن الجائز أن أقصد الى أى عمل في أى وقت ،
ولكن ليس في مقدورى أن أرغب رغبة صادقة في كل ما يعنى
لى من الأعمال ، في جميع الأحيان . وفي ذلك يقول الغزالي
« فقد تتيسر في بعض الأوقات ، وقد تتعذر في بعضها . نعم من كان
الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية
للخيرات ، فان قلبه مائل بالجملة الى أصل الخير فينبعث الى التفاصيل

غالبا ، ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك . بل لا يتيسر له في الفرائض الا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر عذاب النار أو نعيم الجنة ، فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته « وخلاصة رأى الغزالي أن المرء حرق في الاقبال على ماشاء من الأعمال ، وان كان في اقباله انما ينفذ ارادة الله ، ولكنه ليس صادق النية في كل حين ، وانما تصدق النية بالترغيب في الجنة والتخويف من النار

ولا يفوتنا أن ننبه على ما دعا اليه في تربية الخلق من مخالطة الأختيار ، فان في ذلك اعترافا ضمنيا بتأثير الوسط في الارادة الانسانية ، ونقله إياها من حال إلى حال . وهذا نوع من الجبر ، ولكنه جبر معقول

الفصل الثالث

الضمير

هو صوت ينبعث من أعماق الصدور ، أمراً بالخير ، أو ناهياً عن الشر ، وان لم ترج مشوبه ، أو تخش عقوبة والغزالي كما رأيت لا يرى شيئاً حسناً لذاته ، أو قبيحاً لذاته ، فالشرع هو المكيف للأعمال حسناً وقبحاً ، فلا مجال بالطبع لأن

يفرد باباً للضمير ، إذ كان التكليف إنما ينزل من السماء . والضمائر التي ترد في كلامه إنما يريد بها مكنونات الصدور ، وهي والسرائر من باب واحد . والانسان فيما يرى ليس مسئولاً عن مراقبة ضميره ، إذ هو لا يعرف الضمير . وإنما يسأل عن مراقبة ربه ، وخشيته ، في السر والعلانية . فليس هناك جراحة باطنية تدرك الخير والشر ، وان لم تتعرض لهما الشرائع ، وإنما هناك رب يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، والمرء عن خشيته مسئول غير أنه لا يصح لنا أن ننسى أن هناك أسباباً لنشوء الضمير ، فالفلسفة توجد لدارسها نوعاً من الشعور بالمسئولية ازاء بعض الجوانب ، والأخلاق توجد للباحث فيها نوعاً من إدراك الواجب ، والشريعة كذلك تورث المتدين بها نوعاً من الوجدان ولا نبعد عن الصواب إذا قررنا أن الغزالي يؤمن بالتنوع الأخير من الضمير ، وإن لم ينوه به ، ولم يختصه بالبيان . واليك قوله في ص ٨٥ ج ١ من الاحياء (ومنها أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته ، وإدراكه بصفاء قلبه ، لاعلى الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره) وقد ردّ في كتبه هذا الحديث (الاثم ما حاك في صدرك ، وإن أفتوك وأفتوك) وليس ذلك إلا إشادة بهذه الحاسة الباطنية التي يفزع المرء اليها عندما يلتبس

عليه وجه الصواب . إلا أنه يجب أن نعرف أن نص الشريعة من كتاب أو سنة هو عنده فوق الفتوى وفوق الضمير .

والحق أن الضمير لا وجود له في ذاته ، حتى نؤاخذ الغزالي بإغفاله ، وإنما ينشأ من الشرائع الوضعية ، والسماوية . حتى إنك لتجد لكل شعب ضمائر تخصه بالذات ، حسبما توحى التقاليد . فمثلا جريمة السرقة كانت فضيلة عند بعض الشعوب ، وكان من تنقصه فيها المهارة عرضة لاحتقار الرأي العام ، ولذع الضمير !! ونهب مال الغريب لا حرج فيه عند فريق من القبائل البربرية ، فمن الواضح أنهم لا يقيسون عندهم تأنيب الضمير . بل الشخص الواحد يختلف ضميره باختلاف سنه ، فيكون ضميره في سن العشرين ، أضعف أو أقوى منه في سن الثلاثين ، حسبما توجب الظروف . ومن هنا صح لشاعر أن يقول :

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب * فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب؟

كما صح لغيره أن يقول :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه * فاما علاه قال للباطل ابعدي

وعندي أن فكرة الضمير إذا صح أن تكون عامة ، فيجب

أن تقصر على المنافع البشرية . على معنى أن الضمير هو الحاسة

التي تتألم لما يتوجع له الانسان من حيث هو إنسان ، بغض النظر

عن دينه ، ووطنه ، ومذهبه . فان للانسانية وشائج لا ينال منها
اختلاف المذاهب ، ولا تباين اللغات ، ولا تباعد الأقطار

الفصل الرابع

الأغراض والتأجج

هل يكون العمل خيراً باعتبار نتيجته ، أو باعتبار المقصود
منه ؟ وبعبارة أوضح : هل يكون خيراً لاني أردت به الخير ،
أو لأنه أنتج الخير ، وإن لم أرد ذلك ؟

ويظهر أنه لاستخلاص رأى الغزالي في الجواب على هذا
السؤال ، ينبغي أن نسايره في الأعمال المختلفة ، لنعرف رأيه في كل
نوع منها على انفراد

وقد رأيناها يقسم أعمال الإنسان إلى طاعات ومعاصي
ومباحات . أما الطاعات فلا تكون خيراً إلا بالنتية ، وهي الغرض
في التعبير الحديث . ويقول في ذلك (إن العمل تابع للباعث عليه
فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل : إنما الأعمال بالنيات . لأنها
تابعة لاحكامها في نفسها وانما الحكم للمتبوع) وهو يستنتج بناءً
على هذا الأساس أنه لاقيمة للصوم إذا أراد الصائم الانتفاع
بالحمية ، ولا للعتق إذا أراد السيد أن يتخلص من مؤنة عبده ،

ولا للحج إذا أراد المرء أن يصح مزاجه بالحركة والانتقال ، ولا للغزو إذا أحب الشخص أن يتعلم أسباب الحروب : لأن النية لاتصح عند الغزالي إلا إذا خلصت من الشوائب ، وتقرب العبد بها إلى الله . ولا مانع عنده من وجود باعث آخر ، ويسميه الباعث النفسى ، على شرط أن يكون أضعف من الباعث الأسمى . فان كان مساوياً له ، صار العمل لاله ولا عليه ، كما يقول . وإن كان أقوى منه فهو مضر ومفرض للعقاب

والغزالي ينصح بالتدبر قبل الشروع فى الطاعة ليعرف المرء أى الباعثين أقوى : باعث النفس أو باعث القربة ، وأى النصيبين أوفى : نصيب الله أم نصيب الشيطان . ولكنّه يقول : « ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، إذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعاً »

ويلاحظ أن فى هذا تناقضاً مع حكمه على العمل الذى غلب فيه الباعث النفسى بأنه مضر ومفرض للعقاب ، والعمل الذى يضر ويفرض للعقاب ، لا يكون تركه منتهى بغية الشيطان ، فكان على الغزالي أن يفرق بين العمل فى ذاته وبين غرض العامل منه ، لأن العمل الطيب غير ضار فى ذاته ، وإن ساء الغرض منه .

والمفروض أننا نتكلم عن أعمال هي في نظر الشرع طاعات ، وهي في ذاتها خير ونافعة ، فكيف تنقلب بسبب النية ضارة ؟

ولم يفرق الغزالي بين الأعمال الاجتماعية والأعمال الفردية فمن الواضح أن بعض الأعمال يرجع إلى فائدة المرء وحده كالعبادات وبعضها يرجع نفعه إلى جمهور الناس . وما أحسب الغزالي ينهى عن الأعمال الاجتماعية ، مهمل القصد ، إذ لا أقل من أن تكون تمريناً للنفس على عمل الخير . وقد صرح في غير موطن بأن التخلق مفض إلى الخلق . ومتى كان العمل نافعاً للناس ، فالدعوة إليه واجبة ، والعمل حر في الاستفادة من حسن نيته إن شاء

وأما المعاصي فهي شر على كل حال . والغزالي هنا يقدر النتائج ، فمن عمل شراً عن جهل فهو آثم ، ولا عذر له من جهله لأن الجاهل غير معذور إلا إذا كان قريب عهد بالاسلام ، وهذا عذر محدود . وقد علمت أنه يرى أن المعصية شر لأنها ضارة ورأيت كذلك أن فاعل المعصية آثم وإن لم يعلم وجه إثمه ، فتحتم أن تكون العبرة هنا بالنتائج لا الأغراض ، بخلاف الطاعات فقد تنقلب معاصي صرفة إذا خبيثت النية ، كمن يتعلم العلم ليستميل الناس

الفصل الخامس

الوسائل والغايات

إذا كانت الغاية شريفة ، فلا يجب فيما يرى الغزالي أن تكون الوسيلة دائماً شريفة ، فالغاية عنده قد تبرر الوسيلة . وقد أوضح هذا حين تكلم عن المواطن التي يجوز فيها الكذب فقال : « الكلام وسيلة الى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن الوصول اليه بالصدق والكذب جميعاً ، فالكذب فيه حرام إن أمكن التوصل اليه بالصدق . وإن أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح ، إن كان تحصيل ذلك المقصد مباحاً ، وواجب ان كان المقصود واجباً . وكما أن عصمة دم المسلم واجبه ، فمهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم ، فالكذب فيه واجب . ومهما كان لا يتم مقصود الحرب ، أو صلاح ذات البين ، أو استمالة قلب المجنى عليه ، إلا بكذب فالكذب مباح ^(١) » وبعد أن بين الحالات الثلاث التي يجوز فيها الكذب كما نص الحديث ، وهي الصلح والحرب ومحادثة المرأة ، قال : « فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفي معناها ما عداها اذا ارتبط به غرض مقصود صحيح له أو لغيره ^(٢) » ثم ضرب لذلك الأمثال الآتية :

(١) ص ١٣٩ ج ٣ إحياء (٢) ١٤١ ج ٣

- (١) ان يأخذه ظالم ويسأله عن ماله . فله أن ينكره
(٢) ان يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة ارتكبها بينه وبين الله ،
فله أن ينكر ذلك ، إذ للرجل أن يحفظ دمه ، وماله وعرضه ، بلسانه ،
وان كان كاذبا
(٣) أن يُسأل عن سر أخيه ، فله أن ينكره
(٤) أن يصلح بين الضرائر من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها
أحب إليه

وقد تنبه الغزالي إلى خطر هذا الباب ، فبين أن الكذب
لا ينبغي أن يقترب كلما كانت له فائدة ، بل يجب أن تكون فائدته
أقوى وأظهر من فائدة الصدق ، وإلا وجب أن يكون الرجل
من الصادقين . وانظر قوله « ولكن الحذفيه أن الكذب محذور ،
ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور ، فينبغي أن يقابل أحدهما
بالآخر ، ويزن بالميزان القسط ، فاذا علم أن المحذور الذي يحصل
بالصدق أشد وقعا في الشرع من الكذب ، فله الكذب . وان كان ذلك
المقصود أهون من مقصود الشرع ، فيجب الصدق . وقد يتقابل الأمران
بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل الى الصدق أولى . لأن الكذب
يباح لضرورة ، ولحاجة مهمة . فان شك في كون الحاجة مهمة ،
فالأصل التحريم » ص ١٤١ ج ٣

غير أن هذه الحيلة لا تلزم الرجل فيما يرى الغزالي إلا إذا
كان يترك الكذب لغرض من أغراضه . أما إذا تعلق بغرض

غيره فلا تجوز المسامحة بحق الغير ، والاضرار به . وهذا من الغزالي
نظر بعيد

وقد استثنى من الكذب للمصلحة ، الكذب على رسول الله
بوضع الأحاديث في فضائل الأعمال ، وفي التشديد في المعاصي ،
فليس هذا من الاغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول
الله ، فان الكذب عليه من الكبائر التي لا يقاومها شيء

وضع القصص

وبهذه المناسبة ، نذكر أن الغزالي صرح في الجزء الأول من
الاحياء ص ٣٧ بأن (من الناس من يستجيز وضع الحكايات
المرغبة في الطاعات ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق)
وهو يرى ان (هذه من نزغات الشيطان ، فان في الصدق مندوحة
عن الكذب) وهذا منه إسراف . بل هو نفسه أول من يؤخذ
على وضع القصص إن كان في وضعها مؤاخذة . ويكفي أن نعرف
أنه يذكر في كتبه من قصص الانبياء والصالحين ، ما لم يقيم على
صحته أي دليل . والرواية الكاذبة ليست أقل خطراً من التأليف !
وكما جاز الكذب في سبيل الغاية ، كذلك تجوز في سبيلها
الغيبية . وقد صرح الغزالي بجواز الغيبة في المواطن الآتية :

(١) التظلم . فان من ذكر قاضياً بالظلم ، والحياة ، وأخذ الرشوة ، كان مغتاباً عاصياً . أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم ، إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . ولا أدرى لم لا تُستباح أعراض الظالمين ؟

(٢) الاستعانة على تغيير المكروه ، وردّ العاصى الى منهج الطاعة
(٣) الاستفتاء . كما يقول للمفتى : ظلمنى أبى أو زوجى أو أخى ، وكيف طريقى الى الخلاص . والأسلم التعريض ، ولكن التعيين مباح بهذا العذر

(٤) تحذير المسلم من الشر . فاذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أو فاسق . وخفت أن تتعدى اليه بدعته وفسقه . فلك أن تكشف له بدعته وفسقه . متى كان الباعث لك الخوف عليه من سرية البدعة لا غير . واحذر أن يكون الحسد هو الباعث !

(٥) ان يكون المغتاب مجاهراً بالفسق ، بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ، ولا يكره أن يذكر به

وهنا يحتاط الغزالى : فيبين أنه ليس لك أن تغتاب المجاهر بفسقه الا بما يتجاهر به . فمن كان يتجاهر بشرب الخمر فليس لك أن تذكر زناه ، إذا كان يستره ، وهذا منه نظر دقيق

والغاية الشريفة ، تبيح النميمة ، كما أباحت الكذب والغيبه .
فلانسان أن ينم ، إذا كان في النميمة فائدة لمسلم ، أو دفع
لمعصية . كما اذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به ،
دفعاً للجاني عن المعصية ، ورداً لحق المأخوذ ماله . والنميمة في
هذا المثال اذا كانت ضراً في جانب الظالم ، فهي نفع في جانب المظلوم ،
وهو أولى بالإسعاف . بل دفع الظالم عن الظلم خير له في حاضره ،
وابعاد له عن الضر في مستقبله ، اذا كان مستعداً للاقلاع عن الفساد



الباب السادس

في الافق

تمهيد

كلمة أخلاق وجدت قبل الغزالي ، ففي الحديث بعثت لأتمم
مكارم الأخلاق . وقد عرف العرب فيما عرفوا عن اليونان كتابا
لأرسطو في الأخلاق . ووضع ابن مسكويه كتابا في صناعة
تهذيب الأخلاق ، ويوشك كتابه ذلك أن يكون كتابا في علم
الأخلاق ، على نحو ما كان يفهم اليونان ، ومن اقتفى أثرهم من
فلاسفة المسلمين

والذي يعينني الآن هو تحديد علم الأخلاق كما فهمه الغزالي .
وأقرر أنني بعدمراجعة كتبه لم أجده يساير من تقدمه من مجددى
الفلسفة اليونانية . وإنما يفهم من علم الأخلاق شرح طرائق
السلوك . وفقا لما سنته الشريعة السمحة ، ورسمه الصوفية ، ومن
نحوهم من الفقهاء . ولعلم الأخلاق فيما يريد أسماء متعددة :
فهو تارة يسميه علم طريق الآخرة ، وأخرى يسميه علم صفات
القلب ، وحينما يسميه أسرار معاملات الدين ، وربما سماه أخلاق

الأبرار، وهو اسم لبعض مؤلفاته . وأهم كتبه في الأخلاق نجد
سماه إحياء علوم الدين . فعلم الأخلاق عنده هو تكيف النفس
وردها الى ما رسمته الشريعة وخطه رجال المكاشفة من علماء
الاسلام ، ومن سبقهم من الأنبياء ، والصديقين ، والشهداء
وإذا كنا نجد ابن مسكويه مثلاً يستشهد كثيراً بكلام
ارسططاليس وجالينوس ، ويتحدث عن الرواقين ، ومن اليهم
من الحكماء ، فانا نجد الغزالي يؤيد أبحاثه بكلام ابن آدم ،
والتستري ، والمحاسبي ، ومن اليهم من الصوفية ، وربما نقل ماروي
عن عيسى ، وموسى ، وداود ، ومن اليهم من الأنبياء

تعريف الخلق

نرى الغزالي في ص ٥٦ من الميزان ، يعرف الخلق الحسن
بانه إصلاح القوى الثلاث : قوة التفكير ، وقوة الشهوة ، وقوة
الغضب . ونراه في ص ٦٤ منه يعرف الخلق الحسن بفعل ما يكره
المرء . ويستشهد بالحديث (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار
بالشهوات) وبالآية (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم
وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) ونراه يقول في ص ٤٧
« وأما حسن الخلق فبأن يزيل جميع العادات السيئة التي عرف الشرع

تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيتجنبها كما يتجنب المستقذرات ، وأن
يتعود العادات الحسنة ويشتاق إليها فيؤثرها ويتنعم بها «
وانما ذكرنا هذه التعاريف المهمة ، التي لا تغنى شيئاً في
التحديد ، لندل على ميل الغزالي الى الخطايات ، فقد لا تخلو منها
صفحة من كتبه في الأَخلاق

ولكنه في ص ٥٦ ج ٣ إحياء عرّف الخلق تعريفاً دقيقاً فقال
« الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة
ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر
عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً ، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ،
وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر
خلقاً سيئاً » ثم ذكر أن الخلق ليس هو فعل الجميل أو القبيح ،
ولا القدرة على الجميل أو القبيح ، ولا التمييز بين الجميل والقبيح .
وانما هو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن تصدر عنها
الإمساك والبذل . ثم قال : فالخلق اذن هو عبارة عن هيئة النفس
وصورتها الباطنة

الفصل الأول

تربية الخلق

ليس للغزالي رأى محدود في الفطرة البشرية : فهو تارة يراها
خالصة تصلح لكل شيء ، وتقبل كل صورة ، وتارة يراها أميل

إلى الخير منها إلى الشر . يدل على ذلك قوله « واذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل اليه والى القبائح ، فكيف لا تستلذ الحق لوردت اليه ، والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس الى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع ، يضاهي الميل الى أكل الطين ، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ، فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ، ومعرفته ، وعبادته ، فهو كالميل الى الطعام والشراب : فانه مقتضى طبع القلب ، لأنه أمر رباني ، وميله الى مقتضيات الشهوة غريب عن ذاته ، وعارض على طبعه » ص ٦٣ ج ٣

وما نريد أن نناقش هذا الرأي بأكثر من أن نلفت النظر إلى أن الميل إلى مقتضيات الشهوة لا يبعد كثيراً عن الميل إلى الطعام والشراب ، فهو جزء من الفطرة البشرية ، كما أن الميل إلى الخير جزء من الفطرة البشرية ، وإنما توجه النفس بمقتضى الظروف . فكما أن المرء لا يشتهي في كل لحظة أن يأكل أو يشرب ، فهو كذلك لا يشتهي في كل لحظة أن يكون خيراً أو شريراً ، وإنما يظهر ميله إلى الخير حين يوجد موجب الخير ، ويظهر ميله إلى الشر حين يوجد موجب الشر . بل قد تقوى الموجبات حتى تردّ الرشيد غويّاً أو تردّ الغوي رشيداً . ولولا صلاح الفطرة للخير والشر لما احتجنا إلى تربية الأخلاق

كيف يربى الخلق ؟

يرى الغزالي أن من الناس من ولد حسن الخلق بفطرته ، بحيث لا يحتاج إلى تعليم ، ولا إلى تأديب ، كعيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، عليهما السلام ، وكذا سائر الأنبياء . ولا يبعد فيما يرى أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب ، فرب صبي خُلق صادق للهجة سخياً جريئاً

وما أريد أن أناقش الغزالي في حكمه بأن الأنبياء لا يحتاجون إلى التعليم والتأديب ، ويكفي أن أذكر أن عصمة الأنبياء — في غير تبليغ الرسالة — كانت مما اختلف فيه العلماء ، وأن في القرآن شواهد كثيرة على غفران ما تقدم وما تأخر للنبي من الذنوب

والطريق إلى تربية الخلق فيما يرى الغزالي هو التخلق : أي حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود ، فعليه أن يتكلف فعل الجود : وهو بذل المال ، حتى يصير ذلك طبعاً له

والغزالي يهتم كثيراً برياضة النفس على ما يرغب المرء فيه من مكارم الأخلاق ، ويرى كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ، ويقول في ذلك :

« كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة . وكل فعل يجري على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب . ويعرف ذلك بمثال : وهو أن من أراد أن يصير الخدق في الكتابة صفة تسمية له حتى يصير كاتباً بالطبع ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجراحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الخدق ويواظب عليه مدة طويلة ، يحاكي الخط الحسن ، فيتشبهه بالكاتب تكلفاً . ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه ، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً ، كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً . فكأن الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً . ولكن الأول بتكلف ، إلا أنه ارتفع منه أثر الى القلب . ثم انخفض من القلب الى الجارحة ، فصار يكتب الخط الحسن بالطبع . وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقهاء . حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه ، فيصير فقيه النفس »

ومن هنا كان الغزالي يرى أن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ، لأنها بدون التكرار لا تصبح صفة للنفس . ولا معنى للشقاء المؤبد إلا أن تصير إحدى الرذائل صفة نفسية لأحد الناس

الفصل الثاني

اصطلاح تغيير الخلق

لهذا الفصل علاقة ظاهرة بالفصل الذي قبله ، فان تربية الخلق معلقة على ازالة الخلق السيء . ويرى الغزالي أن تغيير الخلق ممكن ويقول في ذلك تعليقا على قوله عليه السلام : حسنوا أخلاقكم « لو لم يكن ممكنا لما أمر به ، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواظم والترغيب والترهيب ، فان الأفعال نتائج الأخلاق ، كما أن الهوى الى أسفل نتيجة الثقل الطبيعي ، بل كيف ينكر تهذيب الانسان مع استيلاء عقله ، وتغيير خلق البهائم ممكن إذ ينتقل الصيد من التوحش الى التأنس ، والفرس من الجراح الى السلاسة »

ويظهر أن الغزالي شهد من يرى أن الخلق كالأخلق لا يمكن تغييره ، وإلا كان طمعا في تغيير خلق الله . وقد ذكر في ذلك أن خلق الله قسمان : قسم لافعل لنافيه ، كالسما واللكواكب وقسم فيه قوة لقبول كمال بعده ، إذا وجد شرط التربية . وتربيته قد تتعلق بالاختيار ، فان النواة ليست بتفاح ولا نخل ، ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلا بالتربية ، وغير قابلة لأن تصير تفاحا ، وانما تصير نخلا إذا تتعلق بها اختيار الآدمي في تربيتها

ويقول « فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلمة الغضب والشهوة من أنفسنا ونحن في هذا العالم عجزنا عنه ، ولكن لو أردنا قهرها وإسلاهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه »

أقسام الطبائع

وهو بعد ذلك يقسم الجبلات إلى سريعة القبول ، وبطيئة القبول ، باعتبار التقدم في الوجود ؛ ويقسم الناس في تغيير الخلق إلى أربع مراتب — الأولى : الانسان الغفل الذي لا يعرف الحق من الباطل والجميل من القبيح . وهو أقبل الأقسام للعلاج : فلا يحتاج إلا إلى مرشد وإلى باعث يحمله على الاتباع — الثانية : أن يكون قد عرف قبح القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح . بل زين له سوء عمله ، يتعاطاه انقياداً لشهواته ، واعراضاً عن صواب رأيه ، فأمره أصعب من الأول ، إذ تضاعفت علته . فيلزم (أ) قلع مارسخ فيه من تعوّد الفساد (ب) وصرف النفس إلى ضده — الثالثة : أن يعتقد أن القبيح حق وجميل . ويرى الغزالي أن هذا لا يرجي صلاحه إلا على الندرة ، إذ تضاعفت عليه أسباب الضلال — الرابعة : أن يكون مع وقوع نشوئه على الاعتقاد الفاسد ، وتربيته على العمل به ، يرى فضله في كثرة الشر ، واستهلاك

النفوس ، ويتباهى بفساده ، ويراه مما يرفع قدره . قال الغزالي :
وهذا أصعب المراتب وفي مثله قيل : من التعذيب تهذيب الذئب
ليتأدب وغسل الأسود لينيض . ثم قال : فالأول من هؤلاء
يقال له جاهل ، والثاني جاهل وضال ، والثالث جاهل وضال
وفاسق ، والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير
ولا يفوتنا أن نقرر أن الغزالي لا يريد من تغيير الخلق إلا
قهره وإسلاسه ، وقد صرح بذلك في قوله :

« وظنت طائفة أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية
ومحوها ، وهيئات ! فان الشهوة خلقت لفائدة . وهي ضرورية في الجبلتة ،
فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع
لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه
ما يهلكه وهلك . ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي
يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال . وليس المطلوب إمادة
ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذي هو وسط بين
الافراط والتفريط . »

كيف يعرف المرء عيوب نفسه ؟

يرى الغزالي أن من كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ،
فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج .
واذ كان أكثر الخلق جاهلين لعيوب أنفسهم ، حتى إن

أحدهم يرى القذى في عين أخيه ، ولا يرى الجذع في عين نفسه ،
فقد وضع الغزالي أربع طرق لمعرفة عيوب النفس

الاول — أن يجلس المرء بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس
مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه في نفسه ، ويتبع إشارته في
مجاهدته

الثاني — أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً فينصبه
رقيباً على نفسه ، ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه ،
وأفعاله ، وعيوبه الباطنة ، والظاهرة ، ينبهه اليه

الثالث — أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة أعدائه ،
فإن عين السخط تبدي المساوي . ولعل انتفاع الانسان بعدو
مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مدهن يخفي
عنه عيوبه

الرابع — أن يخالط الناس ، فكل ما رآه مذموماً عند
الخلق اتهم نفسه به . فإن الطباع متقاربة في اتباع الهوى ، وما
يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله ،
أو عن أعظم منه ، أو عن شيء منه . فليتفقد نفسه ويظهرها عن
كل ما يذمه من غيره

علامات حسن الخلق

يتحاکم الغزالی فی هذا الباب الى القرآن ، إذ أن الله تعالى ذكر فی كتابه صفات المؤمنین والمنافقین ، وهی بجملةا ثمره حسن الخلق ، وسوء الخلق . وبعد أن سرد جملة من الآيات قال « فمن أشكل علیه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض ، يدل على البعض دون البعض . فليشتغل بتحصيل ما فقده ، وحفظ ما وجده » ص ٧٤ ج ٣

والظاهر أنه لا يكفي دائماً أن يتحاکم المرء الى القرآن ، فقد تكون هناك خلة واحدة تحتاج الى تحرير ، إذ لا يدري المرء أهو مخطئ في التخلق بها أم مصيب . وقد تنبه الغزالی إلى هذه النقطة في غير هذا الباب ، وهو يرى ان المطلوب في علاج البخل مثلاً هو (الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية البعد عن الطرفين) ويقول « فان أردت أن تعرف الوسط فانظر الى الفعل الذي يوجب الخلق المحذور ، فان كان أسهل عليك وألذمن الذي يضاده ، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فزد في المواظبة على البذل .

فان صار البذل على غير مستحق ألد عندك وأخف عليك من الامساک بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الامساک . فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتيسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك من الالتفات إلى المال ، فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه ، بل يصير عندك كالماء ، فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج . ولا يترجح عندك البذل على الامساک « (١)

وفي هذا مغالبة للطبيعة البشرية ، وما أحسب خلق الكرم يتطلب أن يتساوى البذل والامساک ، وانما يحاول الغزالي أن يجعل الفضائل حركات فطرية للنفوس ، وهو أمل بعيد

الفصل الثالث

الطريبي إلى تهذيب الافعال

يتخذ الغزالي البدن مثالا للنفس : فكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تهديد القانون لحفظ الصحة ، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه ، فكذلك النفس : إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها ، واكتساب زيادة صفاتها . وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها . وكما ان العلة المغيرة لا اعتدال البدن ، الموجبة للمرض

لا تعالج إلا بضدها : فإن كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب ، علاجها بضدها : فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفاً . وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة ، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، بل أولى ، لأن مرض البدن يخلص المرء منه بالموت بخلاف مرض القلب فإنه يدوم بعد الموت أبد الآباد (؟) وكما أن كل مبرد لا يصلح لعدة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ، ويختلف ذلك بالشدة والضعف ، والدوام وعدمه ، وبالكثرة وبالقلة ، ولا بد من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك النقائص التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار . وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها ، أي ضعيفة أم قوية ، فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن ، وأحوال الزمان ، وصناعة المريض ، وسنه ، وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الذي يطب

نفوس المريدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص ، وطريق مخصوص ، ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم .
وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ،
فكذلك المرشد لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة
أهلكهم وأمات قلوبهم . بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد ،
وفي حاله ، وسنه ، ومزاجه ، وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبنى
على ذلك رياضته .

وهذه الطريقة تدل على بصر الغزالي بعلاج الأخلاق ،
وتدل من جانب آخر على تقدم الطب في ذلك الزمان ^(١)

وقد فصل طرائق التهذيب باختلاف الطباع ، ووضع بجانب
كل رذيلة علاجها الخاص . وقد علمنا من ذلك أنهم كانوا يعالجون
الكبر إذ ذاك بالسؤال . وهذا فيما أرى استشفاء من داء بداء ،
فقد يولد السؤال أمراضا في النفس تحتاج في اقتلاعها إلى مجاهدة
وعناء . ولكن الصوفية يبيحون ما لا يباح !!

(١) انظر ص ٦٤ ، ٦٥ ج ٣ احياء ٠ وص ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ من الميزان

الفصل الرابع

غاية الاصل

الخير هو ما تعتقد أنه خير ، والشر هو ما تعتقد أنه شر .
والسبيل الى هذه العقيدة هو وزن العمل بميزان العقل والشرع .
ولكن ماهى الغاية من عمل الخير ؟ وما هو الغرض من تجنب
الشر ؟

غاية الأخلق — فيما يرى الغزالي — هى السعادة الأخروية
وقد فصل هذا فى الفصل الأول من الميزان . ويقول فى ص ١١٧
من هذا الكتاب « إن السعادة الحقيقية هى الأخروية ، وما عداها
سميت سعادة ، إما مجازاً وإما غلطا ، كالسعادة الدينوية التى لاتعين على
الآخرة . وإما صدقا ، ولكن الاسم على الأخروية أصدق ، وذلك
كل ما يوصل الى السعادة الأخروية ويعين عليها . فان الموصل الى
الخير والسعادة ، قد يسمى خيراً وسعادة (!) ؟

وهذا يدل على أن الغزالي ليست له غاية اجتماعية : فالذى
يسعف مريضاً ، أو يغيث ملهوفاً ، أو يأسو جريحاً ، أو يواسى
فقيراً ، لايهمه شفاء المريض ، ولا إغاثة الملهوف ، ولا براء الجريح ،
ولا سدّ حاجة الفقير ، مادامت نيته قد خلصت فى عمله ، ووثق

بجزاء الآخرة! وكل سعادة ينتجها العمل الطيب في هذه الدنيا إنما هي عنده سعادة مجازية، وواجب المرء أن يفهمها كذلك. وله أن يعدّها سعادة نسبية، على معنى أن ما يوصل إلى السعادة الآخروية قد يسمى خيراً وسعادة!! وقد نص في ص ١٣٦ من الميزان على أن من يتجنب الفحشاء محافظة على كرامته لا يسمى عفيفاً، لأنه لم يقصد بعفته وجه الله، فكل عمله تجارة، وترك حظ لحظ يماثله!!

مناقشة قصيرة

ونسأل الغزالي سؤالين اثنين:

أولاً — اذا أسعفت مريضاً وكان لا يهملك بروه، لأن سعادتك ليست نتيجة لمسعاك في هذه الدنيا، وانما يهملك أن تصح نيتك فتثاب في أخراك، ألا تكون تاجرًا في غايتك الأخلاقية؟

ثانياً — إذا تركت الزنا توفيراً لكرامتك أو لصحتك، كيف لا تكون عفيفاً؟ ولماذا طلبت العفة، ودعا إليها الشرع؟
أليس ذلك لأن فيها حفظاً للصحة، وتوفيراً للكرامة؟
وإذا كنت تتخذ العقل مقياساً للخير والشر، فخبّرني أيجد العقل

ما يحكم به على ضرر الزنا وأنه شر ، أكثر من أنه مُؤدِّ بالصحة ،
ذاهب بالكرامة ؟

ونعود فنذكر ان الغزالي سخر ممن يرون السعادة الأخروية
في نعيم الجنة ، وما فيها من الحور والولدان ، وان نطق بذلك
الكتاب ، ورأى أن سعادة الآخرة هي رضا الله . أفلا يصح لنا
قياسا على هذا أن نعد الطامع في السعادة الأخروية عند إغاثة
الملهوف ، وإسعاف الجريح ، ينافي ما تسمو اليه الأخلاق ، وأن
واجب الرجل الخيّر أن يرى سعادته في سعادة من أغاثه وواساه ،
لا أن يلقى جزاءه على ذلك في الآخرة ، وإن لم تثمر أعماله في
الأولى ؟

ولا يفوتنا أن نقرر أن فهم الغزالي للغاية الأخلاقية على
هذا النحو جعله يخطئ في فهم كثير من أسرار الشريعة ، ففريضة
الحج مثلا يحسبها الغزالي نوعا من الرياضة الروحية ، فتراه يملأ
باب الحج من كتاب الإحياء بالأدعية والأوراد ، حتى لتجد
لكل خطوة يخطوها الحاج دعاء خاصا بها ، وحتى لتحسبه غفل
عن قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) اذ تراه يستكثر أن يحج
المرء مثلا لينتفع بموسم التجارة !

ونظرة صغيرة الى حرص الشريعة على وحدة المسلمين ،

ترينا السر في فرض الحج على من استطاع اليه سبيلا ، فالتجارة التي تنبه اليها الغزالي ثم استنكرها ، ليست شيئاً بجانب ما يستفيده المسلمون حين يتلاقى حجاجهم ، وينفض كل منهم أخبار قومه ليعرفوا ما يحيط بهم من المشا كل الدولية ، وليستعدوا لدرء ما قد يحيط ببعض ثغورهم من خطر . ولكن الغزالي يرى العمل كله في العبادة المجردة ، ويرى الجزاء أيضاً عبادة مجردة ، وكثيراً ما نص الصوفية على أن لذائد الجنة ليست مادية ، ولكنها تسبيح وتقديس وتهليل !

الفصل الخامس

هل تورث الأضداد ؟

قرر الغزالي حين تكلم في التربية أن قلب الطفل « جوهره نقيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة . وهو قابل لكل ما ينقش عليه ، ومائل إلى كل ما يمال به اليه . فان عود الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد في الدنيا والآخرة . وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك » ص ٧٧ ج ٣

وهذا يدل على أن الغزالي يرى أن الفطرة الإنسانية قابلة لكل شيء ، وأنه ليس لها قبل التربية أي لون . فالخير إذن يكتسب

بالتربية . والشريكتسب بالتربية . وليس للانسان بفطرته ميل خاص : لا الى الشر ، ولا الى الخير . وإنما يسعد أو يشقى بما يقدم إليه أبواه ومعالموه

ويؤيد هذا قوله في تهذيب الأخلق « وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وإنما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتمداً صحيح الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه : أي بالاعتیاد والتعليم تكسب الرذائل . وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً ، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلق والتغذية بالعلم » ص ٦٤ ج ٣

ولكننا نجد الغزالي يقرر في ص ١٢٧ من الميزان ، أن النسب الديني أمانة الديانة وحسن الخلق ، لأن العرق نزاع . ونجده كذلك يحض في تربية الطفل على أن تكون المرضع امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال « فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعجت طينته من الخبث ، فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث » ص ٧٧ ج ٣

وهذا صريح في الحكم بوراثة الأخلق ، إذ لا يمكن أن تعتبر الرضاعة نوعاً من الأدب والتدريب ، إذ كانت تسبق

الادراك والتميز . يضاف إلى هذا أنه يقرر أن الطفل قديشاهد عليه الميل إلى الحياء ، وأنه يجب استغلال هذه الغريزة فيه . ومن الواضح أنه لو كانت الفِطْرَ جميعاً خالصة من كل الميول ، لكان واجباً أن يغرس الحياء في الطفل بالتربية والرياضة ، لا أن ينمى ، إذ لا ينمى غير الموجود

ومما تقدم نرى للغزالي رأيين مختلفين في وراثته الاخلاق . فهو حين يقرر أن قلب الطفل جوهرة ساذجة خالية من كل نقش ، وقابلة لكل صورة ، يحكم بأن الأخلاق لا تورث . وحين يدعو إلى أن لا ترضع الطفل امرأة غير متدينة يحكم بأنها تورث ؛ فهل يمكن رفع ما بين هذين الأمرين من ظاهر الخلاف ؟

تفسير هذا البحث

الواقع أن الغزالي لم يعن بهذا البحث ، لذلك كان كلامه فيه متناقضاً وغير محدود . ولو أنه عنى به عناية خاصة لبيّن لنا أن الأخلاق تورث ، وأن هذه الوراثة لا تمنع من قبول الطفل لكل صورة . فالفطرة البشرية صالحة لكل غرس ، لأن الأخلاق التي يرثها الطفل من أبويه تولد معه ضعيفة ميسورة الاقتلاع ، بل الكهول يقدرّون على استئصال رذائلهم بالرياضة والمجاهدة ،

والطبائع التي يرثها المرء من أبويه لا تعاوده إلا عند خمود مزاياه
التي كسبها بنصح أساتذته ، أو تأثير بيئة صالحة ساقته إليها الأقدار
اذن لا تناقض في كلام الغزالي إلا من حيث الظاهر . فهو
يقول بوراثة الأخلاق ، في ثنانياً آرائه المبعثرة هنا وهناك ، وإن
كان يجعل للتربية السلطان الأكبر في تكوين النفوس



الباب السابع

في الفضائل

نتكلم في هذا الباب عن تحديد الفضيلة، وبيان أمهات الفضائل
ومالها من الفروع، ثم نذكر طائفة من الفضائل التي عنى بدرسها
الغزالي: كالصدق، والصبر، والتوكل، والجمول، وما إلى ذلك
مما تدور عليه حياة الافراد، وينبني عليه الاجتماع، ليرى
القارئ ما يسمو إليه في تصوّر المثل الاعلى للحياة

تحرير الفضيلة

لا يفرق الغزالي بين كلمة فضيلة، وكلمة خُلق، فهما عنده
عبارة عن هيئة النفس، وصورتها الباطنة
وأساس الفضيلة فيما يرى يرجع بعضه إلى ما أخذ عن ارسطو
وبعضه إلى ما أخذ عن أفلاطون. فهو يأخذ عن ارسطو نظرية
(التوسط) التي يسميها الاعتدال، فقوة الغضب مثلاً إن مالت
عن الاعتدال، إلى طرف الزيادة، سميت تهوراً، وإن مالت إلى
الضعف سميت جنباً، فأما إن ظلت وسطاً بين الزيادة والنقصان
فهي الشجاعة. فالمحمود هو الوسط، وهو الفضيلة، والطرفان
رذيلتان، كما يقول

ولا يجمد الغزالي على هذه النظرية حتى يعترض عليه بأن من الفضائل مالا وسط له ، بل يقرر أن العدل ليس له طرفان : زيادة ونقص ، بل له ضد واحد ، ومقابل واحد : هو الجور ويأخذ عن أفلاطون نظرية المماثلة ، أى مشابهة الله ، فإن الله فيما يرى أفلاطون : هو الوحدة التى تجتمع فيها وتتصالح جميع كمالات المخلوقات . والرجل الفاضل عند أفلاطون هو الذى ينظر إلى الله بلا انقطاع كما ينظر الفنان إلى الأتمودج . والغزالي يقرر أن المرء يقرب من الله بقدر ما يقرب من رسول الله . ومعنى ذلك أن الرسول جمع مكارم الأخلق ، وقد حضنا على أن نتخلق بأخلق الله ، ماعدا الكبرياء . فمشابهة الرسول واحتذاؤه عند الغزالي تماثل تماماً مشابهة الله عند أفلاطون

وأخذ أيضاً عن أفلاطون نظرية التوافق L,harmonie ويسمىها العدل . والتوافق عند أفلاطون هو تناسب القوى والملكات لتكمل فى المرء جوانبه الخلقية . وإليك ما يقول الغزالي فيما يشابه هذا المعنى « وكما أن حسن الصورة الظاهرة لا يتم مطلقاً بحسن العينين دون الأنف والشم والحد ، بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك فى الباطن أربعة أركان ، لابد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق . فاذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق ، وهى : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة

الشهود . وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث . أما قوة العلم فحسنها
وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب
في الأقوال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح
في الأفعال . فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة ، والحكمة
رأس الأخلاق الحسنة . وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها
وانبساطها في حدها تقتضيه الحكمة . وكذلك الشهوة حسنها وصلاحتها
في أن تكون تحت إشارة الحكمة ، أعني إشارة العقل والشرع «

ويجب أن نتنبه إلى هذه الكلمة الأخيرة ، وهي (إشارة
العقل والشرع) فإن الغزالي يدمج فيها التوافق والمماثلة معا ؛ أما
المماثلة فهي في لفظ الشرع ، وقد وضع لهذا أخلاق الرسول ممثلة
في القرآن . وأما التوافق فهو في لفظ العقل ، إذ يرجع كل
الملكات إلى طاعته . وانظر قوله « فلعقل مثاله مثال الناصح المشير
وقوة العدل هي القدرة ، ومثالها مثال المنفذ الممضى . والغضب هو
الذي تنفذ فيه الإشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد فانه يحتاج إلى أن
يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة «

والأمر كذلك في قوة العلم وقوة الشهوة . وقد نص في الميزان
على أن العدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب
واستشهد بالقول المأثور : بالعدل قامت الارض والسموات . وهذا
الترتيب الواجب خاضع للعقل بالطبع ، وهذا ما يراد بنظرية
التوافق

أمهات الفضائل

أصول الفضائل فيما يرى الغزالي أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل . وقد نص على أنه يعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ فى جميع الأحوال الاختيارية . ويعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة . ويعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى إقدامها وإحجامها . ويعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع

ولهذه الأصول فروع ، كما يرى الغزالي . فمن اعتدال قوة العقل يحصل : حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقابة الرأى ، واصابة الظن ، والتفطن لدقائق الاعمال ، وخفايا آفات النفوس وأما خلق الشجاعة فيصدر عنه : الكرم ، والنجدة ، والشهامة ، وكسر النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الغيظ ، والتودد .

وأما خلق العفة فيصدر عنه : السخاء ، والحياء ، والصبر ، والمساحة ، والقناعة ، والورع ، واللطافة ، والمساعدة ، والظرف ، وقلة الطمع

وقد نص في الميزان على أن الحكمة فضيلة القوة العقلية ،
والشجاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية ،
والعدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب (فليس
جزءاً من الفضائل ، بل هو عبارة عن جملة الفضائل ^(١))
وقد لحظ الغزالي أن في هذه الفروع شيئاً من الغموض ،
فكتب في شرحها ثلاثة فصول مطولة في الميزان ، وبين معها
كذلك ما ينشأ من الإفراط والتفريط ، من أنواع الرذائل ،
وسنرجع إليها في غير هذا الباب

الفضائل السلبية

في مقدورنا أن نقسم الفضائل الى إيجابية وسلبية : فالأمل
فضيلة إيجابية ، لأنه يحمل صاحبه على العمل في سبيل الحياة .
والزهد فضيلة سلبية ، لأنه يرضى صاحبه بما قد يكون عليه من
سوء الحال

وبعد أن نفهم هذا ننظر في الفضائل التي عُني بدرستها
الغزالي ، فنجدها في الأغلب فضائل سلبية : من ذلك فضيلة
الفقر ، وفضيلة الزهد ، وفضيلة التوكل ، وفضيلة الخوف ،
وفضيلة الحمول ، وفضيلة التواضع ، وفضيلة الجوع

ولم يُعْنِ الغزالي بشرح الفضائل الايجابية : كالشجاعة ،
والإقدام ، والحرص ، وما الى ذلك مما يحمل المرء على حفظ ما
يملك ، والسعى لنيل ما لا يجِد . فانه لا يكفي أن يسلم الرجل من
الآفات النفسية ، بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة . وخير
للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف . فان
الضعف شر كله ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون

الفضائل الفردية

ويمكننا أن نقسم الفضائل الى فردية واجتماعية . فالقناعة
فضيلة فردية ، لأنها تخص صاحبها بالذات . والأمانة فضيلة
اجتماعية ، لأن المرء يحتاج اليها حين يعامل الناس
والغزالي يُعْنِي في الأغلب بالفضائل الفردية ، حتى لتحسبه
يكتب مؤلفاته لأفراد يعيشون في عزلة وانفراد . فلو أنك أردت
أن تدخل في عالم السكون ، لوجدت لدى الغزالي من آداب الوحدة
والعزلة ما يقنعك ويرضيك . ولكنك لو أردت أن تدخل في عالم
السياسة ، لما وجدت لديه فكرة واحدة يمكن أن تكون نبراساً
يهتدى به الساسة من الوزراء والسفراء .

درجات الاضداد

وبعد معرفة أمهات الفضائل وما لها من الفروع ، يخطر
بالبال هذا السؤال : هل يرى الغزالي أن في مقدور المرء أن يصل
الى أعلى درجات الأخلاق ؟

ونجيب بانه يرى ذلك في مقدور المرء ، وانظر قوله
« وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق
ملكاً مطاعاً يرجع الخلق كلهم اليه ، ويقتدون به في جميع الأفعال . ومن
انفك عن هذه الجملة كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين
البلاد والعباد »

والدرجة العليا عنده هي درجة النبوة ، والصوفية فيما يرى
يقربون من هذه الدرجة ، واليك ما يقول عنهم في كتابه المنقذ
من الضلال :

« لو جمعوا عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار
الشرع من العلماء ، لينغيروا شيئاً من سيرتهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما
هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلاً : فان جميع حركاتهم وسكناتهم ،
في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور
النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به »

وأظن أننا هدمنا هذا الحكم من أساسه بما أسلفنا من نقد
أحوال الصوفية ، فان ما استحسنته الغزالي من أحوالهم لا يمكن

أن يكون مقتبساً من نورمشكاة النبوة ، وهل كانت النبوة يا هذا
وساوس وأضاليل ؟ تعالت النبوة عما تصفون !
أين مقياس العقل والشرع ؟ هاتيه ، هاتيه : فهو وحده فصل
الخطاب !

الفصل الأول

فضيلة الصديق

ابتدأ الغزالي الكلام على هذه الفضيلة بقوله تعالى (رجال
صدقوا ما عهدوا الله عليه) وبقوله عليه السلام (ان الصدق
يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، وان الرجل ليصدق حتى
يكتب عند الله صديقاً . وان الكذب يهدى الى الفجور ،
والفجور يهدى الى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند
الله كذاباً) ثم قال : ويكفي في فضيلة الصدق أن الله تعالى وصف
الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال : واذكر في الكتاب
إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . وقال : واذكر في الكتاب اسماعيل
إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً . قال : واذكر في الكتاب
إدريس انه كان صديقاً نبياً .

مراتب الصدق

للصدق فيما يرى الغزالي ستة معانٍ : صدق في القول ،
وصدق في النية والارادة ، وصدق في العزم ، وصدق في الوفاء
بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين . فمن
اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدّيق ، ومن صدق في شيء
فهو صادق بالإضافة الى ما فيه صدقه

الاول صدق القول . وهو أشهر أنواع الصدق . ولا يجوز
العدول عنه إلا للمصلحة . كتأديب الصبيان والنساء ومن يجري
مجراهم . وفي الحذر من الظامة ، وفي قتال الأعداء ، والاحتراس من
اطلاعهم على أسرار الملك . قال الغزالي « فمن اضطر الى شيء من ذلك
فصدقه فيه أن يكون نطقه لله فيما يأمره الحق به ، ويقتضيه الدين . فاذا
نطق به فهو صادق ، وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه . لأن
الصدق ما أريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء اليه . فلا ينظر الى
صورته ، بل الى معناه . نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل الى
المعارض ما وجد اليها سبيلا . فقد كان رسول الله اذا توجه الى سفر
ورّى بغيره . كيلا ينتهي الخبر الى الأعداء فيقصد . وليس هذا من
الكذب في شيء . قال رسول الله : ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال
خيراً ونمى خيراً . ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع :
من أصلح بين اثنين . ومن كان له زوجتان . ومن كان في مصالح

الحرب . والصدق ههنا يتحول الى النية ، فلا يراعى فيه إلا صدق النية
وارادة الخير »

الثانى — صدق النية والارادة ، ويرجع ذلك الى الاخلاص
وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات الا الله

الثالث — صدق العزم . فان الانسان قد يُقدّم العزم على
العمل ، فيقول : إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه ، أو بشرطه ،
فهذه العزيمة قد يصادفها فى نفسه وهي جازمة صادقة ، وقد يكون
فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة ،
فالصدق هنا عبارة عن التمام والقوة

الرابع — صدق الوفاء بالعزم ، فان النفس قد تسخو بالعزم
فى الحال ، إذ لا مشقة فى الوعد والعزم ، فاذا حقت الحقائق ،
وحصل التمكن ، وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمة ، ولم يحصل
الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه

الخامس — صدق الأعمال ، وهو أن تكون أعمال المرء
الظاهرة ، صورة لحالته الباطنة . بخلاف أعمال الرياء

السادس — الصدق فى مقامات الدين ، كالصدق فى الخوف
والرجاء والزهد والرضى والتوكل والحب ، لأن لأمثال هذه
الأمر مبادئ يطلق بظهورها الاسم ، ثم لها حقائق ، والصادق
من نال تلك الحقائق . . . وفى هذا المعنى شىء من الغموض

الفصل الثاني

فضيلة الصبر

يرى سقراط أن الفضيلة أساسها العلم . فتى علم الانسان
الخير فعله ، ومتى عرف الشر تركه . ويقرب رأى الغزالي من
هذا في أساس الصبر ، إلا أنه يشترط أن تصل المعرفة الى اليقين
حتى تثمر الصبر . واليك قوله في هذا المعنى « ترك الأعمال المشتهة
عمل يثمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو في مقابلة
باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات
ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة . فاذا قوى يقينه ، أعنى
المعرفة التى تسمى إيمانا ، وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق
الله تعالى قوى باعث الدين ، واذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف
ماتتقاضاه الشهوة ^(١) » وقال في موطن آخر « والمراد بالصبر العمل
بمقتضى اليقين ، إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ،
ولا يمكن ترك المعصية ، والمواظبة على الطاعة الا بالصبر ، وهو استعمال
باعث الدين فى قهر باعث الهوى ^(٢) » ويذكر إميل پوارك فى كتابه
cours élémentaires de philosophie ص ٣٤٣ أن العلم لا يكفى

(١) ٦٧ ج ٤ (٢) ٧٠ ج ٤

أساساً للفضيلة . فعرفة الواجب لا تكفي للقيام به . بل لابد من حبه
وارادته ارادة حرة ثابتة . وهذا التقييد يساوى ما اشترط الغزالي
من اليقين ، لأن المرء متى تيقن نفع شيء أحبه ، أو كاد يحبه .
ويرى الدكتور منصور فهمي والاستاذ عبده خير الدين أن المعرفة
التي يراها سقراط أساس الفضيلة لا بد أن تكون المعرفة الجازمة
التي تورث الارادة ثم التنفيذ . واذن فلا اعتراض على سقراط

أسماء الصبر

ويقرر الغزالي أن الصبر تختلف أسماؤه باختلاف ما يصبر
المرء عنه ، فهو جماع كثير من الفضائل ، أو هو نصف الايمان .
فان كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمي عفة . وان كان
في احتمال مكروه سمي صبراً ، وضده الجزع . وان كان في احتمال
الغنى سمي ضبط النفس ، وضده البطر . وان كان في الحرب سمي
شجاعة ، وضده الجبن . وان كان في كظم الغيظ والغضب سمي
حما ، وضده التذمر . وان كان في نائبة مضجرة سمي سعة الصدر
وضده الضجر . وان كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر . وإن
كان عن فضول العيش سمي زهداً ، وضده الحرص . وان كان
صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ، وضده الشره

درجات الصابرين

وللإنسان بالنسبة للصبر ثلاثة أحوال
الاولى - أن يقهر داعى الهوى ، فلا تبق له قوة المنازعة ،
ويتوصل الى هذه الحال بدوام الصبر
الثانية - أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكليمة منازعة
باعث الدين ، وهى أسوأ الأحوال
الثالثة - أن تكون الحرب سجالات بين الهدى والضلال

حكم الصبر

ويُقسم الصبر باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم.
فالصبر عن المحظورات فرض ، وعن المكروهات نفل ، والصبر
على الأذى المحظور محذور ، كمن تقطع يده أو يده يده فيسكت
ويصبر ، وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته ، فيصبر
عن إظهار الغيرة ، ويسكت على ما يجرى على أهله ، فهذا الصبر
محرم . والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة
في الشرع ، كمنظر الأجنبي الى امرأته

ضرورة الصبر

ويرى الغزالي أن المرء محتاج إلى الصبر في كل حال : فهو يحتاج إليه في السراء ، كما يحتاج إليه في الضراء . بل هو إليه في السراء أحوج ، فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية . والصبر هنا يكون بأن يراعى المرء حقوق الله في ماله بالإِنفاق ، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفي لسانه ببذل الصدق

والطاعة محتاج إلى صبر ، لأن النفس بطبعها تنفر من العبودية . وللصبر على الطاعة ثلاث أحوال ، الأولى قبل الطاعة ، وذلك تصحيح النية والإخلاص ، والصبر على شوائب الرياء ، والعزم على الإخلاص والوفاء . والثانية حالة العمل ، كي لا يفتر قبل الفراغ منه . والثالثة بعد انتهائه ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به ، والنظر إليه بعين العُجب

ويحتاج المرء إلى الصبر عن المعاصي ، وعلى الأخص التي صارت مألوفة بالعادة ، إذ تنضاف العادة إلى الشهوة . ثم إن كانت المعصية مما يسهل فعله كان الصبر عنها أثقل على النفس : كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة ، والكذب ، والمرء ، والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً ، والمزح المؤذى للقلوب

والصبر على أذى الناس فضيلة ، وأعظم منه الصبر على أنواع
البلاء : كهوت الأعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة
ويرى الغزالي أن توجع القلب ، وبكاء العين ، لا ينافي الصبر ،
لأن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الانسان إلى الموت
والذي كفى جميع الشهوات واعتزل الناس ، لا يستغنى عن
الصبر على العزلة والانفراد ، ويريد الغزالي بهذا أن يؤكد احتياج
المرء إلى الصبر في جميع الأحوال والأفعال

تحصيل الصبر

ويمكن تحصيل الصبر بإضعاف باعث الشهوة ، وتقوية
باعث الدين . ويضعف باعث الشهوة بتقليل مادته من حيث النوع
والكثرة ، أو قطع أسبابه ، أو تسلية النفس بمباح من جنس
ما يشتهي . ويقوى باعث الدين بأمرين : الأول إطاعه في فوائده
المجاهدة ، بالتفكير في الأخبار الواردة عن الصبر وعواقبه .
والثاني أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى حتى يمرن
على جهاده ومقاومته

افضل الثالث

فضيلة الخمول

الغزالي يسمي الخمول فضيلة ، ويحيل إلى أنه لافضل فيه !!
ولكن تسمية الغزالي هذه تدلنا عن شيء خاص يوضح رأيه
في الأخلاق : ذلك أنه حين دعا إلى الخمول ، لم يدع إلى التجرد
من الخصاص الذاتية التي توجب ذبوع الشهرة وبعد الصيت ؛
وقد خص الشهرة المذمومة بما يأتي من طريق التكلف . وهو
لا ينكر أن يشتهر المرء بعمله في غير جلبه ولا ضوضاء

وقد نبه بلطف إلى أن حسن السمعة قد يفسد المعلمين بنوع
خاص ، فقد يعود المعلم على كثرة الطلبة ، فيفتر نشاطه حين
يقولون . وفي هذا المعنى يذكر عن أبي العالیه انه كان إذا جلس إليه
أكثر من ثلاثة قام . ولم ينس الغزالي أن التجمهر حول الأمرء
فتنة لهم ، وذلة لتابعيهم ، فذكر في هذا المعنى كلمة جامعة لعمر
ابن الخطاب

ويقول الغزالي : فان قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء
والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ، فكيف فاتتهم فضيلة الخمول ؟ فأعلم

أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير
تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم فيه فتنة على الضعفاء ، دون
الأقوياء ، وهم كالغريق الضعيف اذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى
به أن لا يعرفه أحد منهم ، فانهم يتعلقون به فيضعف عنهم ، فيهلك معهم .
وأما القوى فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فيحييهم ويثاب على ذلك »
فالرجل الخير فيما يرى الغزالي هو الذي لا يعرف غير الواجب
ولا يهمله أقبل الناس عليه ، أم أعرضوا عنه ، لأنه بالواجب
مشغول

الفصل الرابع

فضيلة التوكل

كتب الغزالي عن التوكل أربعة وخمسين صفحة في الاحياء
وثلاث عشرة صفحة في كتاب الأربعين ، وسبعا وعشرين صفحة
في منهاج العابدين . وهو يبالغ في المنهاج أكثر مما يفعل في الأربعين
والاحياء ، فان كلامه في السكتابين الأخيرين واحد ، وان اختلف
في الايجاز والاطناب ، وكثيراً ما يحيل في الأربعين على الاحياء
وأول ما نلاحظه أن الغزالي اهتم بهذه الفضيلة ، حتى
احتاج إلى أن يعتذر عن تطويله في كتاب المنهاج ، إذ كان

التطويل يخالف شرط ذلك الكتاب . وهذا الاهتمام نفسه يوضح لنا جانباً من أهم الجوانب في فهمه للحياة ونقرر منذ الآن أن ما كتبته عن التوكل صريح في الدعوة إلى الرهينة ، وقطع العلائق مع الناس ، والتدرج على احتمال الظمأ والجوع ، والاعتناع بأن الموت من جملة الارزاق ؛ ونحن نعلم أن العلماء يجب أن يضربوا الامثال بأنفسهم للناس كما فعل عمر حين خرج بعد الخلافة يتجر في الأسواق ، ولكن الغزالي يقول « فالاهتمام^(١) بالرزق قبيح بذوى الدين ، وهو بالعلماء أقبح ، لأن شرطهم القناعة . والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه ، إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ، ولم يكن له سير بالباطن ، فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه أولى ، فانه تفرغ لله عز وجل ، وإعانة للمعطي على نيل الثواب » ص ٢٨٦ ج ٤

(١) ناقشني الاستاذ محمد بك جاد المولى يوم الامتحان فيما أخذته على الغزالي من تقييده الاهتمام بطلب الرزق ، وهو يرى أن « الاهتمام » هو القبيح ، فأما طلب الرزق فلا قبح فيه . ولكن يلاحظ أن الغزالي قابل الاهتمام بالقناعة ، والقناعة في طلب الرزق ليست فضيلة ، بل الفضيلة هي الاهتمام بالرزق . ولازلت أرى أنه لاعمى لأن يكون الاهتمام بالرزق قبيحاً بذوى الدين حتى يكون بالعلماء أقبح . ولكن عذر الغزالي أنه ينظر الى هذه المسألة نظرة صوفية كما قال فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار

ولو أنه دعا الحكومات إلى الأخذ بيد العلماء ، وإغنائهم
عن السعي إلى الرزق ، لتنحصر جهودهم في نشر العلم ، لكان له
قسط من الصواب . أما زعمه أن الكسب يمنع من السير بالفكر
الباطن ، وأن الأولى للعالم أن يكتفي بما يعطيه الناس ليعينهم
على نيل الثواب ، فهو رأى يهوى بصاحبه إلى الخضيض ، ولا
يتناسب مع مكانة العلماء

كرهة السؤال

ومع أن الغزالي يبيح للعالم السؤال ليعين المعطى على نيل
الثواب ، فإنا نجد في مكان آخر يقرر أن السؤال حرام في الأصل
وإنما يباح لضرورة ، أو حاجة قريبة من الضرورة ، لأن
في السؤال إظهار الشكوى من الله بإظهار الفقر ، ولأن السائل
يدل نفسه بسؤاله ، وليس للمؤمن أن يدل نفسه لغير الله ، ولأنه
يؤذي المستؤل : فقد لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب .
فإن بذل حياءً من السائل أو رياءً فهو حرام على الآخذ

ويمكن الحكم بأن الغزالي يحتاط أبلغ احتياط في إباحة
السؤال ، ولكن يبقى أنه من إهانة العلم والدين أن يُقبل المرء
بكايته على العبادة أملاً في أن يطعمه سواه ، فإنه لا يعقل أن

تكون نوافل العبادات مما يترك في سبيله طلب المعاش ، حتى
يباح لأجلها السؤال^(١)

حكم الكسب

والغزالي مع هذا لا يرى الكسب منافياً للتوكل في كل
حال ، فمن الخطأ فيما يرى أن « يظن أن معنى التوكل ترك الكسب
بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة ،
وكالحم على الوضم ، وهذا ظن الجهال ، فان ذلك حرام في الشرع ،
والشرع قد أثبت على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين
بمحظورات الدين ؟ » وقد بين أن الإنسان في سعيه إلى مقاصده
إما أن يكون جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ
نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضرار لم ينزل به كدفع

(١) قامت ضجة يوم الامتحان بسبب هذا الحكم ، وأنكر فضيلة الاستاذ
الشيخ عبد المجيد البان أن يكون الغزالي قال شيئاً من ذلك . وهذا يدل على أن الفطرة
الحالصة تستنكر السؤال .

وقد كتب فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار بهامش النسخة التي كانت عنده
ما يأتي : كانت قدم المعري أرسخ في الزهد من قدم الغزالي . فقد كان متحققاً بالزهد
عملاً واشتهر ذلك عنه اشتهاً لاشبهه فيه . وقد قال :

الامر لله قد أصبحت في دعة أرضي القليل ولا اهتم للقوت
وشاهد خالقي أن الصلاة له أعز عندي من دري وياقوتي
ومع هذا فرأيه في الزهد خير من رأى الغزالي ، لأنه كان مع إعجابه بالقناعة
والزهد يعيب على القانع الزاهد ان يكون عيشه من فضلات أهل اليسار . ويقول
ويعجنني دأب الذين ترهبوا سوى اكلهم كد النفوس الشجائح

الصائل والسارق ، أو لإزالة ضار قد نزل به : كالتداوى من المرض .

والنافع باعتبار الأسباب التي يجلب بها ثلاث درجات :
مقطوع به . ومظنون ظناً يوثق به ، وموهوم وهما لا تثق النفس
به ثقة تامة ، ولا تطمن إليه

والأولى كالأَسباب التي ارتبطت بها المسببات بتقدير الله
ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف ، كمن يرى الطعام موضوعاً
بين يديه وهو جائع ، ثم لا يمد إليه يده ، لأنه يرى السعى إلى
تناوله ومضغه تفويهاً للتوكل ، وهذا فيما يرى الغزالي جنون
« فانك إن انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون الخبز ، أو يخلق في الخبز
حركة اليك ، أو يسخر ملكاً ليضعه لك ويوصله إلى معدتك ، فقد
جهلت سنة الله . وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله
نباتاً من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع ، فكل ذلك جنون »
والتوكل في هذا المقام — كما نص الغزالي — لا يكون
بالعمل ، بل بالعلم ، ومعنى ذلك أنه لا يجوز لك ترك الأسباب ،
وإنما تعلم أن الله هو مسبب الأسباب

والثانية الأسباب التي ليست مُتَيَقِّنة ، ولكن الغالب أن
المسببات لا تحصل دونها ، وكان احتمال حصولها دونها بعيداً ،
كمن يترك الأَمْصار والقوافل ، ويسافر في البوادي التي ينذر

أن يطرقها الناس ، ويكون سفره من غير زاد ، فهو ليس شرطاً في التوكل ، بل استصحاب الزاد سنة الأولى ، ولا يزول التوكل به

وقد أسرف الغزالي حين تحدث عن هذا الموقف في المنهاج ، وانظر ماذا يقول : « فإن قلت : فهل تدخل البادية بلا زاد ؟ فأقول : إن كان لك قوة قلب بالله تعالى وثقة بالغة بوعده الله سبحانه ، فادخل ، وإلا كن كالعوام بعلائقهم » ص ٨٢

ولو أننا رجعنا الى ما وضعه من آداب المسافر لعلمنا أنه احتياط هناك ، فحث المسافر على أن يأخذ حاجته من الزاد ، ثم أوصاه بأن يأخذ قدرًا يوسع به على رفقائه ، فكيف يصبح المسافر بزاده في البادية من العوام ؟ ومن عسى أن يكون هؤلاء العوام المؤدبون ؟

وقد توقع الغزالي أن يسأل عن حمل رسول الله وأصحابه للزاد ، ولكنه تفضل فأجاب بأن ذلك مباح غير حرام ! ثم توقع أن يسأل : هل ترك الزاد أولى أم أخذه ، لمن قوى يقينه ؟ وأجاب في المنهاج بأن الترك أفضل ، وأنا لا أعلم لهذا الفضل أساساً غير التنسك الذي ينكره العقل ، ويأباه الدين !

ولم يفث الغزالي أن يذكر أن هذه المجازفة قد تكون إلقاءً
بالأيدي إلى التهلكة ، فأجاب بأن شرطها أولاً رياضة النفس
حتى تحتل الجوع أسبوعاً أو ما يقاربه ، وثانياً أن يكون المتوكل
بحيث يقوى على التقوت بالحشيش ، وما يتفق من الأشياء
الخشيسة ، إذ لا يخلو الأمر من أن يجد آدمياً في بحر الأسبوع
أو ينتهي إلى محلة ، أو قرية ، أو إلى حشيش يجزى به !
وأحب أن يذكر القارئ هذه الصورة الغربية ، فإن الغزالي
يدعو إليها جمهور المساميين !

وانظر كيف يقول : فان قلت فما قولك في القعود في البلد بغير
كسب . أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام
لان صاحب السياحة في البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف
كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما . بل لا يبعد أن يأتيه
الرزق من حيث لا يحتسب ، ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن الى
أن يتفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد
اليه ففعله ذلك حرام . وان فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة ،
فالكسب والخروج أولى له . ولكن ليس فعله حراما الى أن يشرف
على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . وان كان
مشغول القلب بالله غير مشرف الى الناس ، ولا متطلع الى من يدخل
من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلعه الى فضل الله تعالى واشتغاله بالله
فهو أفضل «

وما أدري كيف يتفق هذا مع قوله في نفس الصفحة : فإذا
التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة ، وجهل بسنة الله تعالى ؟
إلا أن يكون السؤال من الأسباب ، وهو سبب مهين !
وأحب أيضاً أن يذكر القارئ هذا التناقض في الجمع بين
التوكل وبين السؤال !! وكيف تقوم لأمة قائمة وهي تربي على
هذه الأخلق !!

ثم ما هو الفرق بين من يترك الطعام عند وجوده ، وبين
من يدخل البادية بلا زاد ؟ لا فرق إلا أن الثاني قد يجد من
يتصدق عليه ، أو يجد حشيشاً يفتات به ! ولو ذكر الغزالي أن
اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن الله كرم بني آدم وحملهم
في البر والبحر ورزقهم من الطيبات ، لما اختار لامرئ هذا الحظ
الخشيس ، ولما وضع هؤلاء المشردين ، في طبقة المتوكلين .

والدرجة الثالثة ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها الى
المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذي يستقصى التدبيرات الدقيقة
في تفصيل الاكتساب ووجوهه . يقول الغزالي « وذلك يخرج
بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذي فيه الناس كلهم ، أعنى
من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح » (١)

وإذا كان الاحتيال لكسب المباح مما ينافي التوكل ، فقد
انهدم أعظم ركن في بناء الممالك والشعوب . والغزالي يردد النفرة
من الحيلة لكسب الرزق ، وقد لاحظنا ذلك عليه حين تكلم
عما يجمل بالتاجر من أن لا يكون أول داخل في السوق ولا
آخر خارج منه

ونرى الحاجة ماسة إلى أن ننبه إلى أن فهم التوكل بهذه
الصورة خطأ صراح ، وليس علينا من حرج إذا رأينا الغزالي
من الخاطئين ، وما نريد أن نزيد !

مقامات التوكلين

والتوكل مقامات ثلاث :

الأول — مقام من يترك الزاد وهو يدور في البوادي ،
وانما كان هذا أفضل فيما يرى الغزالي لأن فيه تثبيتاً على الرضى
بالموت !

الثاني — مقام من يقعد في بيته أو في مسجد ، ولكنه
في القرى والأمصار . وهذا أضعف من الأول كما يقول

الثالث — من يخرج للكسب على الوجه الذي ارتضاه حين
تكلم عن آداب الكسب ، وهو أن لا يقصد به الاستكثار ،

ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته ، وعجيب والله أن يكون الكسب أدنى درجات المتوكلين .

توكل المعيل

غير أن الغزالي يخص تلك الحالة الشديدة بالمنفرد ، وقد قدمنا أنه يرضى له الاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق أما المُعِيل صاحب الأولاد فإنه لا يجوز له إلا المقام الثالث ، وهو توكل المكتسب ، كتوكل أبي بكر رضى الله عنه إذ خرج للكسب «فأما دخول البرارى وترك العيال توكلًا في حقهم ، أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلًا في حقهم ، فهذا حرام . وقد يفضى إلى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذًا بهم . بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله . فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكل في حقهم » وهذه مجازفة من الغزالي : إذ يرضى أن يعود الرجل أبناءه على الجوع ، وأن يمر بهم على الاعتداد بالموت جوعاً في سبيل الآخرة ، وقد يكونون لم يبلغوا سن التكليف

يقول الغزالي : وقد انكشف لك من هذا ان التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب ، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة ، والرضى بالموت إن تأخر الرزق نادراً ، وملازمة البلاد والأمصا وملازمة البوادي التي لا تخلو عن الحشيش ومايجرى مجراه . فهذه كلها أسباب البقاء

ولكن مع نوع من الأذى... الخ ؟
ونكرر ملاحظناه من أن فهم التوكل بهذه الصورة خطأ
مبين ، فانه يجر القادر على الطلب الى الرضى بالسؤال ، وانتظار
المصادفات ، والترحيب بالموت ، مع أن قطع أسبابه من أول
ما يعنى به بُناة الأَخلاق ✓

الادخار

ورأى الغزالي في الادخار عجيب ، إذ أفضل الحالات عنده
لمن حصل على مال يارث أو كسب أو أى سبب من الأسباب
أن يأخذ قدر حاجته في الوقت : فيأكل إن كان جائعاً ، ويلبس
إن كان عارياً ، ويشترى مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً ، ويفرق
الباقى في الحال . ولا يأخذ ، ولا يدخر ، إلا بالقدر الذى يدرك
به من يستحقه ويحتاج إليه ، فيدخره على هذه النية ! ✓

والذى يدخر لسنة ليس من المتوكلين أصلاً كما يقول !
والذى يدخر لأربعين يوماً فنادونها يحرم من المقام المحمود
الموعود في الآخرة للمتوكلين

ونحب أن يتأمل القارئ هذا الرأى في الاقتصاد ، فقد
أكثر المؤرخون من لوم العرب على اهمال هذا العلم ، وعدوا
الجهل به سبباً لسقوط المملكة العربية ، مع أنها كانت تسيطر

على أخصب بلاد العالم كمصر والعراق . ولكن كيف يحترم هذا
العلم في أمة يقول إمام الأئمة فيها: إن ادخار المال لأربعين يوماً
يحرم المرء من المقام المحمود!؟

وقد تفضل الغزالي فأباح للمعيل أن يدخر قوت عياله
لسنة!؟

وتفضل كذلك فأجاز للرجل أن يدخر الكوز وأثاث
البيت!!

والفرق عنده بين الكوز وغيره ، أن سنة الله لم تجر بتكرر
الأواني مع الحاجة إليها في كل وقت ، ولكن جرت سنته بتكرر
الأرزاق في كل سنة . وكان عليه أن يعرف أن الرزق إنما يتجدد
في كل سنة ، لمن يملك من المزارع والمتاجر ما يتجدد ريعه في كل
سنة . فيعجباً كيف يحيز التوكل إتلاف رأس المال !

آداب المتوكلين

- وضع الغزالي الآداب الآتية للمتوكل حين يخرج من بيته :
- (١) ان يغلق الباب ، ولا يستقصى في أسباب الحفظ ،
كالتماسه من الجيران الحفظ مع العلق ، وجمعه أغلاقاً كثيرة !
 - (٢) أن لا يترك في البيت متاعاً يحرص عليه السراق !

(٣) ما يضطر الى تركه في البيت ، ينبغي أن ينوى عند خروجه الرضى بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه !

(٤) إذا عاد فوجد المال مسروقاً فينبغي أن لا يحزن ، بل يفرح إذا أمكنه !

(٥) أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ . فان فعل بطل توكله ، ودل على تأسفه على ما فات !

(٦) أن يغم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله إذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالماً !

وما أدري ما الذى أنسى الغزالي أن يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوحاً ، وأن يعلق عليه لوحة مكتوباً فيها بخط واضح جميل : من أراد أن يأخذ شيئاً من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزى بما مكن صاحبه من صنع المعروف !!

وليس من التوكل بالطبع أن يتعقب المرء الجناة ، لينالوا على يد الوالى جزاء ما قدمت أيديهم . بل التوكل هو أن لا يبالغ المرء في أسباب الحفظ ، وأن يوطن النفس على ما يسرق من من متاعه ، وأن لا يحزن بل يفرح حين يسرق ، وأن يغم لأن هذا السارق المسكين عصى الله وتعرض لعذابه ، وأن يشكر الله على أن جعله من المظلومين ، ولم يجعله من الظالمين .

وأظرف ما في هذا الباب دعوة الغزالي الى أن يجعل الرجل ما سرق منه ذخيرة له في الآخرة، وإن أعيد إليه فالأولى أن لا يقبله !

توكل الخائف

يقرر الغزالي أن الضرر قد يعرض للخوف في النفس والمال. أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة، أو في مجارى السيل من الوادى، أو تحت الجدار المائل، أو السقف المنكسر، وكل ذلك فيما يرى منهى عنه، لأنه تعريض للهلاك بلا فائدة

وجملة القول أن أسباب الخوف إما مقطوع بها أو مظنونة أو موهومة، وترك الموهوم هو شرط التوكل، فالبالغة في الاحتياط تبعد المرء عن مقام المتوكلين (؟)

وهنا لا نرى بأساً من تحقيق مسألة أخطأ فيها الغزالي، فقد عدّ من الأسباب الموهومة السكى، وذكر أن رسول الله لم يصف المتوكلين إلا بترك السكى والرؤية والطيبة. ولو صح رأيه فيما استشهد به، لكان للرؤية والطيبة فائدة موهومة، مع أنه يستحيل أن يرى رسول الله قيمة لهذه الأسباب، وإنما يريد أن يضيف المكتوين والمتطيرين والراقين الى جملة الموسوسين ولو كان للسكى فائدة موهومة لما عد تركه من التوكل، وهو

يتعلق مباشرة بالصحة . وإِنما نهى عنه الرسول لأن ضرره كثير ،
ومحقق ، ونفعه قليل بل موهوم . وفوق هذا يجب أن نلاحظ أن
الأسباب الموهومة لم يكن تركها شرطاً في التوكل إلا لأن
في تركها تعويداً على المخاطرة ، وهي من صفات الأحياء ، فإذا
اختلفت الظروف ، وكانت رعاية الأسباب الموهومة نوعاً من
الحيطة ، فإني لا أفهم كيف تحرم المرء من المقام المحمود !

وإذا خاف الإنسان على ماله ، فله أن يغلق بيته ، وأن يعقل
بغيره ، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله إما قطعاً وإما ظناً ،
فلا ينقض بها التوكل ، كما لا ينقض بدفع العقارب والحيات
والسباع ، لأن الصبر على هذه جنون

توكل المريض

يقسم الغزالي الأسباب المزيللة للمرض إلى مقطوع به ،
ومظنون ، وموهوم ، ويقرر أن ترك المقطوع به ليس من التوكل
بل تركه حرام عند خوف الموت . وكان عليه أن يتنبه إلى أن
المرض متى وجد ، فالموت مخوف في كل حال ، لأن للمرض طفولة
وحدائة وفتوة ، فإن ترك وهو ناشئ أمسى وهو قوى متين ،
بل يجب حرب جراثيم المرض ، لأنها تبيض وتقرخ ، ثم تصبح
أعداء ألداء . فأما الموهوم فشرط التوكل تركه . وقد بينا ما تختلف

عليه هذه الحال . وأما المظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل ، وما إلى ذلك من الأسباب الظاهرة عند الأطباء ، فليس تركه من التوكل ، كما أن تركه ليس محظوراً كالمقطوع به ، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص . وهذا ما لا نوافق عليه الغزالي ، لأننا لا نفهم كيف يكون الحرص على الصحة مما يفضل اغفاله في بعض الأحيان

وإلى القارئ الأحوال التي يحمد فيها عنده ترك التداوى :

(١) أي يكون المريض من المكشفين ، وقد كوشف بأن

أجله انتهى ، وأن الدواء لا ينفعه (!)

(٢) أن يكون المريض مشغولاً بحاله وبخوف عاقبته

(٣) أن تكون العلة مزمنة ، والدواء الذي يؤمر به موهوم

النفع بالنسبة لعلمته

(٤) أن يقصد بترك التداوى استبقاء المرض لينال أجر

الصابرين ، أو ليمرن نفسه على الصبر الجميل !

(٥) أن يكون قد سبق له كثير من الذنوب ، ويرى المرض

تكفيراً إذا طال ؛ وكان قد عجز عن التكفير !

(٦) أن يستشعر في نفسه مبادئ البطر والطغيان بطول مدة

الصحة ، فيترك التداوى خوفاً من أن يعاجله زوال المرض ،

فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان !

ويحسن أن نلفت النظر الى أن هذه أسباب ضعيفة ، لا تقتضى ترك الدواء ؛ وهي في الوقت نفسه تدل على مبلغ حرص الغزالي على نزعته الصوفية ، فمن الواضح أن إيثارة المرض في سبيل الفرار من آفات العافية ، إنما هو عمل سلبى قليل الغناء . وماذا يضرنا لو حاربنا المرض ، ثم رجعنا بعد ذلك إلى حرب ما للصحة من الآفات ، لنخرج رجالا صحاح الجوارح والقلوب ؟

والغزالي فوق ما سلف يفضل كتمان المرض ، ولا يجيز اظهاره إلا في الأحوال الآتية :

(١) أن يكون الغرض التداوى ، فيذكر المرض للطبيب ، لا في معرض الشكاية ، بل في معرض الحكاية

(٢) أن يوصف المرض لمن يرجى منه الدعوة الى الصبر

(٣) أن يقصد باظهار المرض اظهار العجز والافتقار الى الله

قال الغزالي « فهذه النيات يرخص في ذكر المرض ، وانما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله حرام . ويعصير الاظهار شكاية بقريظة السخط واظهار الكراهة لفعل الله . فان خلا عن قريظة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه . لأنه ربما يوهم الشكايه ، ولأنه ربما يكون فيه تصنع

ومزيد في الوصف على الموجود من العلة . ومن ترك التداوى توكلًا فلا وجه في حقه للاظهار ، لأن الاستراحة الى الدواء أفضل من الاستراحة الى الافشاء »

وهذه الكلمة الأخيرة غاية في الحكمة والسداد

ملاحظات ثلاث

الأولى

جاء في ص ٢٩٢ ج ٤ إحياء مآنه « فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ؟ فأقول : المتوكل لا يخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل منها وكوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده ، وعصا يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت . وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله . وليس من شرط التوكل اخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده ، وإنما ذلك في المأكول وفي كل مال زائد على قدر الضرورة . لأن سنة الله جارية بوصول الخير الى الفقراء والمتوكلين في زوايا المساجد . وما جرت السنة بتفريق الكيزان والأمتعة في كل يوم وفي كل أسبوع »

وهذه الفقرة تدل واضح الدلالة على أن التوكل هذا نزع

صوفية ، وقد وضع الغزالي مقياساً لتقدير الأعمال هو العقل والشرع ، وما أحسبه يستطيع أن يثبت أن آية « وعلى الله فتموكلوا إن كنتم مؤمنين » خاصة بهذا الصنف من الناس ، بل التوكل

المأمور به في القرآن هو الاعتماد على الله مع مباشرة الأسباب
والإيمان بأنه لا يضيع أجر العاملين

الثانية

جاء في المنهاج ص ٨٠ ما نصه « فان قيل هل يلزم العبد طلب الرزق
بجمل ما ؛ فاعلم أن الرزق المضمون الذي هو الغذاء والقوام لا يمكننا
طلبه إذ هو شيء من فعل الله سبحانه للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد
على تحصيله ولا على دفعه (؛ !) » فان قيل : لكن لهذا الرزق المضمون
أسباب : فهل يلزمنا طلب الأسباب ؛ قيل له لا يلزمك ، إذ لا حاجة
للعبد إليه إذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب
ثم ان الله تعالى ضمن لك ضمناً مطلقاً من غير شرط الطلب والكسب ،
قال الله تعالى « وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها » ثم كيف يصح
أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه ، والواحد منا لا يعرف
سبب الرزق يتناوله من أين يحصل له ، فلا يصح تكليفه . فتأمل
وقد تأملنا كثيراً ، فلم نر هذه الحجج إلا خيالات في خيال !

الثالثة

أراد الغزالي أن يحض على التوكل فأمر بملاحظة الجنين
كيف وصلت سرته بسرة الأم لينتهي إليه الغذاء لما كان عاجزاً
عن الحركة والاضطراب ، فاما انفصل سابط الله على الأم الحب لترضعه
وهي راغمة ، وأدر له اللبن اللطيف ، إذ كان مزاجه لا يحتمل
الغذاء الكثيف . وانتقل الغزالي من هذا إلى بيان أن الكبير

قد كثرت أسباب الرفق به ، فبعد أن كان المشفق واحداً هو الام
أو الأب ، أصبح أهل البلد كافةً يشفقون عليه . ثم أخذ يبين
كيف ينتفع اليتيم بشفقة المسامين ، إلى آخر ما قال
وهذه الحجة على الغزالي لاله ، فانه إذا كان الله وصل سره
الجنين بسره أمه لضعفه عن الحركة ، وأدرّ عليه اللبن لعجزه عن
المضغ ، وسلط على أمه الحب لعجزه عن السعي ، فلماذا منحه
القوة إذن ، إذا كان لم يشأ أن يستغنى بها عن الناس ؟
فأما مقاله من أن كل واحد من أهل البلد إذا أحس بمحتاج
تألم قلبه ، ورق عليه ، وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته ، فهي
أمنية شعرية ، وليته ذكر أن العرب هموا بترك دينهم ليخلصوا
من الزكاة !

الفصل الخامس

فضيلة الاخلاص

ابتدأ الغزالي كلامه عن هذه الفضيلة بقوله تعالى (وما
أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) ثم ذكر جملة من الاحاديث
والأخبار . ثم قرر بعد ذلك أن كل حظ من حظوظ الدنيا استريح
إليه النفس ، ويميل إليه القلب ، قلّ أم كثير ، إذا تطرق إلى

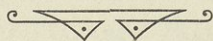
العمل تكدر به صفوه ، وزال به إخلاصه . ثم بين أنه قلما يخلو
فعل من أفعال المرء وعبادة من عباداته ، عن حظوظ وأغراض
عاجلة . وأن العمل الخالص هو الذى لا باعث عليه إلا طلب
القرب من الله

ومقياس الاخلاص فيما يرى الغزالي هو أن يشعر المرء بارتياح
حين يجد غيره يعمل عملا كان يريد أن يقوم به . نعرف هذا
من قوله :

« وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة هم العلماء . فان الباعث للأكثرين
على نشر العلم لذة الاستيلاء ، والفرح بالاتباع . والشيطان يُلدِّس عليهم
ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله ، والنضال عن الشرع الذى شرعه
رسول الله . وترى الواعظ يمين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه
للسلاطين . ويفرح بقبول الناس قوله ، وإقبالهم عليه ، وهو يدعى أنه
يفرح بما يسر له من نصرة الدين . ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن
منه وعظما وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه ، ولو كان
باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه هذا المهم بغيره . ثم الشيطان مع
ذلك لا يخليه ويقول : انما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه
الناس الى غيرك . إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب ، واغنامك
لقوات الثواب محمود . ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه
الامر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه فى الآخرة »

وقد انحصر الاخلاص عنده فى الأمور الدينية ، لغلبة هذه
الأمور عليه ، ولو كان الغزالي من الذين باشروا الحركات العامة ،

ووقفوا على الشئون الاجتماعية ، لذكر لنا ضروراً من الاخلاص
في نهوض الأفراد بأهمهم . وبين لنا كيف يتطرق الغرض إلى
الأعمال الاجتماعية ، وكيف تشقى الشعوب بأصحاب الأغراض ،
فليس الاخلاص وقفاً على الصلاة والزكاة والحج والصيام ، بل
الاخلاص فيما بين الرجل وبين أمته ، أوجب من الاخلاص فيما بينه
وبين ربه ، لأنه حين يحرم الاخلاص في العبادة لا يضر الله
شيئاً ، فان الله غنى عن العالمين . ولكنه حين يحرم الاخلاص فيما
يعمل لأئمة ، يُشقى بسوء غرضه ملايين من النفوس ، ثم يصبح
وهو منبوذ مهين . ولكن أكثر الناس لا يعلمون !



الباب الثامن

فـ

نوفى الرذائل

تمهيد

لم يضع الغزالي للرذيلة تعريفاً يخصصها بالذات ، وإنما هي عنده إفراط في الفضيلة أو تفريط . وهو يرى أن الإفراط في قوة العلم ينشأ عنه المكر والحقد والخداع والدهاء ، وأن التفريط فيها يصدر عنه البله ، والغمارة ، والحمق ، والجنون . وينشأ من الإفراط في الشجاعة التهور وما إليه من الجسارة ، والتبجح ، والاستشاعة والتكبر ، والعجب ، والبذخ . ويصدر من التفريط فيها الجبن ، والهلع ، والمهانة ، وصغر النفس ، والنكول . وأما الرذائل الصادرة من الإفراط أو التفريط في العفة ، فهي : الشره ، وكلال الشهوة ، والوقاحة ، والتخنث ، والتبذير ، والتقتير ، والرياء ، والتهتك والمجانة ، والعبث والشكاسة ، والملق والحسد والشماتة الخ . وألاحظ أن كلامه في هذا الباب غير واضح ، وقد لاحظت هو ذلك ، فأخذ يشرح أمثال الرذائل الآتية : الاستشاعة ،

الانفراك ، التخاسس ، البذالة ، الشكاسة ، الكزازة ، التحاشي ،
النكول ، الغمارة ، الخ

والأمر كذلك في الفضائل المتفرعة عن أمهات الأخلاق
وينبغي أن لا ننسى أن الغزالي يوصي دائماً بقلع الخلال الرديئة
وغرس مكارم الأخلاق ، ويسمى هذا بالتخلية ، والتخلية ، أي
إخلاء القلب من الشهوات ، ثم تحليته بكرام النزعات
وإذ كنا بينا رأيه في جملة من الفضائل الضرورية للأفراد ،
فإننا إذا كرون كذلك رأيه في طائفة من العيوب والردائل الكثيرة
الوجود ، ليتضح ما يتصوره من المثل الأعلى للحياة

إفصل الأول

رذيلة الغضب

الغضب قوة تتوجه عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل
وقوعها ، وإلى التشفى والانتقام بعد وقوعها . وهو فيما يرى
الغزالي ثلاث درجات : التفريط ، والإفراط ، والاعتدال
أما التفريط ففقد هذه القوة ، أو ضعفها . وهو مذموم
إذ من ثمراته قلة الانفة مما يؤنف منه ، كالتعرض للحرم والزوجة

والأمة، واحتمال الذل من الأخساء، وصغر النفس
وأما الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن
العقل والدين، فلا تبقى للمرء بصيرة، ولا نظر، ولا فكرة،
ولا اختيار

وأما الاعتدال فهو الحمود، وهو غضب ينتظر إشارة
العقل والدين: فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفئ حيث يحسن الحلم
قال الغزالي « فمن مال غضبه الى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف
الغيرة، وخسة النفس في احتمال الذال والضميم في غير محله فينبغي أن
يعالج نفسه حتى يقوى غضبه. ومن مال غضبه الى الافراط حتى جره
الى التهور واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه ليغض من سوره
الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين (١) »

أسباب

وأسباب الغضب فيما يرى الغزالي ترجع إلى ثلاثة أقسام:
الأول — ما هو ضرورة في حق الكافة كالتقوت، والملبس
والمسكن، وصحة البدن. وهذه ضرورات لا يخلو الانسان من
كراهة زوالها، ومن الغيظ على من يتعرض لها
الثاني — ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق كالجاه، والمال

الكثير ، والغلمان ، والدواب . وقد صارت هذه الأشياء محبوبة
بالعادة ، والجهل بمقاصد الأمور

الثالث — ما يكون ضروريا في حق بعض الناس دون
البعض ، وهذا يختلف باختلاف الاشخاص

علم

وقد وضع الغزالي طريقة لاستئصال رذيلة الغضب ، كما
وضع طريقة لتسكينه حين يشور
أما الطريقة الأولى فهي استئصال الغضب باستئصال أسبابه
وإذ كانت الأسباب المهيجة له هي الزهو ، والعجب ، والمزاح ،
والهزل ، والهزء ، والتعيير ، والمهارة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة
الحرص على حصول المال ، والجاه ، فينبغي للخلوص من الغضب
إزالة هذه الأسباب ، وهي في أنفسها رذائل تحتاج إلى رياضة ،
ورياضتها الرجوع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها ، وتنفر
عن قبورها ، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى
تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس . فإذا انمحت عن النفس فقد
زكت وتطهرت من هذه الرذائل ، وتخلصت أيضاً من الغضب
الذي يصدر منها

أما علاج الغضب بعد هيجانه فيرجع إلى العلم والعمل . والعلم ستة أمور :

(١) أن يتفكر في الأخبار الواردة في كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والاحتمال

(٢) أن يخوف نفسه بعقاب الله ، فيذكر أن قدرة الله عليه أعظم من قدرته على من يريد أن يمضي فيه غضبه

(٣) أن يحذر نفسه عاقبة العداوة ، والانتقام ، وتشمير العدو لمقابلته ، والسعي في هدم أغراضه ، والشتمات بمصائبه

(٤) أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب ، ومشابهة الغضببان للكلب الضاري ، ومشابهة الحليم للأنبياء

(٥) أن يتفكر في السبب الذي يدعو إلى الانتقام ، ويمنعه من كظم الغيظ

(٦) أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده

أما علاج الغضب بالعمل فهو أن تستعيد بالله من الشيطان الرجيم ، فإن لم ينفع ذلك ، فاجلس إن كنت قائماً ، واضطجع إن كنت جالساً ، واقرب من الأرض التي منها خلقت ، لتعرف ذل نفسك ، فإن لم ينفع ذلك فتوضأ ، أو اغتسل بالماء البارد

درء الشمر بالشمر

بعد أن بين الغزالي علاج الغضب ، وفضيلة الحلم ، وكظم الغيظ ، أخذ في بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام . وهو على الجملة لا يميز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسس بالتجسس ، ولا السب بالسب ، وكذا سائر المعاصي . ويجوز أن ينتصر المظلوم لنفسه بالكلام في غير تلك المنكرات ، ولكن الأفضل تركه ، فإنه يجر إلى ماوراءه ، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه . والسكوت عن الجواب لعلة أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه

ثم قسم الناس باعتبار الغضب الى أربعة أقسام : قسم سريع الوقود سريع الحمود ، وقسم بطيء الوقود بطيء الحمود ، وقسم سريع الوقود بطيء الحمود ، وهو شرهم ، وقسم بطيء الوقود سريع الحمود . قال الغزالي وهو الأحمد مالم ينته الى فتور الحمية والغيرة

وقد أوجب على صاحب السلطان أن لا يعاقب أحداً في حال غضبه لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيظاً على المعاقب فيكون متشفياً لغيظه ومريحاً نفسه من ألم الغيظ ،

فيكون صاحب حظ ، مع أن الواجب أن يكون انتقامه وانتصاره
لله تعالى لا لنفسه

ولا يفوتنا أن نذكر أن الغزالي كرر النصح بتجنب من
من يتبحجون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة
ورجولة . فان الفضل في الصفح الجميل

الفصل الثاني

رذيلة الحقد

هو فيما يرى الغزالي وليد الغضب ، فان الغضب إذا لزم
كظمه لعجز عن التشفي في الحال ، رجع إلى الباطن واحتقن فيه
فصار حقدًا ، ومعنى الحقد — كما نص على ذلك — أن يُلْزِم المرء
قلبه استئثار المغضوب عليه ، والبغضة له ، والنفور منه ، وأن
يدوم ذلك ويبقى

وللحقد ما يأتي من النتائج :

(١) الحسد ، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة

عن عدوك ، فتغتم للنعمة تصيبه ، وتسر للمصيبة تنزل به

(٢) أن تزيد على إضرار الحسد في الباطن فتظهر الشماتة بما

أصابه من البلاء

(٣) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك

(٤) أن تعرض عنه استصغاراً له

(٥) أن تتكلم فيه بما لا يحل: من كذب، وغيبة، وإفشاء سر

وهتك ستر

(٦) أن تحاكيه استهزاءً به، وسخرية منه

(٧) أن تؤذيه بضرب أو شبهه مما يؤلم بدنه

(٨) أن تمنعه حقه: من قضاء دين، أو صلة رحم، أو رد مظلمة

قال الغزالي « وكل ذلك حرام . وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ، ولا تخرج بسبب الحقد الى ما يعصى به الله ، ولكن تستثقله في الباطن . ولا ينتهي قلبك عن بُغضه حتى تمتنع عما كنت تتطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته ، أو الدعاء له ، والثناء عليه ، والتحريض على بره ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين ، وان كان لا يعرضك لعقاب (١) »

وللحقود عند القدرة ثلاثة أحوال: الأولى استيفاء الحق

من غير زيادة ولا نقصان وهو العدل، والثانية الاحسان بالعفو

والصلة وهو الفضل، والثالثة الظلم، وهو المنهى عنه

الفصل الثالث

رذيلة الحسد

هو احدى نتائج الحقد ، وله فيما يرى الغزالى أربع مراتب :
الأولى — أن يحب المرء زوال النعمة عن غيره ، وان كانت
لا تنتقل اليه ، وهذا غاية الخبث

الثانية — أن يحب زوالها إليه : لرغبته فى مثل تلك النعمة ،
كأن يرى عند غيره امرأة جميلة ويجب أن تكون له ، فطلبه
تلك النعمة لا زوالها ، ومكروهه فقدها لا تنعمُ غيره بها

الثالثة — أن لا يشتهى عينها لنفسه ، بل يشتهى مثلها ، فان
عجز عن مثلها أحب زوالها ، كى لا يظهر التفاوت بينهما
الرابعة — أن يشتهى لنفسه مثلها ، فإن لم تحصل فلا يحب زوالها
عنه ، وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان فى الدنيا ، والمندوب
إليه إن كان فى الدين

والرتبة الأولى مذمومة ، وتسمية الثانية حسداً تجوز ،
فإنما هى تمنى ما للغير ، وهو أيضاً مذموم لقوله تعالى (ولا تمنوا
ما فضل الله به بعضكم على بعض) والثالثة أخف من الاولى

أسباب وعلاجه

ويرى الغزالي أن أسباب الحسد ترجع إلى العداوة، والتعزز، والكبر، والعجب، والخوف من قوت المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس. وأكثر ما يكون الحسد بين الأمثال والأقران، والإخوة، وبنى العم، والأقارب، لأن كثرة الروابط تولد أسباب الحسد والبغضاء

وعلاج الحسد فيما يرى الغزالي ينحصر في تأديب النفس وتبصيرها بمخطر هذه الرذيلة، فإن الحاسد إنما ينكر في غيره نعمة أنعم الله بها عليه، ومن واجب الرجل أن يشغل بنفسه، وأن يحفظ وقته فلا يضيعه فيما لا يغني ولا يفيد، فليس أضيع من وقت يصرف في بغض نعمة لا يملك المرء زوالها عن سواه وقد قرر الغزالي أن الحسد يكاد يكون طبيعة في النفوس، وأن الأمل في السلامة منه بالكلية بعيد

الفصل الرابع

رذيلة العجب

للعالم بكمال نفسه في علم، أو عمل، أو مال، ثلاث حالات: الأولى — أن يكون خائفاً على زواله، ومشفقاً على تكدره،

أو سلبه من أصله ، وهذا ليس بمعجب
الثانية — أن لا يكون خائفاً من زواله ، ولكن يكون
فرحاً به ، من حيث هو نعمة من الله ، لا من حيث إضافته إلى
نفسه ، وهذا أيضاً ليس بمعجب

الثالثة — أن يكون غير خائف عليه ، بل يكون فرحاً به ،
مطمئناً إليه ، ويكون فرحه من حيث إنه كمال ونعمة ، وخير
ورفعة ، لا من حيث إنه عطية من الله ونعمة منه ، وهذا هو
العجب . فهو إذن استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان
إضافتها إلى المنعم . قال الغزالي : « فان النضاف إلى ذلك أن غلب على
نفسه أن له عند الله حقاً ، وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة
في الدنيا واستبعد أن يجرى عليه مكروها يزيد على استبعاده ما يجرى على
الفساق سمي هذا إدلالاً بالعمل . . . والادلال وراء العجب ، فلا مدل
إلا هو معجب ، ورب معجب لا يدل ، إذ العجب يحصل بالاستعظام
ونسيان النعمة دون توقع جزاء ، والادلال لا يتم الا مع توقع جزاء .
والعجب والادلال من مقدمات الكبر وأسبابه ^(١) »

أسباب وعمل

وإليك ما يعجب به الناس مع وصف العلاج :
الأول — أن يعجب المرء ببدنه : في هيئته ، وصحته ، وقوته ،
وتناسب أشكاله ، وحسن صورته ، وجمال صوته .

وعلاجه أن ينظر في مصير الوجوه الجميلة ، والأبدان الناعمة ،
وكيف يعبث بها التراب

الثاني — البطش والقوة ، وعلاجه أن ينظر ما حل بقوم عاد
الثالث — العجب بالعقل ، والكياسة ، والتفطن لدقائق
الأُمور ، من مصالح الدنيا والدين . وآفة هذا الاستبداد بالرأى
وترك المشورة .

وعلاجه أن ينظر في مصير عقله لو أصيب بمرض في دماغه
الرابع — العجب بالنسب الشريف . وعلاجه أن يعلم أنه
مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم ، وظن أنه يلحق بهم ،
فقد جهل

الخامس — العجب بنسب السلاطين الظلمة ، وأعوانهم ،
دون نسب العلم والدين .

وعلاجه أن يفكر في مخازيهم ، وفي مصيرهم يوم الحساب
السادس — العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم
والغلمان والعشيرة والأقارب والأَنْصار والأَتباع . وعلاجه أن
يتفكر في ضعفه وضعفهم ، وأنهم كلهم عبيد عَجْزة ، لا يملكون
لأنفسهم ضراً ولا نفعاً

السابع — العجب بالمال . وعلاجه أن يتفكر في آفات المال ،
وكثرة حقوقه ، وغوائله

الثامن — العجب بالرأى الخطأ ، كما قال تعالى : أمن زين له
سوء عمله فرآه حسنا . قال الغزالي « وعلاج هذا العجب أشد من غيره ،
لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ، ولا يعالج الداء
الذى لا يعرف ، والجهل داء لا يعرف ، فتعسرت مداواته جداً . . .
وانما علاجه على الجملة أن يكون متبهما لرأيه أبداً لا يغير به إلا أن يشهد
له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة (١) »
وقد بين الغزالي فوق ما سلف أن العجب مع الله يدعو الى
نسيان الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوب المرء لا يذكرها ولا يتفقدتها
لظنه أنه مستغن عن تفقدتها فينساها . وما يتذكره منها يستصغره
ولا يستعظمه ، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه ، بل يظن أنه يغفر له .
ومتى أُعجب المرء بأعماله عمى عن آفاتهما . ومن لم يتفقد آفات أعماله
كان أكثر سعيه ضائعاً ، فإن الأعمال الظاهرة اذا لم تكن خالصة
تقية عن الشوائب قلما تنفع . وإنما يتفقد عمله من يغلب عليه
الخوف والاشفاق دون المعجب ، فإنه يغير بنفسه وبرأيه ، ويأمن
مكر الله وعذابه ، إذ يظن أنه قد استغنى وفاز ، وهذا هو الهلاك
الصريح الذى لا شبهة فيه . كما قال الغزالي

الفصل الخامس

رذيلة الكبر

يقسم الغزالي الكبر : الى باطن وظاهر . فالباطن هو خلق في النفس . والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح . ويسمى الباطن الكبر ، والظاهر التكبر . والكبر فيما يرى ثمرة العجب . وينفصل عنه بأنه يتطلب متكبراً عليه ، بخلاف العجب ، فقد يعجب المرء بنفسه ، وماله ، وعمله ، ولو خلق وحده

والتكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام :

الاول — التكبر على الله وهو أخش أنواع الكبر ، ومثاله

ما كان من فرعون

الثاني — التكبر على الرسل ، ومثاله ما كان من قريش

و بنى اسرائيل

الثالث — التكبر على العباد ، بأن يستعظم المرء نفسه ،

ويستحققر غيره

أسباب التكبر

وللتكبر سبعة أسباب :

الاول — العلم ، وما أسرع الكبر الى العلماء !

الثانى — العمل والعبادة . ولكن العلماء والعُباد في آفة
الكبر على ثلاث درجات : الأولى ، أن يكون الكبر مستقراً
في قلب المرء فيرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع
ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه ، وهذا قد غرست
في نفسه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها . الثانية ، أن يظهر ذلك
على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الأقران وإظهار الإنكار
على من يقصّر في حقه ، بتصغير خده وتقطيب جبينه . قال الغزالي
« وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ، ولا في الوجه
حتى يعبس ، ولا في الخد حتى يصعر ، ولا في الرقبة حتى تطأطأ ، ولا
في الذيل حتى يضم ، وإنما الورع في القلوب (١) »

الثالثة ، أن يظهر الكبر على لسانه حتى يدعو إلى الدعوى
والمفاخرة والمباهاة وتركية النفس وحكاية الأحوال والمقامات

الثالث — التكبر بالحسب والنسب

الرابع — التفاخر بالجمال ، وأكثر ما يجري هذا بين النساء

الخامس — التكبر بالمال ، ويجرى هذا بين المملوك في خزائنهم

وبين التجار في بضائعهم ، وبين الدهاقين في أراضيهم ، وبين

المتجملين في ملابسهم ، وخبولهم ، ومرآكبتهم

السادس — التكبر بالقوة وشدة البطش

السابع — التكبر بالأتباع والأَنْصار والتلامذة والغلمان
وبالعشيرة والأقارب ، ويجرى ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود
وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين

قال الغزالي « وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً
وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به (١) »

وعلامات التكبر — كما ذكر الغزالي — تظهر في شمائل
الرجل : كصعْر خده ، ونظره شزراً ، وإطراقه برأسه ، وفي
جلوسه متكئاً . وتظهر في مشيته ، وتبختره ، وقيامه وعوده ،
وحركاته وسكناته ، وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله
وإزالة الكبر — فيما يرى الغزالي — فرض عين ، وهو
لايزول بمجرد التمني ، بل بالمعالجة ، واستعمال الأدوية القامعة له

علاجه

ولعلاجه طريقتان :

الأولى — قلع شجرته من مغرسها في القاب ، وذلك بمعرفة
المرء نفسه بالذلة ، وربّه بالعزة ، الى آخر ما قال الغزالي
الثانية — دفع عارض الكبر ، بدفع الأسباب الخاصة التي
يتكبر بها الإنسان على غيره ، وأنت لا تزال قريباً من تلك

(١) ٣٥٧ ج ٣

الأسباب السبعة التي توجب التكبر فيما يراه ، وقد وضع لكل سبب علاجاً خاصاً ، غير أنه لا يفترق كثيراً عما لخصناه له من علاج العجب ، فلنكتف به ، فإن أسباب هاتين الرذيلتين تكاد تكون واحدة ، وإن كانت الثانية نتيجة الأولى

الفصل السادس

آفات اللسان

وقد رأى الغزالي أن اللسان شير العثرات ، ولا بد للمرء من ضبطه ، فبسط القول في آفاته ، وكتب في ذلك نحو خمسين صفحة ، بين فيها حدود تلك الآفات ، وأسبابها ، وغوائلها ، وطريق الاحتراز عنها

وقد مهد لآفات اللسان بكلمة مطولة حض فيها على الصمت ، ثم قال في تبرير ما دعا إليه من الإخلاق إلى السكوت « فان قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ماسببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ ، والكذب ، والغيبة ، والنخيمة ، والرياء ، والنفاق ، والفحش ، والمرء ، وتزكية النفس ، والخوض في الباطل ، والخصومة ، والفضول ، والتحريف ، والزيادة ، والنقصان ، وايداء الخلق ، وهتك العورات

فهذه آفات كثيرة ، وهي سبباً إلى اللسان ، لا تنقل عليه ، ولها

حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ، ومن الشيطان . والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان ، فيطلقه بما يجب ، ويمسكه ويكفه عمالايجب ، فان ذلك من غوامض العلم »

ثم خشى أن يرميه القارئ بالأسراف فقال « ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر : وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة . أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر . وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به تضييع زمان ، وهو عين الخسران

فلم يبق إلا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام . وبقى ربع ، وهذا الربع فيه خطر إذ يمزج بما فيه إثم من دقائق الرياء ، والتصنع ، والغيبة ، وتزكية النفس ، وفضول الكلام ، امتزاجاً يخفى دركه ، فيكون الانسان به مخاطراً (١) »

وهذا من الغزالي إغراق في حب السلامة . ونحن ذاكرون خلاصة هذه الآفات ، لنعرف رأيه في طبائع الأفراد

الكلام فيما لا يعني

أما الآفة الأولى : فهي الكلام فيما لا يعني ، وحده — كما قال الغزالي — أن تتكلم بكل ما لو سكت عنه لم تأثم ، ولم تستضر به في حال ، أو مآل . ومن أمثلته فيما يرى أن يذكر المرء أسفاره وما رأى فيها من جبال وأنهار ، وما وقع له فيها من الوقائع

وما استحسنته من الأُطعمة والثياب ، وما تعجب منه من مشايخ
البلاد وحوادثهم .

ولم يتنبه الغزالي لخطر هذا المثال : فان الكلام عن الأسفار
والرحلات من الأمور ذوات البال ، والتحدث عن طبائع البلاد
وأخلاق الناس من المستحسنات . ونحن مدينون بما نعلم من
عادات الأمم وأخلاقها إلى هؤلاء الذين يتحدثون بما لا يعنيههم ،
فيقصون علينا ما رأوا في أسفارهم من الجبال ، والأنهار ، والأطعمة
والثياب ، وان عد الغزالي حديثهم ولو احترزوا تضييعاً للزمان .

ومما أصاب في عده مما لا يعني أن ترى انساناً في الطريق
فتقول من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فإن ذكر تأذي به
واستحيا ، وإن لم يصدق وقع في الكذب ، وكنت السبب فيه .
وكذلك سؤالك امراً عن المعاصي ، وعن كل ما يخفيه ويستحي منه ،
وسؤالك عما حدث به غيرك

والباعث على هذه الآفة — فيما يرى — هو الحرص على
معرفة ما لا حاجة به إليه ، أو المباشرة بالكلام على سبيل التودد ،
أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها

وأما علاج ذلك فهو أن يعلم أن الموت بين يديه ، وأنه
مستول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة

يقدر على أن يقتنص بها الحور العين ، فإهماله ذلك وتضييعه
خسران مبين

يقول الغزالي « هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل
فالعزلة ، وأن يضع حصاة في فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض
ما يعنيه، حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه ^(١) » (؟)

فضول الكلام

أما الآفة الثانية فهي فضول الكلام . وهو يتناول الخوض
فيما لا يعنى، والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة . فإن من يعنيه أمر
يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويقرره
ويكرره . قال الغزالي « ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر
كلمتين ، فالثانية فضول وهو مذموم وان لم يكن فيه اثم ولا ضرر ^(٢) »
وسبب هذه الآفة وعلاجها مماثلان لسبب وعلاج الكلام
فيما لا يعنى

الخوض في الباطل

وأما الآفة الثالثة فهي الخوض في الباطل . وعد الغزالي منه
حكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق ، وتنعم
الأغنياء ، وتجبر الملوكة ، ومراسمهم المذمومة ، وأحوالهم المكروهة

(١) ١٢١ ج ٣ — إحياء (٢) ١٢١

وقرر أن مثل هذا لا يحل الخوض فيه وهو حرام ، بخلاف الكلام فيما لا يعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى . ويدخل الغزالي في هذا الباب الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوم الطعن في بعضهم . ثم قال « وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتقنها فلذلك لا مخلص منها إلا بالاختصار على ما يعنى من مهمات الدين والدنيا (١) »

المراء والمجرال

أما الآفة الرابعة فهي المراء والجدال . والمراء كما حده الغزالي « هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه . إما في اللفظ ، وإما في المعنى ، وإما في قصد المتكلم »
وترك المراء فيما يرى يكون بترك الإنكار والاعتراض ، فكل كلام سمعه المرء صدق به إن كان حقاً ، وسكت عنه إن كان باطلاً أو كذباً . ولم يكن متعلقاً بأمور الدين . وليس له أن يطعن في كلام غيره بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة ، أو من جهة النظم والترتيب ، أو من جهة المعنى ، أو من جهة القصد : كأن يقول هذا كلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وإنما أنت فيه صاحب غرض . يقول الغزالي « وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدال . وهو

أيضاً مذموم ، بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة
لاعلى وجه العناد . أو التلطف في التعريف لاني معرض الطعن «
» وأما المجادلة فعبارة عن قصد إخمام الغير ، وتعجيزه ، وتنقيصه
بالتدح في كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه «

والباعث على المراء والجدال فيما يرى الغزالي هو الترفع باظهار
العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان
باطنتان للنفس يرجعان إلى السبعية والكبرياء

وأما العلاج فيكون بكسر الكبر الباعث له على إظهار
فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره (والسبعية في عبارات
المتقدمين هي القوة الوجدانية المشتركة بين الانسان وبين كبار
الحيوانات : فلا تتقام قوة سبعية لأنه من صفات الجمل ، والعفة
عن أكل ما يكسب الغير قوة سبعية لأنه من صفات الأسد ،
إذ لا يأكل غير فريسته)

الخصومة

أما الآفة الخامسة فهي الخصومة . وهي لجاح في الكلام
ليستوفى به مال أو مقصود . قال الغزالي « فان قلت : فاذا كان
للانسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه ، مهما ظلمه ظالم ،
فكيف يكون حكمه ، وكيف تدم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الدم يتناول
الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم ، ويتناول الذي يزوج

بالخصومة كلمات مؤذية لا يحتاج إليها في نصره الحجة وإظهار الحق .
ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره ...
فاما الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدود وإسراف وزيادة
لجأ على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام ،
ولكن الاولى تركه ما وجد إليه سبيلا »

وقدين الغزالي كيف توغر الخصومة الصدر ، وتهيج الغضب
حتى ينسى المتنازع فيه ، ويبقى الحقد بين المتخاصمين : فيفرح كل
واحد بمساءة صاحبه ، ويحزن بمسرتة ، ويطلق اللسان في عرضه .
فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات

التععر في الكلام

الآفة السادسة هي التععر في الكلام بالتشديق ، وتكاف
السجع والفصاحة ، والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات ، وما جرت
به عادة المتفصحين

والغزالي يفرق بين من يلقي خطبة ، وبين من يتكلم كلاماً
عادياً ، ولا حرج على الخطيب فيما يرى الغزالي أن يلجأ إلى
الحسنات اللفظية ، في غير إفراط أو إغراب ، فان المقصود من
الخطبة تحريك القلوب ، وتشويقها ، وقبضها ، وبسطها ، ولرشاقة
اللفظ في ذلك كله تأثير

أما المحاورات التي تجرى لقضاء الحاجات ، فالغزالي ينكر أن يكون فيها أى مظهر من مظاهر التكلف كالسجع أو غيره « بل ينبغي أن يقتصر المرء في كل شئ على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للغرض ، وما وراء ذلك تصنع مذموم »

والآفة الخلقية للتصنع فيما يرى الغزالي ترجع إلى الباعث عليه: وهو الرياء، وحب الظهور بالفصاحة ، والتميز بالبراعة

الفحش

الآفة السابعة هي الفحش ، وهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة . وهذه العبارات متفاوتة في الفحش ، وبعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد . وقد ذكر الغزالي من ذلك ما يجرى في ألفاظ الواقع وما يتعلق به ، والعيوب التي يستحيا منها كالبرص والقراع والبواسير ، ثم حض على استعمال الكناية في مثل تلك المواطن

والباعث على الفحش فيما يرى : إما قصد الإيذاء ، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق ، وأهل الخبث واللؤم

وقد عد الغزالي الفحش والسب والبذاء آفة واحدة ، وأضاف إليها (البيان) الوارد في حديث (البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق) وفسر هذا البيان بكشف ما لا يجوز كشفه ، أو المبالغة

في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف. أو البيان في أمور الدين ، وفي صفات الله أمام العوام ، إذ قد يشور من غاية البيان فيها شكوك ووساوس

اللعن

أما الآفة الثامنة فهي اللعن ، لحيوان أو انسان أو جماد ، وكل ذلك مذموم

وللغزالي في هذا الباب نظر دقيق : فهو لا يجيز أن تقول في رجل حي من اليهود مثلاً لعنه الله ، كما تقول لعن الله أبا جهل وفرعون ، فإنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله ، ولا يجيز أن يلعن المبتدع لأن معرفة البدعة غامضة « ومن بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه ان لم يكن فيه أذى لمسلم ، فان كان لم يجز . ولا يجوز لعن يزيد ، لأنه لا يجوز أن يقال إنه قتل الحسين أو أمر بقتله ما لم يثبت ذلك. فضلا عن اللعنة: إذ لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ، ولا يجوز أن يرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق » قال الغزالي « والمؤمن ليس بلعان ، فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الاشخاص المعينين »

المزاح

الآفة التاسعة هي المزاح ، والمذموم منه فيما يرى الغزالي هو

الإفراط. فيه ، أو المداومة عليه . فلك أن تمزح كما كان يمزح
رسول الله : فلا تقول إلا حقاً ، ولا تؤذي قلباً ، ولا تفرط
فيسقط وقارك

الاستهزاء

أما الآفة العاشرة فهي الاستهزاء . وحده كما قال الغزالي :
« الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك
وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة
والإيماء »

وقد نص الغزالي على أن هذا إنما يحرم في حق من يتأذى
به ، فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ،
كانت السخرية في حقه من جملة المزاح فله حكمه ، لأن المحرم
هو استصغار يتأذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير

إفشاء السر

الآفة الحادية عشرة هي إفشاء السر ، وهو مذموم لما فيه
من الإيذاء والتهاون في حق المعارف والأصدقاء ، يقول الغزالي :
وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم ان لم يكن فيه إضرار
وقد عد من حقوق الأخ على أخيه في كتاب الصحبة :
« أن يسكت عن إفشاء سره الذي استودعه ، وله أن ينكره وإن كان
كاذباً ، فليس الصدق واجباً في كل مقام ، فانه كما يجوز للرجل أن يخفي

عيوب نفسه وأسراره وان احتاج إلى الكذب ، فله أن يفعل ذلك في حق أخيه . فان أخاه نازل منزلته ، وهما كشيخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن «

الوعر الطائب

الآفة الثانية عشرة هي الوعد الكاذب ، وقد بين الغزالي أن ذلك يكون بالوعد على نية الخلف ، أو ترك الوفاء من غير عذر ، ولا جناح على من عزم على الوفاء فعنَّ له عذر فمعه

الكذب في القول واليمين

الآفة الثالثة عشرة هي الكذب في القول واليمين . وقد نص الغزالي على « أن الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره ، فان أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً ، وقد يتعلق به ضرر غيره . ورب جهل فيه منفعة ومصلحة . فالكذب المحصل لذلك الجهل يكون مأذوناً فيه وربما كان واجباً » وقد بينا المواطن التي أباح الغزالي فيها الكذب حين تكلمنا عن رأيه في الوسائل والغايات

الغيبة

الآفة الرابعة عشرة هي الغيبة . وحدَّها « أن تذكر أخاك بما يكزّه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص في بدنه ، أو نسبه ، أو في خلقه ، أو في فعله ، أو في قوله ، أو في دينه ، أو في دنياه ، حتى في ثوبه وداره ودابته «

وقد نص على أن التصريح ليس شرطاً في تحقق الغيبة، بل تكفي الإشارة، والایماء، والغمز، والهمز، والكتابة، والحركة، وكل ما يفهم منه المقصود

وللغيبة أسباب نذكر منها الأربعة الآتية:

(١) موافقة الأقران، ومجاملة الرفقاء، ومساعدتهم على

الكلام

(٢) ارادة التصنع، والمباهاة، كأن يرفع المرء نفسه

بتنقيص غيره

(٣) اللعب، والهزل، والمطايبة، وترجية الوقت بذكر

عيوب الناس

(٤) البراءة مما ينسب المرء إليه بتنقيص من يفعله

وقد تنبه الغزالي الى ما يقع فيه علماء الدين، فقد ينكرون

المنكر، ويقعون في صاحبه، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا،

مع أنه يكفيهم أن يشخصوا المنكرات، بلا تعرض للأشخاص،

وقد يفضبون لله حين يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر،

ولكنهم يذكرون أشخاصا بالسوء، فيحبطون ما يعملون

والغزالي يصف لعلاج الغيبة قراءة الآثار والأحاديث

الواردة في هذه الآفة. وقد عد سوء الظن غيبة القلب ونهى

عنه ، ثم ذكر المواطن التي تجوز فيها الغيبة ، وقد فصلناها أيضا
في الوسائل والغايات ، كما بينا رأيه في كفارة الغيبة في الخروج
من المظالم

النميمة

الآفة الخامسة عشرة هي النميمة . وهي كما يقول الغزالي
« كشف ما يُكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه ،
أو كرهه ثالث . وسواء كان الكشف بالقول ، أو بالكتابة ، أو بالرمز ،
أو بالإيماء . وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء
كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن ^(١) »

ولم يقتصر الغزالي على تقييح النميمة ، وعدها من آفات
اللسان ، بل وضع للرجل آداباً خاصة إزاء النمام . وهي :

(١) أن لا يصدقه ، لأن النمام فاسق ، وهو مردود الشهادة

(٢) أن ينهاه عن ذلك ، وينصح له ، ويقبح عليه فعله

(٣) أن يبغضه في الله ، فإنه يبغض عند الله

(٤) أن لا يظن بأخيه الغائب السوء ، فإن بعض الظن إثم

(٥) أن لا يحمله ما حكى له على التجسس ، والبحث لأجل

التحقق

(٦) وأن لا يحكى النميمة ، وإلا رضى لنفسه ما نهى النمام عنه

قال الغزالي « والسعاية هي النميمة ، إلا أنها اذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعاية » ثم نقل قول مصعب بن الزبير (نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه ، فاتقوا الساعي ، فلو كان صادقاً في قوله لكان لئيماً في صدقه ، حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة^(١) ولا شك في أن الغزالي يرضى حكم مصعب في قبول السعاية ، لأنه لم يعقب عليه ، ولم يذكر من أقوال السالف ما ينقضه . والسعاية والنميمة شيء واحد ، أو كأنهما شيء واحد ، فمن الواجب أن تكون آداب المرء واحدة إزاء النمامين والسعاة ، وهو ما نحسبه رأى الغزالي وان لم يصرح به

وفي الوسائل والغايات تجد ما يجوز من النميمة فيما يرى الغزالي

كلام ذي اللسانين

الآفة السادسة عشرة هي كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه وهو فيما يرى الغزالي نفاق « ولو دخل الرجل على متعادين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً لم يكن ذا لسانين ولم يكن منافقاً ، فإن الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة ، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء . نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر

فهو ذو لسانين وهو شر من النيمة ، اذ يصير تماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط ، فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام . وان لم ينقل كلاماً ، ولكن حسّن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعادة لصاحبه فهذا ذو لسانين . وكذلك اذا أثنى على أحدهما واذا خرج من عنده ذمه فهو ذو لسانين . بل ينبغي أن يسكت ، أو يثنى على المحق من المتعادين في غيبته وفي حضوره ، وبين يدي عدوه . . . ولا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كلام باطل ، فان فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغي أن ينكر ، فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه (١)»

المدح

الآفة السابعة عشرة هي المدح ، وهو منهي عنه في بعض المواضع ، وفي بعضها لا بأس به ، بل ربما كان مندوباً إليه ، وقد بين الغزالي أن لهذه الرذيلة أربع آفات في حق المادح ، واثنين في حق المدوح ، أما آفاتها في حق المادح فهي :

(١) أنه قد يفرط فينتهي به الإفراط إلى الكذب

(٢) وقد يدخله الرياء ، فانه بالمدح مُظهر للحب ، وقد لا يكون مضمراً له ، ولا معتقداً لجميع ما يقوله ، فيصير به مرأياً منافقاً

(٣) وقد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه

ويرى الغزالي أن هذه الآفة تنطبق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة : كقولك انه متق ، وورع ، وزاهد ، وخير ، وما يجرى مجراه

(٤) وقد يفرح المدوح ، وهو ظالم أو فاسق ، وذلك

غير جائز

أما آفاتها في حق المدوح فهي :

- ١ — أن المدح قد يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان
- ٢ — وأنه إذا أثني عليه بالخير فرح به وفتن ، ورضى عن

نفسه ، فقل جده

وبعد أن بين الغزالي آفات المدح ، دعا المدوح إلى أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر ، والعجب ، وآفة الفتور ، بأن يتأمل مافي خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فانه يعرف من نفسه مالا يعرفه المادح ، ولو انكشفت له جميع أسرارهم ، وما يجرى على خواطرهم ، لكف المادح عن مدحه ، وحضه كذلك على أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح

الغفلة

الآفة الثامنة عشرة هي الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام ، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين

ومن الأمثلة التي ذكرها الغزالي أنه لا يصح أن تقول
عبدى وأمتى ، لأننا جميعاً عبيد الله ، ونساؤنا جميعاً إماء الله ، بل
تقول غلامى وجارىتى الخ

السؤال عن صفات الله

الآفة التاسعة عشرة هي سؤال العوام عن صفات الله تعالى
وعن كلامه ، وعن الحروف ، وأنها قديمة أو محدثة . يقول الغزالي :
« وكل كبيرة يرتكبها العاصي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم ، لاسيما
فيما يتعلق بالله وصفاته ، وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والايان
بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث . وسؤالهم
عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله
عز وجل ، ويتعرضون لخطر الكفر ، وهو كسؤال ساسة الدواب عن
أسرار الملوك ، وهو موجب للعقوبة (١) »

الغناء

الآفة العشرون هي الغناء ، وتجد تفصيلها في البحث عن رأيه
في الفنون .

وإنه ليخيل إلى المرء أن الغزالي بالغ في آفات اللسان ،
ولكن هذه المبالغة ليست إلا نوعاً من الاحتياط ، وهي ليست
كبيرة على من يطمع في مكارم الأخلاق

الفصل السابع

رذيلة الرياء

إنك لترحم الغزالي حين تقرأ ما كتبه عن الرياء ، فانك تتصوره رجلا كاد يُجنّ من غلبة الجهال في عصره . ويكفي أن نلخص آراءه في هذا الباب لترى كيف كان الرجل يمقت الرياء ، ويبغض من أعماق صدره أعمال المرأئين

فما يمقته الغزالي أن يظهر المسلم النحول والصفار، ليدل بالنحول على قلة الأكل ، وبالصفار على سهر الليل . يقول الغزالي « ويقرب من هذا خفض الصوت ، واغارة العينين ، وذبول الشفتين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع هو الذي خفض صوته ، وضعف الجوع هو الذي أضعف من قوته »

ومن الرياء تشعيث الشعر ، وحلق الشارب ، وإطراق الرأس في المشى ، والهدوء في الحركة ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وعاظ الثياب ، وتشميرها إلى قريب من الساق ، وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب ، والتطويل في الركوع والسجود الخ

ولم يغفل الغزالي عن الشؤون الاجتماعية وهو يتكلم في الرياء فقد بين أن من الناس من يظهر التقوى والورع والامتناع عن

أكل الشبهات ، ليعرف بالأمانة فيوُلى القضاء ، أو الأوقاف ،
أو الوصايا ، أو مال الأيتام ، فياً أخذها . أو يسلم إليه تفرقة الزكاة
أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها . أو يودع الودائع فياً أخذها
ويجدها . أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج
فيخزل بعضها أو كلها الخ

وللغزالي في هذا الباب نظر بعيد : فهو يعين العيوب
الاجتماعية ، ويشرح عيوب العلماء والزهاد . ويظهر أن الناس
لعده كانوا يتخذون دين الله سُلماً لأغراضهم الخبيثة : من الفسق
والفجور ، ونهب الأموال

وأكرر ما قلته من أن الغزالي لا يفضب إلا حين يحارب
رذيلة يراها بعينه ، فكلامه في ذلك صورة لعصره ، وليس أثراً
لمطالعته في الكتب القديمة التي تصف عيوب الناس . وفي مقدور
الباحث أن يستخرج من كتاب الاحياء صورة واضحة للعلماء
والزهاد في عهد الغزالي . ولا أقول الحكام والأمراء ، لأنه تكلم
عن الحكومة لعده بضعف وفتور ، ولم يقاس السلاطين
شيئاً من لسانه الحديد !!

الباب التاسع

في

العلوم والفنون والتربية

نذكر في هذا الباب خلاصة آراء الغزالي في العلم والعمل والفرق بين علم الدنيا وعلم الآخرة ، وكيف يفهم علم الفقه ، وعلم التوحيد ، ثم نذكر بالإيجاز فهمه للفنون الجميلة ، ثم نبين المنهج الذي وضعه لتربية الأطفال ، وما يراه من آداب المعلمين والمتعلمين وكيف أهمل تربية البنات .

الفصل الأول

العلوم

تكلم الغزالي عن العلم والعمل ، وأيهما أفضل للمريد ، في مواطن كثيرة من مؤلفاته في الأخلاق وقد لاحظت أنه لم يكن مؤحِّد الرأي في هذا البحث ، فتارة يُقدِّم العلم على العمل ، وأخرى يقدم العمل على العلم . ويخيل إليّ أن نزعته الصوفية كانت سبب هذا التردد ، بل

وأحسب أيضاً أنه كان يدارى أهل عصره ، ويسايرهم في كثير من الشئون . فقد أراه يهتم بالكشف عن المقصود من العلم المفضل عن العمل ثم يراجع . ولو جرؤ قليلاً لين لنا أن العلم النافع لا يقتصر على معرفة العبادات ، وما إليها من دقائق التصوف والتوحيد ، بل هنالك البحث في طبائع الأشياء ، والتنقيب عن السر في أن الله سخر لنا ما في الأرض جميعاً

غير أنه لم يكذب ذكر قوله عليه السلام : فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر ، حتى اندفع يقول « ذلك العلم المقدم على العمل لا يخلو : إما أن يكون هو العلم بكيفية العمل ، وهو الفقه وعلم العبادات ، وإما أن يكون علماً سواه . وباطل أن يكون الاول لوجهين : أحدهما أنه فضل العالم على العابد ، والعابد هو الذي له العلم بالعبادة ، وإلا فهو عايب فاسق ، والثاني أن العلم بالعمل لا يكون أشرف من العمل ، لأن العلم بالعمل لا يراد لنفسه ، وإنما يراد للعمل ، وما يراد لغيره يستحيل أن يكون أشرف منه »

وكان المظنون بعد هذه المقدمة أن يعطى العلوم ما تستحق من التفضيل . ولكنه قسمها إلى قسمين : عملي ونظري . أما العملي فقد قدم أنه ليس أفضل من العمل ، وأما النظري فقد زينه جميعه ، ولم يستبق منه إلا ما يرجع « إلى العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وملكوت السموات والأرض ومعائب النفوس الانسانية والحيوانية من حيث إنها مرتبطة بقدره الله عز وجل لا من حيث ذواتها »

مناقشة قصيرة

من هنا يتبين أن واجب العابد لا يخرج عن العبادة والتفكير في المعبود ، وما إلى ذلك من معرفة الملائكة والكتب والرسل وملسكوت السموات والأرض إلى آخر مقال

ونسأل الغزالي : ما رأيه إذا توقف فهم الكتب السماوية على إدراك روح التشريع ، بفهم أصول القوانين ؟

وما رأيه إذا توقف فهم « عجائب النفوس الانسانية والحيوانية » على علم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ؟

وما رأيه إذا اقتضت معرفة الرسل درس التاريخ القديم والحديث ، لفهم ما قد يضطر إليه المشرعون من الرسل والانبياء في مختلف العصور ؟

وما رأيه إذا توقف إدراك مافى الكتب السماوية من سياسة الناس على علم الاجتماع ؟

لم ينكر الغزالي أهمية العلوم العقلية ، والنقلية ؛ ولكنه جعل بعضها وسيلة للعلوم النظرية ، والوسيلة بالطبع دون الغاية في الرتبة . وجعل بعضها علوما عملية ، وهي أيضا وسيلة للعمل ، فلا يعقل أن تكون أشرف منه !

فلم يبق من العلم المقدم على العمل إلا العلم بالله وملائكته
ورسله واليوم الآخر؛ وهو في ذاته علم شريف
ولكنني أحب أن أضع هذا السؤال: أيكون من يشغل
نفسه بهذا النوع من المعرفة أفضل أمام العقل والشرع ممن أفنى
عمره في درس الطب حتى استطاع أن يعرف كيف تُغزى الديدان
التي تحدث البول الدموي، والتي تهلك في كل عام ما يعد بالملايين؟
وهل يقدم محيي الدين بن عربي يوم القيامة، على من يقضى حياته
لافي التفكير في ملكوت الله، بل في غزو السل والسرطان؟

السك طريق اليقين

وبمناسبة العلم نثبت قول الغزالي في نهاية الميزان « ولو لم يكن
في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث لتنتدب
للطلب، فناهيك به نفعاً. إذ الشكوك هي الموصلة للحق، فمن لم يشك
لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال »
غير أن الغزالي لم يبين لنا مصير المرء إذا بقي في شكه، ولم
يهتد إلى اليقين. وما نحسب عصر الغزالي كان يسمح له بتحرير
هذه المسألة، وإن كانت غاية في الوضوح. فتي كان المرء حراً
في أن لا يثق بعقيدة قديمة مهما أجمع عليها الناس لاحتمال أن
تكون باطلة، فهو بالضرورة غير مسئول عن الوصول إلى

نتيجة معينة ، وإنما يسأل عن اعتقاد ما أدّاه إليه الدليل
ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن الغزالي نبه في عدة
مواطن من كتبه إلى أنه يجب على المعلم أن يتجنب كل ما يثير
الشك في نفوس الضعفاء ، وحض المرشد على الاقتصار مع العامة
على المتداول المألوف . ومعنى هذا أن الشك وإن كان سبيل
اليقين ، إلا أنه لا يستعمل إلا بمقدار . وهذا المنهج يبين لنا أن
الغزالي يحرص على وحدة الهيئة الاجتماعية ، وينفر من كل ما يقربها
من الانحلال . فللعلماء أن يشكوا وأن يختلفوا ، ولكن عليهم
أن يجنبوا العامة مواطن الشك والخلاف ، ومن هنا نفهم كيف
يرى أن الاجابة على بعض الأسئلة حرام . وسنعود إلى هذا
البحث عند الموازنة بينه وبين الفلاسفة المحدثين

علمم الفقه

وقد بلغ من إغراب الغزالي في التصوف أن جعل الفقه من
علوم الدنيا ، وألحق الفقهاء بعلماء الدنيا . وأنت تعلم قيمة الدنيا عنده!
ولكن أليس الفقه هو معرفة القوانين التي يُسّاس بها
الناس ؛ ليكون كذلك ؛ إذ ما قيمة هؤلاء الناس ؛ أليس الله أخرج
آدم من التراب ، وأخرج ذريته من سلالة من طين ، ومن ماء

دافق ، فأخرجهم من الأَصلاب إلى الأرحام ، ومنها إلى الدنيا
ثم إلى القبر ، ثم إلى العرض ، ثم إلى الجنة أو النار ؟ وإذ كان هذا
مبدأهم ، وهذه غايتهم ، وكانت الدنيا زادهم ، فاقيمة الفقه ، وما
هى أقدار الفقهاء ؟ أليسوا يفصلون فى خصومات لو عدلنا
ما احتجنا إلى أن يفصلوا فيها ، ولما كان لهم قيمة فى هذا الوجود ؟
هذا هو منطق الغزالى !

والحمد لله الذى رحم الشرق وأهله من علم الفقه ، ومن عليهم
بالقوانين الأجنبية التى يقدم إليها أصحابها آيات التقديس ، عند
الشروق وعند الغروب !

الفقه لا قيمة له فى نظر الغزالى ، لأنه يتعلق بسياسة هؤلاء
الناس المناكيد ، الذين اضطرونا بشرهم إلى الفقه والفقهاء ، والذين
لو عدلوا لما احتجنا إلى قاض ولا إلى فقيه ؛

صدقت يا مولانا الأستاذ ! ولكن اسمح لنا بأن نذكرك
بأن النبى كان فقيهاً ، وكانت شريعته فقها ، وهل الفقه شىء آخر
غير قواعد الفصل فى الخصومات ؟

وهل بلغ من هوان الدنيا عندك أن تحتقر لأجلها الفقه
والتشريع ؟

تركوا الدنيا لأصحابها يا جماعة الصوفية ! تركوا الدنيا

للمسلمين ، فان الله لم يبعث محمداً إلا ليمكن للمؤمنين في الأرض
ويجعلهم أئمة ، ويجعلهم الوارثين

علم التوحيد

وأما التوحيد فهو عند الغزالي وقف في جوهره على علماء
المكاشفة

وما هو علم المكاشفة ؟

هو علم لا نعرفه ، ولكن يقال إن سوء الخاتمة مُعَدَّ لمن
ليس له منه نصيب ! !

ويقال إن أدنى نصيب من هذا العلم هو التصديق به ،
وتسليمه لأهله ! ويقال كذلك إن أقل عقوبة من ينكره أن
لا يدوق منه شيئاً !

وما هي غاية هذا العلم ؟

غايته أن تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله وبصفاته الباقيات
التامات !

وأنا لا أدري سبب هذه الشهوة الغريبة التي تحمل علماء
الدين على البحث عن ذات الله وصفاته ، ولا أعلم كيف عميت
قلوبهم حتى اندفعوا يذكرون عن ذات الله وصفاته ما يجب أن
يتورع عنه المؤمنون !

يطمع الغزالي في معرفة ذات الله معرفة حقيقية ، وهذا والله
عين الجهل ، ونفس الضلال ! ويطمع كذلك في معرفة صفاته
التامات ، وهو الذي بلغ به الأدب مع الأشاعرة والمعزلة إلى
الاختلاف في صفات الله ، وفي كلامه ، وفي أفعاله ، وفي رؤيته
بالأبصار يوم القيامة ، إلى غير ذلك من المباحث التي لا يقدم
عليها غير عمى القلوب !

والظاهر أن الغزالي ومن على شاكلته لم يشهدوا المعركة
القائمة بين الهدى والضلال ، ولم يروا يوماً واحداً كيف تتصاول
العقول ، فإن البحث عن ذات الله وصفاته حمق وسفه ، وإنما سبيل
المؤمنين أن يتأملوا ما يحيط بهم من جلال الوجود ، وأن يبحثوا
في المراد من أن الله سخر لهم ما في الأرض جميعاً ، فانه ليس
للعاقل أن يترك الانتفاع بما تلمس يده ، وترى عينه ، لينغيب
في مجاهل من الظنون ، يسميها سفهاً علم التوحيد

وما أسفت لشيء أسفى لانحصار الافكار الاسلامية

« في معرفة معنى النبوة والنبي ومعنى الوحي ومعنى الشيطان ومعنى
لفظ الملائكة والشياطين وكيفية معاداة الشياطين للانسان ، وكيفية
ظهور الملك للأنبيا ، وكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملكو
السموات والأرض ، ومعرفة القلب وكيفية تصادم الملائكة والشياطين
ومعرفة الفرق بين لمة الملك و لمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة

والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ، ومعنى لقاء الله والنظر إلى وجهه ، ومعنى القرب منه والنزول في جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملائة الأعلى ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى في جوف السماء »

فان هذه فى الأصل أكثرها رموز^ه ظنها المسلمون حقائق ، فوضعوا لها ضروباً من التفسير والتأويل

والذى يطالع الكتب القديمة يرى جمهور الفقهاء أعلم بخريطة الآخرة منهم بخريطة الدنيا : فهم يعرفون من أنهار الجنة ما لا يعرفون من أنهار هذا العالم ، ويعلمون من أبواب جهنم ما لا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب ، ويدركون من نعيم الآخرة ما لا يدركون من معنى الملك والقوة فى هذا الوجود . وفى مقدور المرء أن يجد مئات الكتب فى وصف الحشر والنشر ، ولا يجد كتاباً واحداً فى تحديد المراد من الخلافة الإسلامية ، التى قامت بسببها آلاف الفتن ، ومئات الحروب

والغزالمى من الذين ساعدوا على بقاء هذه العماية ، فقد وضع الكتب المطولة فى كيفية العزلة ، ولما أراد أن ينقد الشؤون الاجتماعية ، وضع كتابه التبر المسبوك فى نصيحة الملوك ، فكان آية فى السخف والاضطراب

والى من نقاضى هؤلاء العلماء؟

نقاضهم الى القرآن : ففيه الدعوة الى الملك ، والى أن تكون
العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . وهل الأخلاق شئ آخر غير
حرب الذلة والقلة : فى الأفراد ، والجماعات ، والشعوب ؟
تقول هذا ونطالب كل مسلم بالحذر البالغ عند مطالعة كتب
المتقدمين ، فإن أكثرهم لم يعرف السياسة ، ولا شئون الاجتماع .
وإلا فآين غرر المؤلفات فى الأمور السياسية والاجتماعية ؟ وآين
البصر النافذ الى أعماق الحياة الدولية ؟ بل وآين الخبرة بالسريرة
الانسانية ، التى حسبوها لا تعدو طلاب الجنة من الزهاد ،
والعباد ، من كل راض بالفقر ، قانع بالسؤال ؟

الفصل الثانى

الفنونه

أباح الغزالى أن يُحِبَّ المرء لجماله ، فكان ذلك منه اعترافاً
بالحاسة الفنية ، التى يدرك بها الأديب ، والفنّان ، والفيلسوف ،
ما فى العالم من دقائق الجمال
وتجد فى حقوق الأخوة من هذا الكتاب أن الغزالى

ضرب المثل بالنظر الى الفواكه ، والأنوار ، والأزهار ، والتفاح
المشرب بالحمة ، والى الماء الجارى والخضرة . ومعنى هذا أن
الإنسان متى جاز له ، وبعبارة أدق ، متى أمكن له أن يحب
هذه الأشياء بلا نية سيئة ، فقد يمكن له أن يحب الرجل الجميل
بلا غرض خبيث

وشاهدنا فى هذه الفكرة ، هو أن الغزالي يؤمن بأن
للروح شيئاً من السلطان ، وله بعض الحقوق . فانه متى جاز أن
يحب الرجل لجماله ، والجمال فى الرجال كثير ، فقد أصبح للروح
الحق فى أن يتمتع بكل جميل ، متى استطاع أن يتحلى بالعفاف .
وهذا فيما أرى اعتراف من الغزالي بضرورة وجود الفنون الجميلة
لتتمتع بها الأرواح ، كما يجب أن تملأ الخزان والأسواق ، لتجد
الأجسام ما تحتاجه من الغذاء

ويحسن أن نذكر ما لاحظناه على الغزالي حين تكلم عن
التشريح : فقد قرر أنه يسير بفريق من العلماء إلى أن النفس تموت ؛
فإننا سألناه : هل يقضى ذلك بتحريم التشريح ؟ وبالطبع ليس عند
الغزالي جواب على هذا السؤال !

وكذلك نسأله الآن : يجوز أن يحب الشخص الجميل ،
ولكننا لا حظنا أن مثل هذا الحب قد يجر الى الفسوق . فهل

يحرم لذلك حب كل شخص جميل ؛ وليس للغزالي أيضاً على هذا السؤال جواب !

وانما قدمنا هذه الكلمة أمام رأيه عن الفنون الجميلة ، ليعرف القارئ أنه لم يذكر أصلاً من أصول الأخلاق يبرر رأيه في الفنون فقد أتى عليها جميعاً بالنقد والتجريح ، وإن لم ينكر (أن لله سرّاً في مناسبة النغمة الموزونة للأرواح) وأحسب أنه لو تروى قليلاً لعرف أن لله سرّاً فيما تحدث الفنون ، من أنواع الفتون

الشعر

رأى الغزالي في الشعر رأى عجيب ، فهو يرى أن مقصوده المدح والذم والتشبيب . وعلى فرض أن الشعر لا يقصد منه غير ذلك فهو مقصود حميد ، وإن قببح في بعض الأحوال وقد رأى الغزالي نفسه أمام أمر واقع : وهو أن الشعر أنشد بين يدي رسول الله ، ولكنه اعتذر عن هذا بأن المبالغات التي وردت في ذلك الشعر ، لم يقصد بها الكذب ، وإنما هي من صنعة الشعر ، فلا يقصد بها اعتقاد الصورة التي وضعها الشعراء .

ولا أدل على هوان الشعر في نظر الغزالي من قوله

« وأما الشعر فكلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، إلا أن التجرد له مذموم » ص ١٣١ ج ٣

والتجرد للشعر هو صنعة الشاعر الفنان ، الذي يريد أن يمثل عصره ، وقطره ، في صحيفة التاريخ . ومتى كان من المذموم أن يتجرد المرء للشعر ، فعنى ذلك أن الشعر لا يصح أن تخصص له حياة فرد من الأفراد . وإن جاز للناس أن ينشدوا أو ينشئوا ما حسن منه ، لانه ككل كلام : حسنه حسن ، وقبيحه قبيح !! ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن الأحاديث التي رواها الغزالي في ذم الشعر اقتضتها ظروف خاصة ، بدليل ما روى الغزالي نفسه ، مما يناقضها كل المناقضة ، فكان عليه أن يراعى تلك الظروف

الموسيقى

تكلم الغزالي عن الموسيقى باحتياط يدل على مبلغ رأيه في هذا الفن الجميل ، وهو يقسم الأصوات الموزونة باعتبار مخارجها إلى ثلاثة : ما يخرج من جفاد : كصوت المزامير ، والأوتار ، وضرب القضيب ، والطبل وغيره . وما يخرج من حنجرة حيوان ، وذلك الحيوان إما إنسان ، أو غيره : كصوت العنادل ، والقمارى ، وذوات السجع من الطيور . ثم يحكم بأن سماع هذه الأصوات

يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة ، إذ لا ذهاب إلى تحريم صوت العنديل ، وسائر الطيور ، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغي أن يقاس على صوت العنديل الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمي كالذي يخرج من حلقه ، أو من القضيب والطيب والدف

إلى هنا لا تجد شيئاً يعض من الموسيقى باعتبار أنها فن جميل ، ولكنك تجده يقول بعد ذلك « ولا يستثنى من هذا إلا الملاهي والأوتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها ، لاللذتها ، إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلد به الانسان ، وإنما حرمت لعلل ثلاث : إحداهما أنها تدعو إلى شرب الخمر ، فإن اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر ، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر . الثانية أنها في حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر بمجالس الأُنس بالشرب ، فهي سبب الذُّكْر ، والذُّكْر سبب انبعاث الشوق ، وانبعاث الشوق إذا قوى فهو سبب الإقدام . والثالثة الاجتماع عليها ، وهو من عادة أهل الفسق » ونجده بعد هذه الفقرة ينص على تحريم المزمار العراقي ، والأوتار كلها ، كالعود والصنج والرباب والبربط^(١) وكل ما يذكر بالخمر ، ومجالس الخمر ، فأما ما عدا ذلك فهو على الإباحة ، قياساً على أصوات الطيور

وما يزيد أن تناقش هذا الرأي ، ولا أن نبحث في الأساس

(١) البربط كجعفر هو العود معرب بربط : أي صدر الأوز لأنه يشبهه

الذى وضع عليه ، ولكن ننبه على أن فيه دلالةً على دقته في وقاية
الجهة الخلقية ، وحرصه على أن يظل المرء بعيداً عن مثار الشهوات
ونضيف إلى ما سلف من رأيه في الموسيقى ، أنه عدّ بيع
الملاهي من المنكرات التي يجب كسرها ، حين تكلم عن منكرات
الأسواق ، وعد من منكرات الضيافة سماع الأوتار وسماع
القيان ، وعد إعطاء المال للمطرب إسرافاً يجب على المحتسب
إنكاره ، ولم يعيّن مهنة المطرب ، فصالح لأن يطلق على المغنى
والموسيقار . ونص في ص ٣٢٧ ج ٣ إحياء على أن أصوات المزامير
والأوتار إذا ارتفعت في دار بحيث جاوزت الحيطان ، فامن سمعها
دخول الدار وكسر الملاهي ، ونص كذلك على أن للمرء الحق
في أن يكسر العود إذا رأى شخصاً يحمله
ومما سلف نعلم أنه لا يحرم الموسيقى مرة واحدة ، ولكننا
نعرف كذلك أنه لا يقيم لها وزناً باعتبار أنها فن جميل ، فن الواضح
أن لكل فن سيئات وحسنات ، وأن السيئات لا تقل قيمة
في نظر الفئان عن الحسنات ، إذ كان جمال الفنون يرجع أكثره
إلى ما تحدث في عشاقها من الجرأة على المؤلف ، وهو ما يخافه
الغزالي ويتوقاه

وهذا الذي يوجب كسر العود ، لا يبيح فيما نظن أن تبني

دار للموسيقى ، وأن يختار للتعلم فيها حسان الاصوات ، وصباح
الوجوه !

ولا ننس أنه لم يحرم الأوتار والمزامير إلا لأنها تذكر
بمجالس الخمر ، فلنذكر أنه يحرم من أجل الخمر هذه اللذة الروحية
البديعة . فهي عنده أم الخبائث ، وأصل المنكرات

الغناء

لم يفرد الغزالي باباً للموسيقى ، ولا للغناء ، وإنما أخذ رأيه
في هذين الفنين مما جاء في كتاب السماع والوجد ، وهو الكتاب
الثامن من ربيع العادات من كتب الاحياء
وأول ما يلفت النظر إلى رأيه في الغناء ، موافقته للشافعي
في أن الرجل الذي يتخذ الغناء صناعة لا تجوز شهادته ، لأن الغناء
فيما يرون من اللهو المكروه ، الذي يشبهه الباطل ، ومن اتخذ
صناعة كان منسوبا إلى السفاهة ، وسقوط المروءة !

ومتى كان الغزالي يرى أن محترف الغناء مردود الشهادة ،
فانه لا يرى للغناء قيمة ، وما ظنك بفرن يهبط بصاحبه إلى الحضيض ،
ويسقط عدلته بين الناس !

ونحن متى ذكرنا كلمة فن ، فانا نذكر بجانبها ما يجب على
الأفراد والحكومات من تشجيعه ، لأن الفن ليس ضرباً من

اللهو المكروه ، وإنما هو لهو مفروض ، تحتاجه الأرواح والأجسام ، فيما تحتاجه من صنوف الغذاء ، وليس محترف الغناء هو المردود الشهادة فقط فيما يرى الغزالي ، بل المغرم بالسمع والمفرط فيه هو أيضا سفيه ، ترد شهادته ، لأن المواظبة على اللهو جناية !

والفن — كما تعلم — لا حياة له إلا بوجود الهواة ، فلن يحسن الغناء إلا إذا وجد هواة الانشاد والسمع ، ومتى كان الإكثار من الانشاد ، والافراط في السماع ، جناية ، وكان من واجب كل فرد أن يحارب هذه الجناية ما استطاع ، فقد أصبح ما نسميه فن الغناء ، عرضة للانقراض ، ولا عبرة بما يقوله الغزالي من إباحتها إذا لم يوجد موجب التحريم ، فحسب الفن ضياعا أن تقول إنه مباح !

غناء المرأة والاصرد المحمّل

ولا يجوز الغزالي أن يسمع الغناء من امرأة لا يحل النظر إليها ، وتخشى الفتنة من سماعها ، وفي معناها الصبي الأمد الذي تخشى فتنته

وقد توقع الغزالي أن يسأل سائل : هل ذلك حرام في كل

حال ، حسماً للباب ، أولاً يحرم إلا حيث تخاف الفتنة في حق
من يخاف العنت ؛ وأجاب بأن هذه المسألة يتجاوزها أصلان :
أحدهما أن الخلو بالآجنبية ، والنظر إلى وجهها حرام ، سواء
خيفت الفتنة أو لم تخف ، لأنها مظنة الفتنة على الجملة . والثاني أن
النظر إلى الصبيان مباح ما لم تخف الفتنة ، فلا يلحق الصبيان
بالنساء في عموم الحسم ، بل يتبع فيه الحال ، وصوت المرأة دائر
بين هذين الأصلين . فان قسناه على النظر إليها وجب حسم
الباب ، وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق ، إذ الشهوة تدعو
إلى النظر في أول هيجانها ، ولا تدعو إلى سماع الصوت ، وليس
تحريك النظر لشهوة الماسة كتتحريك السماع ، بل هو أشد ،
وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة ، ولكن للغناء مزيد أثر
في تحريك الشهوة ، فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى
لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب ، كما لم تؤمر النساء باسترالات أصوات ،
فينبغي أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه ^(١)

موضوع الغناء

ولا مانع فيما يرى الغزالي من أن يكون في الغناء تشبيب
بوصف الخدود ، والأصدانغ ، وحسن القد ، والقامة ، وسائر

(١) انظر ص ٢٨٠ ج ٢ إحياء

أوصاف النساء ، بشرط أن لا يكون في امرأة معينة ، فانه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة إلا أن تكون زوجته أو جاريتها ، فان نزله على أجنبية فهو من العصاة . ويحرم على من كان في غيرة الشباب أن يستمع ، إذا كانت الشهوة غالبية عليه ، سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب (؟)

ما يباح من الغناء

وإليك جملة ما يباح فيه الغناء كما يرى الغزالي :

- (١) غناء الحجيح ، إذ يدورون في البلاد بالطبل والشاهيز والغناء
- (٢) ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو
- (٣) الزجريات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء . وهذا مباح في كل قتال مباح ، ومندوب في كل قتال مندوب ، ومحظور في قتال المسلمين وأهل الذمة
- (٤) أصوات النياحة في البكاء على الخطايا والذنوب
- (٥) السماع في أوقات السرور المباح ، كالغناء في أيام العيد ، وفي العرس ، وفي وقت الوليمة والعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ، وعند حفظه القرآن ، وعند قدوم الغائب
- (٦) سماع العشاق ، تحريكاً للشوق ، وتهيبجاً للعشق ، وتسليّة

للنفس . وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله ،
كمن يعشق زوجته ، أو سُرِّيَّتَه ، فيصغى إلى غنائها لتضاعف
لذته ، وكذلك إن غضبت منه جاريتها ، أو حيل بينه وبينها بسبب
من الأسباب ، فله أن يحرك بالسمع شوقه ، وأن يستشير به رجاء
لذة الوصال . فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده ، إذ لا يجوز
تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء

(٧) سماع من أحب الله وعشقه واشتاق الى لقاءه ، فلا ينظر
الى شئٍ إلا رآه فيه . وقد أطل الغزالي في هذه النقطة ، ثم قرر أن
اطلاق العشق على حب غير الله مجاز لا حقيقة ، لأن كل محبوب
سواه يتصور له نظير ، إما في الوجود وإما في الإمكان ، أما
جمال الله فلا ثانی له ، لا في الإمكان ، ولا في الوجود (؟)

أداب السماع

لا يعتد الغزالي بسماع من يطرب للغناء بمجرد الطبع ،
ولا حظ له في السماع إلا استلذاذ الألحان ، والنغمات ، إذ كان
هذا الذوق لا يتطلب لوجوده غير الحياة ، فلكل حيوان نوع
تلذذ بالأصوات الطيبة . ويسخر الغزالي ممن ينزلون المسموع على
حسب شهواتهم ، ومقتضى أحوالهم ، ويرى حالتهم هذه أخس
من أن تفرد بالبيان

ويعتدّ فقط بمن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله ، أو من عزب عن فهم ما سوى الله حتى عزب عن نفسه ، وأحوالها ، ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص في عين الشهود ، الذي يضاهي حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام (؟!)

وإذا سمع أحد هؤلاء «الموقنين» ذكر عتاب أو خطاب ، أو قبول أو رد ، أو وصل أو هجر ، أو قرب أو بعد ، أو تلهف على فائت ، أو تعطش إلى منتظر ، أو شوق إلى ورد ، أو طمع أو يأس ، أو وحشة أو أنس ، أو وفاء بالوعد ، أو نقض للعهد ، أو خوف من فراق ، أو فرح بوصول ، أو ذكر ملاحظة الحبيب ، ومدافعة الرقيب ، إلى غير ذلك مما تشتمل عليه الأشعار ، فلا بد أن يوافق بعضها حالا في نفسه ، فيورى زناد قلبه ولهوؤلاء وضع الغزالي الآداب الآتية

(١) مراعاة الزمان ، والمكان ، والإخوان : فليس له أن يسمع وقت شغل القلب ، ولا في شارع مطروق ، أو موضع كرهه ، أو مع قوم من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبتهم ، ومراعاتهم (٢) أن يكون مصغيا إلى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات إلى الجوانب ، متحرزا عن النظر إلى وجوه

المستمعين ، وما يظهر عليهم من أحوال الوجد ، مشتغلا بنفسه ،
ومراعاة قلبه

(٣) أن لا يقوم ، ولا يرفع صوته بالبكاء ، وهو يقدر على
ضبط نفسه . ولكن إن رقص أو تباكى بغير قصد الرياء فهو مباح
(٤) موافقة القيام في القيام ، إذا قام واحد منهم في وجد
صادق من غير رياء وتكلف ، أو قام باختياره من غير وجد ،
وقامت له الجماعة ، فلا بد من الموافقة ، رعاية لأدب الصحبة

وهناك أدب خامس وضعه الغزالي خاصا بالشيخ المرشد ،
وهو ملاحظة المريدين ، فينبغي أن لا يسمع في حضورهم ، إذا كان
فيهم من لم يدرك من الطريق الا الأعمال الظاهرة ، ولم يكن له
ذوق السماع ، أو رزق ذوق السماع ، ولكن فيه بقية من الحظوظ
والالتفات الى الشهوات ، والصفات البشرية ، أو كسرت شهوته ،
وأمنت غائلته ، وانفتحت بصيرته ، واستولى على قلبه حب الله ،
ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ، ولم يعرف أسماء الله وصفاته ، وما
يجوز عليه وما يستحيل

الرقص

وقد رأينا الغزالي يبيح الرقص ، ولكن أى رقص ؟ هو
مايجرى في مجالس الغناء الذى قصد به الحث على العمل للآخرة ،

وما نحسبه يمنع أن يرقص الرجل في مجلس تغنيه فيه امرأته أو جاريتها. وعلى كل حال فلنسجل هنا أن الرقص والغناء يجب فيما يرى الغزالي أن يكونا بعيدين كل البعد عن مثار الشهوات. وما نريد أن نفصل أثر هذا التحرُّج في حياة الأُمم، وإنما ننبه فقط على أن الغزالي يضع حول الشهوة أسواراً من حديد، ولا تُخرج الاخلاق عنده إلا رجالاً مملوئين بالحيطة، قد بُغِضت اليهم بسيمات الحياة، وقاما ينجح هؤلاء في ميدان الحياة، لأن التنسك باب الحمود

النفس والتصوير

أراد الغزالي أن يذم (الطب، والحساب، واللغة، والشعر، والنحو، وفصل الخصومات، وطرق المجادلات) بسبب ما تورث من الكبر، فلم يزد على أن قال (وهذه بأن تسمى صناعات أولى من تسمى علوماً^(١))

إذن الصناعات دون العلوم، وإنما كان الطب والحساب الخ من الصناعات؛ لأن العلم فيما يرى الغزالي هو ما يوصل إلى الآخرة، وما يخص الدنيا فهو صناعة. وقد نص على أن من الصناعات ما هي مهمة، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب التمتع والترين في الدنيا) من أجل ذلك حض المسلم على أن يشتغل بصناعة مهمة،

(١) انظر ص ٣٥٢ ج ٣

ليكون بقيامه بها كافيًا عن المسامين مهمًا في الدين . ثم قال
« وليجتنب صناعة النقش والصبغة ، وتشيد البنيان بالجص ،
وجميع ما تزخرف به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين ^(١) »
وقد عدّ بيع أشكال الحيوانات المصورة في أيام العيد لأجل
الاطفال منكرًا يجب إزالته « والصور التي تكون على باب الحمام أو
داخل الحمام يجب إزالتها على كل من يدخله ان قدر ، فان كان الموضع
مرتفعًا لاتصل اليه يده فلا يجوز له الدخول الا لضرورة ، وليعدل الى
حمام آخر ، فان مشاهدة المنكر غير جائزة . ويكفيه أن يشوه وجهها
ويبطل به صورتها ^(٢) »

« ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة
الحيوان . . . وأما الصور التي على الثمارق ، والزراي المفضرة ، فليس
منكرًا . وكذا على الاطباق والقصاص ، لا الأواني المتخذة على شكل
الصور ، فقد تكون رءوس بعض المجامر على شكل طير فذلك حرام
يجب كسر مقدار الصورة منه (؟) »

على أن كلمة الغزالي لم تكن واحدة فيما يخص البناء والزخرفة ،
فقد رأيت كيف بين أن تشيد البنيان ، وكل ما تزخرف به الدنيا ،
كرهه ذوو الدين ، ومع هذا قال بعد « وفعل ذلك ممن له مال كثير

(١) ٧٩ ج ٢ (٢) وضع فضيلة الاستاذ الشيخ النجار بهامش نسخته ما يأتي :
لعل الشيخ محمد صائم الدهر الذى شوه وجه أبى الهول وغيره من الصور وجعل أكبرهمه
ذلك قد سرى اليه هذا الفكر من إحياء الغزالي وقد رأيت في بلبك صورًا في الرواق
المحمول على الاعمدة وهى مشوهة ، وقيل لنا إنها شوهت من أيام دخول العرب ذلك
البلد . وشاهدت كذلك صورة البعل وهو معبود أهل ذلك البلد قديمًا مشوهة ، وهو
وجه انسان بصورة أسد

ليس بحرام ، لأن التزيين من الأغراض الصحيحة . ولم تزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه الا مجرد الزينة فكذا الدور «

وإذا كان التزيين من الأغراض الصحيحة ، فكيف تكون صناعته غير مهمة ^(١) ؟

ملاحظة هذا السبوت

ونرى مما سلف أن النقش مكروه ، وأنه لا يجوز تصوير الحيوان ، ولا حرج في استعمال النمارق والزرابي المصورة ، بصورة الحيوانات طبعاً ، لأنها موضوع الاستثناء . ويظهر أنها استثنيت لان الصور فيها ستصير ممتحنة بالاستعمال ، وعلى الأخص الاطباق والقصاع . وهو يتبع في هذا الرأي جمهور الفقهاء ، إذ يرون التصوير داعياً الى الوثنية . وقد نهوا عما يذكر بعبادة الأوثان ولا يفوتنا في ختام هذا الباب أن ننبه إجمالاً على أن الغزالي لم يعن بتربية الأذواق ، وهذه الآراء التي قدمناها له في الفنون الجميلة تدل على إهماله هذا الجانب من بناء الأخلق

ومما يلاحظ أنه يغشي بعض النظرات الدقيقة في كتبه

(١) كأنى بالرجل ينظر الى الشيء نظرة علمية فيقضى بعدم الضرر فيه اذا كان على حد الاعتدال وينظر اليه نظرة صوفية فيكرهه . وهذا منشأ الاضطراب الظاهري لان الكلام في موضوعين عهد الوهاب النجار

بأخبار وأقاصيص تحمل القارئ حملاً على ازدراد الزهادة ،
والإخلاق إلى الجمول . وأكرر ما قلته غير مرة من أن في هذا
الشطط شيئاً من الحق ، وهو الحرص البالغ على السلامة ، والنفرة
المطلقة من مواطن الشبهات . ولهذا القصد محاسن ، وفيه كذلك
كثير من العيوب

الفصل الثالث

تربية الأطفال

يسمى الغزالي رياضة الصبيان ، وكانت كلمة صبي في التعابير
القديمة تقابل كلمة طفل في التعبير الحديث ، وكذلك كلمة صببية
تقابل كلمة طفلة أو فتاة ، فكانوا يقولون دخلت عليه صببية حسناء
كما نقول فتاة حسناء
وقد سبقت كلمتنا في وراثته الأخلاق عن فطرة الأطفال ،
فلا نعود إليها الآن ، وإنما نذكر المنهج الذي وضعه الغزالي لتربية
الطفل ، وهو تفصيل لما أجمعناه في واجبات الآباء
فيجب على الوالد فيما يرى :

(١) أن يؤدب ابنه ، ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق ،
ويحفظه من قرناء السوء

(٢) وأن لا يحب إليه الزينة ، وأسباب الرفاهية ، لئلا يعود
التنعم : فيعسر تقويمه بعد ذلك

(٣) وإذا رأى فيه مخائل التميز ، وبوادر الحياء ، فليعلم أن
عقله مشرق ، وأن تنمية هذه الباكورة من عزم الأمور ،
وأحسن ما تنمي به أن تسعان في تأديبه وتهذيبه

(٤) وليعلم أن أول ما يغلب على الطفل شره الطعام ، فينبغي
أن يؤدب في ذلك ، وأن يُعوّد أخذ الطعام بيمينه ، والبدء
باسم الله ، والأخذ مما يليه ، وعدم السبق إلى الطعام ، وعدم
تحديق النظر إليه ، وإلى من يأكل معه ، والتمهل في الأكل
وإجادة المضغ ، وعدم الموالاة بين اللقم ، والحذر من تلطيخ اليد
والثوب ، وتعوّد الخبز القفّار في بعض الأوقات ، حتى لا يرى
الأدم حتماً^(١)

(٥) وينبغي أن يُقبّح عنده كثرة الأكل ، بدم الطفل الشره
ومدح المتأدب القليل الأكل ، وأن يحب إليه الايثار بالطعام
وقلة المبالاة به ، والقناعة بأى طعام كان

(٦) وأن يحب إليه الأبيض من الثياب ، دون الملون ، وأن

(١) الخبز القفّار هو الذي لا أدم فيه

يُفهمه أن تلوين الثياب ليس عادة الرجال ، وإنما هو عادة النساء
والمختئين ، وأن يحفظه من مخالطة الأطفال الذين عودوا بالتنعم
ولبس الثياب الفاخرة ، ومن مخالطة كل من يسمع منه ما يرغب
في ذلك

(٧) وإذا ظهر من الطفل فعل محمود ، فينبغي أن يجازى عليه
بما يفرح به ، وأن يمدح أمام الناس ، فإن أساء مرة فيجمل بالوالد
أن يتغافل عنه ، ولا يكشفه ، ولا سيما إذا تستر الطفل واجتهد
في الإخفاء ، فإن مكاشفته قد تزيده جسارة وعدم مبالاة . فان
عاد فليعاتب سرا ، وليُحذّر عواقب الافتصاح ، وليكن العتب
قليلاً لئلا يهون على الطفل وقع الملام ، وسماع التأنيب ،
وركوب القبيح

(٨) وينبغي أن يمنع من النوم نهاراً ، فان ذلك يورث الكسل
ولا يمنع منه ليلاً ، ولكن يمنع الفراش الوثير ، لتصلب أعضاؤه
ويعود خشونة الفراش

(٩) ويجب أن يمنع من كل ما يفعله خفية ، فانه لا يخفى إلا
ما يعتقد أنه قبيح

(١٠) وليعود المشي في بعض النهار ، لتحبب إليه الحركة
والرياضة

- (١١) ولينمى من كشف أطرافه
(١٢) وينبغى أن يمنع من الافتخار على أقرانه بشىء مما يملكه
والداه، أو بشىء من مطاعمه وملابسه، أو لوحه ودواته، بل
يُعوّد التواضع، وطيب الحديث
(١٣) ويجب أن يُعلم أن الرفعة في الإِطاء لافي الأخذ
وأن الأخذ لثوم، وخسة، ودناءة، إن كان غنياً؛ وذلة، ومهانة،
إن كان فقيراً: فلا يصح أن يأخذ شيئاً من الاطفال
(١٤) وينبغى أن يعوّد أن لا يبصق في مجلسه، ولا يمتخط،
ولا يتشاءب بمحضرة غيره، ولا يستدبر سواه، ولا يضع رجلا
على رجل، ولا يضع كفه تحت ذقنه، ولا يسند رأسه بساعده
ويُعلم كيفية الجلوس، ويمنع كثرة الكلام
(١٥) ويجب أن يُمنع القسم، صادقاً كان أو كاذباً، لثلا

يعتاد ذلك

- (١٦) وليعوّد أن لا يتكلم إلا مجيباً، وبقدر السؤال، وأن
يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً، وأن يقوم
لمن فوقه، ويفسح له المكان

- (١٧) ويجب أن يمنع من لغو الكلام، ومن اللعن، والسب
(١٨) وليعوّد الصبر إذا ضربه المعلم، فلا يكثر الصراخ،

ولا يستشفع بأحد ، وليذكر له أن الصبر دأب الشجعان والرجال
وأن كثرة الصراخ دأب الممالك والنساء

(١٩) وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب
باللعب الجميل يستريح به ، فإن منع الصبي من اللعب يمت قلبه ،
ويحمد ذكاه ، ويحمّله على الاحتيال للخلاص من الكتاب
(٢٠) وينبغي أن يُعلم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤدبه ، وكل
من هو أكبر منه سنّاً من قريب وأجنبي

(٢١) وإذا بلغ سن التمييز ، فينبغي أن لا يسامح في ترك
الطهارة ، والصلاة ، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويعلم
كل ما يحتاج إليه من أمور الشرع
(٢٢) وليخوف من السرقة ، وأكل الحرام ، ومن الخيانة ،
والكذب ، والفحش ، وكل ما يغاب على الأطفال

هذه خلاصة ما وضع الغزالي في التربية . وما أنكر أن فيها
شيئاً من التكرار . وأرى أنه في مثل هذه المواطن جميل
وإنما ألاحظ أنه لا معنى لأن تجب إلى الطفل الثياب البيض
بنوع خاص . ويظهر أن هذه كانت سنة حسنة إذ ذاك^(١) . وألاحظ

(١) يرى الاستاذ عبده بك خير الدين أن لبس الثياب البيض فيه دعوة ضمنية إلى
النظافة ، لأن الثوب الأبيض يعلن عن نفسه حين يحتاج إلى التطهير

كذلك أنه لا يصح أن يعلم الصبي أن هناك فئة مخنثة تميل إلى الملوّن من الثياب، فقد يحسن أن لا تُطرق آذان الصبي بمثل هذا الهُجْر، بل يجب أن لا يعرف أن الطفل قد يتخلق بأخلاق النساء. ولا أفهم معنى لأن يدعى الطفل إلى عدم إرخاء يديه، بل يضمهما إلى صدره حين يمشى؛ ويضحكني أن ينصح الطفل بالصبر والاحتمال حين يضربه المعلم، وكان أولى له أن ينهى عن هذه العادة الشنعاء، التي لا تجمل بالمعلمين^(١) ومن أدق ماتنبه له الغزالي تلميحه إلى أن يعلم الطفل أسرار البلوغ حين يصل إليه

والغزالي يسمي المدرسة بالمكتب والكتاب، وليس له في هذا الباب غير برنامج ضئيل، يمثل ما كان يفهم في عصره من المدارس الأولية والابتدائية. ويتلخص هذا البرنامج (في تعلم القرآن، وأحاديث الأخيار، وحكايات الأبرار) ولم تخطر له الرياضة ببال. ولم يتعرض للغة والأدب، ولكنه نبه على أن الطفل يجب أن « يُحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويُحفظ من مخالطة

(١) وضع فضيلة الاستاذ الشيخ النجار بهامش النسخة التي كانت بيده ما يأتي: إن أطفال أهل السودان يفهم هذه العادة على أنّها فانهم يعودون عدم البكاء والصرخ مهما حل بالواحد منهم من الألم. ومن فعل ذلك غير. بل كثيرا ما نجد الطفل يأخذ جمرة النار فيضمها على ساعده ويذهب الى أمه ليربها صبره على بقاء النار تأكل في جسمه دون إظهار تألم قائلا: ابشرى يا أمي أنا أخو البنات

الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فان ذلك يفرس
في نفوس الصبيان بذور الفساد »

والغزالي يُعَدُّ الطفل في الواقع لأن يكون جندياً في الحياة
إذ يحرم عليه كل مظاهر اللين . وإن كان لم يغفل عن غايته الاخلاقية
حين أوصى بأن يعلم أن الموت منتظر في كل ساعة ، وأن العاقل
من تروود من دنياه لأخراه . وأرى هذه الوصية خطيرة ،
إذ تضعف العزم في نفوس الأحياء ، ولا تترك للاسلام نفسه
جيشاً يُحفظ به ثغر ، أو يُفتح به قطر ، وما كان الاسلام إلا
دين الغزاة الفاتحين

تربية البنات

لم يتكلم الغزالي عن تربية البنات ، وكان عليه أن يهين
نصيبياً من عنايته . ولكن الرجل تأثر بعصره ، وبقومه ، فقد
كانت تربية البنات مما لا يهتم به الأولون
وسترى حين نتكلم عن حقوق المرأة أنه يحتم على الرجل
أن يعلم زوجه ، فان لم يعرف ناب عنها في سؤال العلماء ، ولكنك
سترى كذلك أن هذا العلم الواجب على الرجل لامراته لا يزيد
عن معرفة الفرائض من صلاة وصيام . ومعرفة الفرائض هذه
لاتفيد المرأة شيئاً في الحياة المنزلية ، وهي العبء الملقى على
عواتق النساء

الفصل الرابع

آداب المعلمين

قد رأيت المنهج الذي وضعه الغزالي لتربية الطفل ، ورأيت ما خطّه لبرنامج التدريس في المكاتب الصغيرة ، والآن تفقك على رأيه في تربية الطلاب ، ونريد بهم من رأوا الاستزادة من العلم بعد انقضاء ذلك الأمد القصير ، الذي أُعدّ للأطفال والغزالي كان أستاذا في المدرسة النظامية ، وكان يختلف الى الى درسه ثلثمائة من التلاميذ ، وكان له بالطبع زملاء ، وكان لهؤلاء الزملاء تلاميذ ، فمن البعيد أن لا تكون هذه الحركة ألهمة البحث في التعليم من حيث إنه مهنة ، وهو قد ابتلى بمهنة التعليم !

ولقد تكلم الغزالي عن التعليم ، وأطال في كتاب الاحياء ، وتكلم عنه في الاملاء على ما أشكل من الاحياء ، وذكر أنه (أفضل من سائر الحرف والصناعات) وبين وجه هذه الأفضلية بالتفصيل

وكل ما تُقيد به هذه الحرفة فيما يرى أنه يجب أن يقصد بها وجه الله ، ويقول في ذلك (وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية

الدائمة ، أعى معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ،
لا على قصد الدنيا . فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك
نعوذ بالله منه ^(١)

وعلوم الدنيا هي في رأيه ما يشمل الطب والحساب والهندسة
وتقويم البلدان ، وعلى الجملة كل ما عدا العلم بالله وملائكته وكتبه
ورسله واليوم والآخر . فالذى يعلم علوم الدنيا هذه هو بلا شك
محترف ، ويكفى أن يقصد بتعليمه الآخرة ، ليكون من الناجين
أضف إلى هذا ان الغزالي — لورعه — يشبه العلم بالمال ،
فكما أن لصاحب المال حال استفادة ، وحال ادّخار ، وحال إنفاق
على نفسه ، وحال بذل لغيره ، وهو أشرف أحواله ، فكذلك
لصاحب العلم حال طلب ، وحال تحصيل ، وحال استبصار ، وحال
تبصير ، وهو أشرف الأحوال

والتبصير هو التعليم . والغزالي لا ينكر أن يكون المرء
معلما ، فقد كان من المعلمين ، وإنما يطالب المعلم بتعليم علوم
الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، وسترى فيما يذكر
من آداب المعلم عدم أخذ الأجر ، ولكن هذا لا يقدح في نظره
إلى التعليم كهنة ، فانه يكفيننا أن يدرك أن التعليم صناعة ، تحتمل

الإجادة ، كما تحمل القصور ، وأنه يجب على المعلم كيت وكيت ،
ليحسن أداء مهمته ، على وجه نافع مقبول
وقد وضع للمعلم الآداب الآتية :

(١) أن يشفق على المتعلمين ، ويجريهم مجرى بنيه . ويقول
الغزالي في توابع هذه البنوة : وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن
يتحاثبوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل
الواحد ، التحاب والتواد

(٢) أن يقتدى بصاحب الشرع ، صلوات الله عليه وسلامه ،
فلا يطلب أجراً على إفادة العلم ، ولا يقصد به جزاءً ولا شكوراً
(٣) أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً ، وذلك بأن يمنعه من
التصدي لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ
من العلم الجلي

(٤) أن يزرع المتعلم عن سوء الأخلاق ، بطريق التلميح
والرحمة ، لا بطريق التوبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ،
ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار
(٥) أن لا يقبِّح في نفس المتعلم العلوم التي وراء علمه : فليس
لمعلم اللغة أن يقبِّح في نفس المتعلم علم الفقه مثلاً ، بل ينبغي أن
يوسع عليه طريق التعليم في غيره . وإن كان متكفلاً بعدة علوم

فينبغي أن يراعى التدرج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة

(٦) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، ولا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله

(٧) أن يلقى للمتعلم القاصر الجليّ اللائق به، ولا يذكر له

أن وراء هذا الجليّ تدقيقاً يذخره عنه

(٨) أن يعمل بعلمه : فلا يكذب قوله فعلمه . وهذا الأدب

الأخير غير خاص بالمعلمين ، ولكنهم أحوج الناس إليه ، وأولاهم

به ، إذ كانوا مرشدين ، ومن حسن السياسة على الأقل أن يعمل

المرشد بما يقول

(٩) أن يجمل نفسه كي يعظم في نفوس طلبته فلا يستصغروه

ولم يذكر الغزالي هذا في آداب المعلم . ولكن ذكره استطراداً

في باب النظافة حيث قال (كان رسول الله مأموراً بالدعوة ، وكان

من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم كيلا تردريه

نفوسهم . ويحسن صورته في أعينهم كيلا تستصغره عيونهم . وهذا

القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق الى الله : وهو

أن يرمى من ظاهره ما لا يوجب نفرة الناس عنه)

(١٠) أن ينظر في نية المتعلم : فان رآها حسنة علمه ، وإن

رآها سيئة أعرض عنه . فلا يجوز فيما يرى الغزالي أن نعلم من نرى

في أقواله ، أو أفعاله ، أو مطعمه ، أو ملبسه ، أو مسكنه ، ما يدل

على فساد نيته ، وسوء قصده . ولا يكفي فيما يرى الغزالي أن يقول المعلم : إنما أريد نشر العلم ، وللمتعلم بعد ذلك الخيار ، إن شاء أحسن وإن شاء أساء ، بل يشبهه بمن يهب سيفاً لقاطع الطريق ، ثم يقول : إنما أريد السخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وأن أعينه على الجهاد ، فإن استعمل السيف في الأذى فهو وحده المستول

وربما كان يحسن بالغزالي أن ينصح المعلم ببذل الجهد في غزو الغرائز السيئة التي يراها في تلميذه ، فأما الضنّ عليه بالعلم فهو فيما أرى هروب من الواجب ، وعمل سلبى لا يفيده ولا يفيد

الفصل الخامس

آداب المتعلمين

وعلى المتعلم ما يأتي من الواجبات :

(١) أن يقدم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف

(٢) أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، ويبعد عن الأهل والوطن ، فانه مهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق

(٣) أن يدعن لنصيحة المعلم إذعان المريض الجاهل للطبيب

المشفق الحاذق

(٤) أن يحترز في مبدأ أمره عن الإصغاء إلى اختلاف الناس

فإن ذلك يحير ذهنه ، ويفتر رأيه ، بل عليه أن يتقن أولاً طريقة

أستاذه ، ثم يصغى بعد ذلك إلى الشبه والمذاهب

(٥) أن لا يدع فناً من الفنون المحمودة إلا وينظر فيه نظراً

يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبجر

فيه ، وإلا اشتغل بالأثم واستوفاه ، وتطرف من البقية

(٦) أن لا يخوض في فن من الفنون دفعة ، بل يراعى الترتيب

(٧) أن لا يخوض في فن حتى يستوفى الفن الذي قبله ، فإن

العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض . وهذه

الطريقة فيما أرى إنما تصلح في الفنون التي كان يعرفها الغزالي

إذ ذلك ، فمن الواضح أن الفقه مثلاً طريق للأصول ، ولكن

هل يصح لدينا الآن أن المنطق طريق الحساب أو أن النحو

طريق الجغرافيا ووصف الشعوب؟

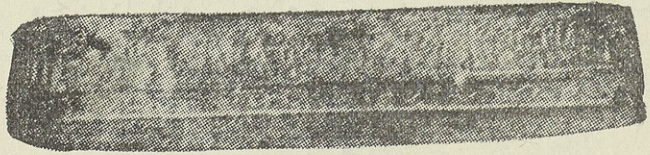
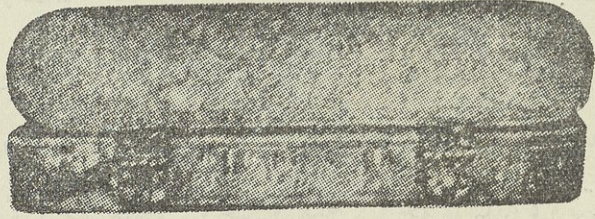
(٨) أن يعرف أن شرف العلم إنما يرجع إلى شرف الثمرة

أو قوة الدليل فعلم الدين فيما يرى الغزالي أشرف من علم الطب ،

لأن ثمرة الأول السعادة الأخروية ، وثمره الثاني السعادة الدنيوية

والآخرة خير من الأولى . وعلم الحساب أشرف من علم النجوم
لقوة أدلته . وعلم الطب أشرف من علم الحساب ، لأن الثمرة
أولى من قوة الدليل

وربما كان يحسن أن يتنبه الغزالي إلى أن للحساب ثمرة
لا تقل شأنًا عن وثاقة دليله، ولكن عذره أنه عاش في عصر قد
غاب عن إنسانه أنه خلق لتعمير الوجود



« مقلمة للغزالي موجودة بدار التحف العربية بالقاهرة »

الباب العاشر

في

الحقوق والواجبات

الحق هو مالك ، والواجب هو ما عليك . فتقول : من حق
أن أتعلم ، ومن واجبي أن أعمل بما أعلم
ولكن الغزالي يضع كلمة حق ، موضع كلمة واجب . وربما
استغنى عنهما جميعاً بكلمة أدب

وقد فصل الغزالي حقوق المرء نحو نفسه ، ونحوربه ، ونحو
أخيه ، ونحو جاره ، ونحو والديه ، ونحو أبنائه ، وبين آداب
التاجر ، والصانع ، والمسافر ، وكاد يستوعب مال المرء ، وما عليه
ونحن ذاكرون خلاصة تمثل وجهة نظره في الحقوق
والواجبات ، ليعرف القارئ اتجاه الفكر الاسلامي في ذلك الحين

١

واجب المرء نحو نفسه

يجب على المرء فيما يرى الغزالي أن يجتهد في أن لا يراه مولاه
حيث نهاه ، وأن لا يفقده حيث أمره ، ولن يقدر على ذلك إلا

بتوزيع أوقاته ، وترتيب أوراده ، من صباحه إلى مساءه
ويحسن فيما يرى الغزالي أن يستيقظ المرء قبل طلوع الفجر ،
وأن يكون أول مايجرى على لسانه ذكر الله . وأن لا يترك
السواك : فانه مطهرة للفم ، ومرضاة للرب ، ومسخطة للشيطان
ولا يفوتنا أن نقرر أن عناية الغزالي بالحث على ماتدعو
إليه الشريعة الاسلامية من الوضوء والغسل وما إليهما من أنواع
الطهارة ، إنما هو دعوة صريحة إلى الحياة . فان الاسلام بفرضه
الوضوء عند كل صلاة ، والغسل عند الاحتلام والوقوع ، إنما
يرفع عن الناس آصار البطالة والحمول

ولا يعلم إلا الله ما كانت تصل إليه حالة الشرق لو لم ينتشر
فيه الاسلام ، فإنه يعوض على أهله مافات أكثرهم من سلامة
الذوق ، إذ لا يعرفون للنظافة قيمة ، ولا يقيمون للطهارة وزنا .
حتى لتجد من العلماء من ينص على أن نية النظافة تقلل من قيمة
الوضوء ، لأن الطهارة في نظرهم عبادة آليّة ، لاتتعلق بها
الأغراض ، وسبحان من وهب العقول !!

غير أننا لانوافق الغزالي فيما ذكر من آداب النوم ، إذ يحض
المرء على أن ينام على يمينه كما يضطجع الميت في لحده ، وأن يتذكر
أن النوم مثل الموت ، واليقظة مثل البعث ، ولعل الله يقبض

روحه في ليلته ، وأن ينام على طهارة ، وأن تكون وصيته مكتوبة
تحت رأسه ، الخ

وما كنت لأوافق الغزالي على ذلك ، لأنه يجب إقصاء
فكرة الموت عن الأحياء ، فإن التفكير في الموت مدعاة إلى
الزهادة والجمود . وهو كذلك نقص في العزائم ، ونمود في القرائح
وهناك سبل أخرى غير الموت للحض على الطيبات ،
فماذا لانزئين الخير للناس ، ببيان ما يفعل الخير في رفعة الأقدار ،
وسموّ النفوس ؟

وقد فصل الغزالي آداب المرء نحو نفسه في أكثر كتبه
في الأخلاق . ولا عيب عليه غير الإفراط في تحقير الدنيا ، وهو
عيب فظيع ، فإن الدنيا أجل وأعظم مما يتصور هو وأمثاله ممن
يرون الموت من جملة الأرزاق !

وهل كان الله عابثاً يوم خلق هذه الدنيا الجميلة ، التي رميتم
عشاقها بالإثم والفسوق ؟

٢

واجب المرء نحو اخوانه في الدين

وضع الغزالي عدة آداب للرجل مع أخيه في الدين ، بعضها
خاص بكيفية المعاملة ، والآخر خاص بتنقية النفس من الضغائن

وجزاء منها يتعلق بتربية المرء على كف الأذى وإسداء المعروف
ويخطر بالبال هذا السؤال: ألا يرى الغزالي وجوداً لغير
المسلم؟ وإلا فما رأيه في معاملة من ليسوا بمسلمين؟

وفي جواب هذا السؤال نذكر ما جاء في إحدى فتاويه^(١)

من أن الذي كالمسلم فيما يرجع إلى الإيذاء . لأن الشرع عصم
دمهم وأموالهم . فيفهم من هذا أن الذي والمسلم يعاملان معاملة
تكاد تكون واحدة ، وإن لم ينص على ذلك في الأحياء

وإلى القارى خلاصة ما على المسلم لأخيه من الواجبات :

(١) أن لا يؤذى أحداً منهم بفعل أو قول

(٢) أن يتواضع لكل منهم ، ولا يتكبر عليه

(٣) أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام ، مهما

غضب عليه

(٤) أن يحسن إلى كل من قدر على الاحسان إليه منهم ،

بلا تمييز

(٥) أن لا يدخل على أحد منهم إلا بأذنه ، بل يستأذن ثلاثاً

فإن لم يؤذن له انصرف

(٦) أن يخالق الجميع بمخلق حسن ، ويعامل كل امرئ بحسب

(١) انظر ص ١٥ ج ١ من شرح الزبيدي

طريقته : فانه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم ، والأُمِّيَّ بالفقه ، والعَيِّىَّ
بالبیان ، آذَى وتَأذَى

(٧) أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان

(٨) أن يكون مع الكفاة مستبشراً طاق الوجه رقيقاً

(٩) أن لا يعد مساماً بوعد إلا وبق به

(١٠) أن ينصف الناس من نفسه ، فلا يعاملهم إلا كما يجب

أن يعاملوه

(١١) أن يزيد في توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته

(١٢) أن يصلح ذات البير مهماً وجد إلى ذلك سبيلاً

(١٣) أن يستر عورات المسلمين كلهم . وقد اسنشهد الغزالي

بهذا الحديث البديع (يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان

قلبه ! لا تغتابوا الناس ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من يتبع عورة

أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان

في جوف بيته)

(١٤) أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له

عنده منزلة ، ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر

(١٥) أن يصون عرض أخيه المسلم ، ونفسه ، وماله ، عن

ظلم غيره ، مهماً قدر . ويرد عنه ، ويناضل دونه ، وينصره ، قياماً

بأخوة الإسلام

(١٦) أن يتقى مواضع التهم ، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ، ولألسنتهم عن الغيبة

(١٧) أن يجامل أخاه ويواسيه إذا بُلى بشر

(١٨) أن يجتنب مخالطة الأغنياء ، ويختلط بالفقراء والمساكين

ويرى القارىء في هذه الحقوق شيئاً من التكرار . وهذا أيضاً يمثل وجهة الغزالي في الأخلاق : فهو كثير الحذر ، شديد الحيلة ، ولا يزال بالمعنى يردده في كتبه ، بل في الكتاب الواحد حتى يرسخ في نفس المستفيد .

٣

مقوق الجوار

ويرى الغزالي أن الجوار يقتضى حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الاسلام ، فيستحق الجار المسلم ، ما يستحقه المسلم وزيادة ، ويروى قوله عليه السلام (الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، و جار له حقان ، و جار له ثلاثة حقوق . فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم : فله حق الجوار ، وحق الاسلام ، وحق الرحم ؛ وأما الذى له حقان فالجار المسلم : له حق الجوار ، وحق الاسلام ؛ وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك)

ويقول تعليقاً على هذا الحديث : فانظر كيف أثبت للمشرك

حقاً بمجرد الجوار !

وقد وضع للجار ما يأتي من الواجبات :

- (١) أن يبدأ جاره بالسلام
- (٢) وأن لا يطيل معه الكلام
- (٣) وأن لا يكثر عنه السؤال . ولا يتبعه النظر فيما يحمل إلى داره
- (٤) وأن يعود في المرض
- (٥) وأن يعزيه في المصيبة ، ويقدم معه في العزاء
- (٦) وأن يهنئه في الفرح . ويظهر الشركة في السرور معه
- (٧) وأن يصفح عن زلاته ، ولا يسمع فيه كلاماً
- (٨) وأن لا يطلع من السطح على عوراته ، بل يستر ما ينكشف له
- (٩) وأن لا يضايقه بوضع الجذع على جداره
- (١٠) وأن لا يصب الماء في ميزابه ، ولا يطرح التراب في فنائه
- (١١) وأن لا يضيق طريقه إلى الدار

- (١٢) وأن ينعشه من صرعته إذا نابته نائبة
(١٣) وأن لا يغفل عن ملاحظة داره في غيبته
(١٤) وأن يغض بصره عن حرمة ، ولا يديم النظر إلى خادمته
(١٥) وأن يتلطف لولده في كلمته
(١٦) وأن يرشده إلى ما يجمله من أمر دينه وديناه
- يقول الغزالي : هذا الى جملة الحقوق التي ذكرناها للمسلمين ،
ولم يستثن المشرك في جملة هذه الحقوق ، ولكنك رأيت أنه
خص الذميين بهذه المساواة ، إذ كان ايداء الحربى عنده غير حرام



مقوق الاقارب

ثبت حق المشرك بالجواري . وكذلك يثبت حقه بالقرابة .
ويروى الغزالي في هذا أن أسماء بنت أبي بكر قالت : قدمت
على أمي ، فقلت يارسول الله : إن أمي قدمت علىّ وهي مشركة ،
أفأصلها ؟ قال نعم . وفي رواية أفأعطيها ؟ قال : نعم ، صليها
ومن الواضح أن القريب المسلم أو الجار يثبت له فوق حق
القرابة ما يثبت بأخوة الاسلام وبالجواري من الحقوق

٥

مقوى الوالدين

يقول الغزالي : كيفية القيام بحق الوالدين تُعرف مما ذكرنا في حق الاخوة ، فان هذه الرابطة أكد من الاخوة ، بل أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات ، وإن لم تجب في الحرام المحض ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضاء الوالدين حتم ويرى الغزالي أن ليس للانسان أن يبادر بالحج وهو فرض إلا بإذن والديه ، لان المبادرة نفل . وكذلك ليس له أن يخرج لطلب العلم الا بإذنهما ، ويستثنى علم الفرائض من الصلاة والصوم إذا لم يكن في البلد من يعلمه . وليته عمهم هذا الحكيم في جميع العلوم الضرورية في الحياة

وينقل الغزالي عن رسول الله أن لزوم الوالدة أفضل من الجهاد وهو يقدم الوالدة في البر على الوالد

٦

مقوى الابناء

يجب على الوالد :

- (١) أن يسمي ابنه اسماً حسناً
- (٢) وأن يؤدبه اذا بلغ ست سنين ، فاذا بلغ تسع سنين عزل

فراشه ، فاذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضربه على الصلاة ، فاذا بلغ ست
عشرة سنة زوجّه

(٣) وأن يعينه على بره ، فلا يحمله على العقوق بسوء عمله

(٤) وأن يسوى بين أولاده

(٥) وأن يبدأ بالاناث إذا حمل لأولاده طرفة من السوق

٧

واجب التاجر

وعلى التاجر فيما يرى الغزالي ما يأتي من الواجبات :

(١) أن لا يحتكر ، فيدّخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار
وهذا مُطَرِّد في أجناس الأقوات . أما ما ليس بقوت ، ولا هو
معين على القوت كالأدوية ، والعقاقير ، والزعفران وأمثاله ، فلا
يتعدى النهي إليه وإن كان مطعوماً . وأما ما يعين على القوت
كاللحم والفواكه وما يسد مسد القوت في بعض الأحيان وإن
كان لا يمكن المداومة عليه ففيه نظر . ومن العلماء من طرد
التحريم في السمن والعسل والشيرج والجبين والزيت وما يجري
مجراه ، على أن احتكار الأطعمة جائز إذا استغنى الناس عنها ولم
يُنْخَس من احتكارها قحط . وبقدر درجات الاضرار تتفاوت
درجات الكراهة والتحريم

وكان على الغزالي أن يبين حكم احتكار الأدوية إذا وجد وباء، أو انتشر مرض من الأمراض. فقد تصبح الأدوية أهم من الأطعمة، ويمسى احتكارها من عظام الأمور^(١)

(٢) أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها

(٣) أن لا يكتف من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً

(٤) أن لا يكتف في وزنها ومقدارها شيئاً

(٥) أن لا يكتف من سعرها مالو عرفه المعامل لا تمتنع عنه

(٦) أن لا يروج الزيف من الدراهم أثناء النقد، إذ يستضر به

المعامل إن لم يعرف، وإن عرف فسيروجه على غيره. وهكذا

دواليك، ومن هنا وجب على التاجر تعلم النقد، لا ليستقصى

لنفسه فحسب، ولكن لئلا يسلم إلى مسلم زيفاً وهو لا يدري

فيكون آتماً بتقصيره في تعلم ذلك العلم

(٧) أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة، فأما أصل

المغابنة فأذن فيه، لأن البيع للربح، ولا يمكن إلا بغبن ما،

ولكن يراعى فيه التقريب

(٨) أن يحسن نيته في ابتداء التجارة: فينوى بها الاستعفاف

(١) ليس بمستعص على الانسان أن يفهم ذلك من كلام الغزالي: إذ هو يدرك كلامه على محور واحد هو الفرق بالناس ورفع الحرج عنهم وعدم اراقتهم بما يكون فيه مشقة عليهم عبد الوهاب النجار

عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس ، والقيام بكفاية الأولاد
(٩) أن يقصد القيام في تجارته أو صنعته بفرض من فروض

الكفايات ، فان الصناعات والتجارات لو تركت لهلك أكثر الناس

(١٠) أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، بأن

يكون أول داخل في السوق وآخر خارج منه ، وبأن يركب البحر

في التجارة ، ففي الخبر : لا يركب البحر إلا بحج أو عمرة أو غزو

هكذا يرى الغزالي . وهذه منه نزعة صوفية لا تأتلف مع

واجب الرجل الاخلاقي في الحياة الاجتماعية . فالتاجر أن يكون

أول داخل في السوق وآخر خارج منه ، بل عليه ذلك ، وعليه أن

يركب البحر في التجارة ، وأن يسلك الى الربح كل سبيل . والحج

والعمرة ، والغزو ، كل أولئك من وسائل الحياة . ولكن أكثر

الناس لا يفقهون

(١١) أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتق مواضع

الشبهات ، ومظان الريب ، ولا ينظر الى الفتاوى ، بل يستفتي

قلبه . واذا حُملت اليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف وإلا

أكل الشبهة

(١٢) أن يراقب جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه

ويُعد جوابه ليوم الحساب والعقاب

(١٣) أن يقبل من يستقبله ، فإنه لا يستقبل الامتداح مستصراً بالبيع ، ولا ينبغي أن يكون سبب استضرار أخيه

(١٤) أن يخص في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة ، وهو

في الحال عازم على ألا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة

(١٥) أن يحسن في استيفاء الثمن ، وسائر الديون ، فيتسامح

مرة ، ويمهل مرة ، ويحط البعض مرة

وبعد سرد هذه الآداب ، لا يفوتنا أن ننوّه بعناية الغزالي

بصالح الهيئة الاجتماعية ، فإن التاجر الذي يتأدب بهذه الآداب x تسمى تجارته ولا شك رجحاً عاماً للناس ، ويصبح خادماً لأهل

بلده من حيث لا يعلمون

هذا وجه الجمال في هذه الآداب التي خص بها التجار وما نكر أن فيها جانباً من الضعف بإثقال التاجر بكثير من التكاليف الظاهرة ، والمستورة ، في حين أنه يجب تمرينه على المخاطرة في سبيل الحياة ، ولكن الغزالي لا يعدل بالسلامة شيئاً والسعيد عنده من نجاح دينه ، وإن خسر دنياه



آداب المسافر

وضع الغزالي فصولاً مطولة عن السفر ، وفوائده ، وآفاته

وعده نوعاً من الحركة والمخالطة. وبين الباعث عليه من هرب أو طلب، وأطال في ذلك وأجاد.

ونحن إذاً نكون هنا طائفة مما وضع للمسافر من الآداب :

(١) أن يبدأ برد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لمن تلمزه نفقته، وبرد ما عنده من الودائع، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب، وليأخذ قدرًا يوسع به على رفقائه

(٢) أن يختار رفيقاً، فلا يخرج وحده، وليكن رفيقه من أهل الدين، فإن المرء على دين خليله

(٣) أن يودع رفقاء الحضر، والأهل، والأصدقاء

(٤) أن يرحل من المنزل بكراً فإن الخير في البكور

(٥) أن يجعل أكثر سيره بالليل، فإن الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار

(٦) أن يحتاط بالنهار، فلا يمشى منفرداً خارج القافلة، فربما ينقطع، أو يُغتال، وأن يتحفظ عند النوم بالليل

(٧) أن يرفق بالدابة فلا يحملها مالا تطيق، ولا يضربها في وجهها، وأن يروّحها بالنزول عنها غدوةً وعشية

(٨) أن يحمل معه امرأة، ومكحلة، ومقراضاً، ومسواكاً ومُشطاً، وقارورة، وركوة، وحبلاً

- (٩) أن ينوى في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها، ويجهد في أن يسمع من كل واحد كلمة، أو أدباً ينتفع به
- (١٠) أن لا يزيد على ثلاثة أيام في زيارة أخ له، وإذا زار أحد أساتذته في سفره، فلا يُقيم عنده أكثر من يوم وليلة
- (١١) أن يرجع من سفره إذا رأى في نفسه نقصاناً عما كان عليه في الحضر وأحب أن يتنبه القارئ إلى دقة هذا الأدب الأخير

مقوق المرأة

لا يرى الغزالي ان المرأة تساوى الرجل، بل يرى أن الرجل سيد المرأة. ويقول فيمن أطاع زوجته، وملكها نفسه « انه عكس القضية. وأطاع الشيطان لما قال: ولا مرتهم فليغيرن خلق الله. إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً وقد سمي الله الرجال قوامين على النساء، وسمى الزوج سيداً فقال: وألفيا سيدها لدى الباب. فاذا انقلب السيد مسخرّاً فقد بدل نعمة الله كفرةً (١) »

(١) إن النساء يقلب عليهن المزاج العصبي. فهن يتأثرن بالتأفة من الامور ويجعلن من الهفوة الصغيرة أمرأ خطيراً ويصيرن الحبة من مخالفتهن قبة وبينين علالي الشقاق على أو هن أساس. وهذا أمر لا يعرفه الا مجرب ممارس لاحوال الزوجات وبخاصة من كان لهن في البيت نظائر ومنافسات كزوجة أخي الزوج وأخته ونحو ذلك من أم زوج وهكذا فهناك الشقاق الدائم والحصام الذي لا ينقضي. ولا دواء لذلك سوى أن يكون الزوج قاهر الحكم نافذ الكلمة مطاع الامر. فاذا ضعف او وهن فلا انتضاء لشقاء البيت
عبد الوهاب النجار

ولم يقتصر الغزالي على ذلك ، بل حكم على طبيعة المرأة حكماً أقسى من الصخر ، فقد قال في معرض الحديث عن أدب النساء (والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل) واستدل بحديث لا أعلم مبلغه من الصحة ، وهو قوله عليه السلام (مثل المرأة الصالحة كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب)

وإليك جملة ما وضع الغزالي للمرأة من الحقوق :

أولاً - على الرجل أن يحسن الخلق معها ، وأن يحتمل الأذى

منها ، ترحمًا عليها قصور عقلها . ويقول الغزالي : « واعلم أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها ، والحلم عند طيشها وغضبها »

ثانياً - أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة ، والمزاح ،

والملاعبة ، فهي التي تطيب قلوب النساء . ويقول الغزالي « وقد كان رسول الله يمزح معهن ، وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق » وهذا تأكيد لرأيه في طبيعة المرأة

ثالثاً - الاعتدال في الغيرة ، فلا يتغافل الرجل عن مبادئ

الأمر التي تخشى غوائلها ، ولا يبالغ في إساءة الظن ، والتعننت وتجسس البواطن

رابعاً - الاعتدال في النقطة ، فلا ينبغي أن يفتقر عليها ✓

في الإنفاق ، ولا ينبغي أن يسرف ، ولا ينبغي ترك الحلوى بالكلية ، وينبغي أن يأمر الرجل أهله بالتصدق ببقايا الطعام ، وما يفسدلو ترك . وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير إذن الزوج . ولا ينبغي أن يستأثر الرجل عن أهله بما كول طيب ، فان ذلك ينافي المعاشرة بالمعروف

خامساً — على الرجل أن يعلم زوجته أحكام الصلاة ، فان لم يعرف ناب عنها في سؤال العلماء ، وليس لها أن تخرج لطلب العلم مادام الزوج لم يقصر في تعليمها الفرائض — فان قصر فلها الخروج للاستفادة ، بل عليها ذلك ، ويعصى الرجل بمنعها . ومتى تعامت الفرائض فليس لها أن تخرج لتعلم فضل إلا برضاه . وللرجل الحق في أن لا يدخل عليها الرجال ، وأن يمنعها من الخروج إلى المساجد والأسواق

وهنا نلفت النظر الى أن الغزالي يقرر ويلح في تحريم خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية ، ولم يفرق بين العلماء وغير العلماء ، والمرأة العجوز فقط هي التي يجوز لها عنده زيارة المساجد وان خالف ذلك بعض الشيء ما كان على عهد رسول الله . ويكاد يجزم بأن النبي لو شاهد أهل عصره لشدد في التضييق على المرأة

سادساً — إذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل ، فاذا خرج

إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع يئهن ، والعدل واجب
في العطاء والمييت ، وأما في الحب والوقاع فهو تكليف بما لا يطاق

سابعاً — إذا وقع بين الزوجين خصام ولم يلتئم أمرهما ،
فإن كان من جانبهما جميعاً أو من الرجل فلا بد من حكمين : أحدهما
من أهله والآخر من أهلها ، لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما ،
وليس للمرأة أن تتولى تأديب الرجل حين يكون الخصام من

جانبه لئلا تسلط فلا يقدر على إصلاحها كما يقول الغزالي

وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصة ، فلا رجل أن يؤدبها ،
ويحملها على الطاعة قهراً ، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها ،
فيقدم أولاً الوعظ ، والتحذير ، والتخويف ، فإن لم ينجع أولها
ظهره في المضجع ، وانفرد عنها بالفراش ، وهجرها وهو في البيت
معها من ليلة إلى ثلاث ليال ، فإن لم ينجع ذلك ضربها ضرباً غير
مُبرِّح بحيث يؤلمها ، ولا يكسر لها عظماً ، ولا يدمى لها جسماً ،
ولا يضرب وجهها فإن ذلك منهي عنه

ثامناً — أن ينظر الرجل في حاجة امرأته إلى التحصين ، فإن
تحصينها واجب عليه . وللغزالي في هذا الموضوع كلام كله سذاجة :
إذ تراهُ يضع طائفة من الأدعية يقوم بها الرجل عند الوقاع ،
حتى ليذكر أن بعض أصحاب الحديث كان يُكَبِّرُ حتى يسمع

أهل الدار صوته !! وما أدري كيف تصاح هذه اللحظة للأدعية والأوراد، وما إلى ذلك مما يضعف الشهوة، ويبعث على الخمود؛
تاسعا - الطلاق مباح، ولكنه إيذاء. ولا يباح للرجل إيذاء المرأة إلا بجناية من جانبها أو ضرورة من جانبها. ومهما آذت زوجها أو بدأت على أهله فهي جانية، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين. ويرى الغزالي أن حق الوالد مقدم على حق الزوجة، فاذا كرهها الوالد لغرض غير فاسد فقد جاز الطلاق. وإن كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدى بمال، ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى، فإن ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع. وعلى الزوج أن يتلطف في التعلل بتطليق زوجته من غير تعنيف واستخفاف. وأن يطيب قلبها بهدية على سبيل الجبر والإمتاع، وأن لا يُفشي سرها لافي الطلاق ولا عند النكاح

ومما سلف بيانه، نعرف أن الغزالي لم يفكر في المرأة إلا

+ من حيث هي زوجة، فلم يذكر شيئاً عن حقوقها الاجتماعية، ولم يتكلم عن تعليمها قبل الزواج، ولم يسمح له تزوجة بشيء من العلم أكثر من الفرائض، وهي غاية بسيطة بالطبع، لأن تعلم الفرائض لم يكن موضع خلاف. وكل هذا نتيجة محتومة لرأيه

في طبيعة المرأة ، إذ كانت عنده في مقام التابع ، ومن طاعة
الشیطان أن تصبح في مقام المتبوع !

٩

الرفق بالمرأة

ولم يكتف الغزالي بهذه الحقوق في صيانة المرأة ، بل حض
الرجل على الرفق بها في كل حال ، فذكر في ص ١٢١ من كتابه
التبر المسبوك أن من أحب أن يكون مشفقاً على زوجته رحماً
بها ، فليذكر أن المرأة لا تقدر أن تطلقه ، وهو قادر على طلاقها
متى شاء ، وأنها لا تقدر أن تأخذ شيئاً بغير إذنه ، وهو قادر على
ذلك ، وأنها مادامت في حباله لا تقدر على زوج سواه ، وهو قادر
على أن يتزوج عليها ، وأنه لا يخافها وهي تخافه ، وأنها تقنع منه
بطلاقة وجهه ، وبالكلام اللين ، وهو لا يرضى بجميع أفعالها ،
وأنها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها لأجله ، وهو لا يفارق
لأجلها أحداً ، وأنه يقدر أن يتسرى ويختص بالجوارى دونها ،
وأنها تخدمه دائماً وهو لا يخدمها ، وأنها تتأف نفسها إذا كان
مريضاً وهو لا يغم لها ولو ماتت

والأحظ أن هذه النصيحة الشعرية تقترض أن يكون
الرجل مسيطراً على المرأة ، وأنها كالحمل الوديع . ومن الواضح

أن الرجل لا يكون دائماً على هذه السيطرة ، والمرأة لن تكون دائماً بهذه الوداعة : ولكن عذر الغزالي في إطلاق هذا النصح ، أن الغالب وقوع هذه الحال ، فالرجل في الغالب يأمر وينهى ، والمرأة تسمع وتطيع ، وما عدا ذلك شذوذ ، وهم لا يضعون القواعد للشواذ !

والذي لا شك فيه ، من بين ما قال الغزالي ، أن الرجل يملك رقبة المرأة ، ويستطيع أن يتزوج من غيرها إن شاء ، ويتصرف في البيت بلا رقيب ولا حسيب ، وأن المرأة تركت لأجله أمها وأباها وأقاربها ، وهو لم يفارق لأجلها أحداً من العالمين

١٠

واجبات المرأة

النكاح نوع رق - كما يقول الغزالي - فالزوجة رقيقة الزوج ، وعاليها طاعته في كل ما يطالب ، مما لا معصية فيه . واليك خلاصة ما عليها من الواجبات :

(١) أن تكون قاعدة في قعر بيتها ، ملازمة لمغزلهما ، لا يكثر

صعودها واطلاعها على سطوح الجيران

(٢) وأن تكون قليلة الكلام لجيرانها ، ولا تدخل عليهم الا

في حال يوجب الدخول

(٣) وأن تحفظ بعلمها في غيبته وحضرتها ، وأطلب مسرته في جميع أمورها ، ولا تخونه ، لا في نفسها ولا في ماله

(٤) وأن لا تخرج من بيتها إلا بأذنه ، فان خرجت بأذنه فاختفية في هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية ، دون الشوارع والأسواق ، محترزة من أن يسمع غريب صوتها ، أو يعرفها بشخصها

(٥) وأن لا تتعرف الى صديق بعلمها في حاجاتها ، بل تنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه

(٦) واذا استأذن صديق لبعلمها على الباب ، وليس البعل حاضراً ، لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام ، غيرةً على نفسها وبعلمها وأن تقنع من زوجها بما رزقه الله

(٨) وأن تقدم حقه على حقها وحقوق سائر أقاربها

(٩) وأن تكون متنظفة في نفسها مستعدة في جميع الأحوال

ليتمتع بها إن شاء

(١٠) وأن تشفق على أولادها

(١١) وأن تكون قصيرة اللسان عن مراجعة الزوج وسب

الأولاد

(١٢) وأن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها

(١٣) وأن لا تذهب إلى الحمام، إلا اذا لم يكن في البيت مُسْتَحْتَمٌ ،
وكانت نفساء أو مريضة ، وان دخلت فلا تدخل الا بمزدر سابغ

١١

آداب الكتاب

ومما يوضح بعض الجوانب في تصور الغزالي للحياة ،
وحرصه على النظام ، ما وضعه من آداب الكتاب ، فقد تتبين
بذلك وجهة نظره فيما ينبغي أن يكون عليه الكاتب من الخبرة
والكفاية ، ولم تنشأ إلا مثل ذلك كليات الصحافة في العهد الحديث

ويرى الغزالي أن الكاتب يجب عليه :

- (١) أن يعرف بُعد الماء وقربه تحت الأرض
- (٢) وأن يعرف زيادة الليل والنهار ، ونقصانهما ، في الصيف
والشتاء ، ومسير الشمس ، والقمر ، والنجوم
- (٣) وأن يعرف الحساب ، والهندسة ، والتقويم
- (٤) وأن يعرف اختيارات الايام ، وما يصلح للمزارعين
- (٥) وأن يعرف الطب والأدوية
- (٦) وأن يعرف ريح الشمال والجنوب
- (٧) وأن يعرف الشعر والقوافي
- (٨) وأن يكون خفيف الروح ، طيب اللقاء

(٩) وأن يحسن برى القلم وقطه ، ورفعه وحطه ، كما قال !

(١٠) وأن يحرس نفسه من طغيان قلمه

(١١) وأن يُظهر بشبًا قلمه ما يجول في نفسه

(١٢) وأن يعرف ما يمد من الحروف

(١٣) وأن يبين الخط ، ويعطى كل حرف حقه

وقد وضع الغزالي فوق ماتقدم صورة لما يمد أو يقصر من الحروف ، ووضع طريقة لبرى الاقلام العربية ، والفارسية ، والعبرية ، وما يجب أن يكون عليه المقط من الصلابة ، وما ينبغي أن يمتاز به القرطاس من التساوى والصلابة ، وما يحسن من تشابه صورة الأحرف ، ليقرب الخط من الجمال . وكل ماتقدم هو بالطبع صورة لأرأيهم إذ ذاك فيما ينبغي أن يكون عليه الكتاب

١٢

واحييات الملوك

يتكلم الغزالي كثيراً عن « الأمراء والسلاطين » ويذكر ما لهم وما عليهم . وتجد في حقوق المحتسب من هذا الكتاب ما وضعه من الفرق بين إرشاد العامة ، وإرشاد الأمراء والسلاطين كما يقول ، وقد وضع لهم كتاباً خاصاً سماه التبر المسبوك في

نصيحة الملوک ، وهو الذى قدمه لسلطان محمد بن ملك شاه ، وقد فصلنا رأينا فيه ، فلا نعود اليه الآن

ويستحسن الغزالي أن يقسم الملك نهاره إلى أربعة أقسام :
قسم لعبادة الله وطاعته . وقسم للنظر في أمور السلطنة ، وإنصاف
المظلومين ، والجلوس مع العلماء والعقلاء لتدبير الأمور ، وسياسة
الجمهور ، وتنفيذ الأوامر ، والمراسيم ، والكتابة ، وإنفاذ الرسل ،
وقسم للأكل والنوم ، والتزوّد من الدنيا ، وأخذ الحظوظ من
الفرح والسرور . وقسم للصيد ولعب الكرة والصولجان وما
أشبه ذلك

وينصح الغزالي للملك بان لا يشتغل دائماً بلعب الشطرنج ،
والنرد ، وشرب الخمر ، وضرب الكرة والصيد ، لان هذه تمنعه
عن الاعمال ، ولكل عمل وقت ، فاذا فات عاد الریح خسرانا
ويفهم من هذا أن الملك يجوز له شرب الخمر مع الاقلال ،
ولكن هذا ينافي حرص الغزالي وإصراره على حرب المسكرات ،
فلا يبعد أن تكون هذه الكلمة دُست أو وقعت سهواً في كتاب
التبر المسبوك

ويجب فيما يرى الغزالي أن يراعى الملك ما يأتي من الأصول

(١) أن يعرف قدر الولاية وخطرها ، وما يكون من سعادته إذا أحسن ، ومن شقائه إذا أساء

(٢) أن لا يقنع برفع يده عن الظلم . بل يهذب غلمانه ، وأصحابه وعماله ، ونوابه ، فانه عن ظلمهم مسئول

(٣) أن لا يتكبر ، فان التكبر داعية الغضب والانتقام

(٤) أن يفرض نفسه واحداً من الرعية في كل ما يعرض عليه

فلا يرضاه لنفسه لا ينبغي أن يرضاه لأحد من المسلمين

(٥) أن لا يشتغل بنوافل العبادة ، وبيابه أحد من أبواب الحوائج

(٦) أن لا يعود نفسه الاشتغال بالشهوات : من لبس الثياب

الفاخرة ، وأكل الأطعمة الطيبة ، بل يتعود القناعة في جميع الأشياء ، فلا عدل بلا قناعة

(٧) أن يتجنب الشدة ، والعنف ، كلما أمكنه الرفق

(٨) أن يجتهد في أن ترضى عنه الرعية بموافقة الشرع

(٩) أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع

(١٠) أن يعين رعيته إذا وقعت في ضائقة ، وأن ينفق عليها

من خزائنه ، إذا وقعت في قحط أو غلاء ، لأن في ذلك استبقاء

لطاعتهم ، ودرءاً للمطامع المحتكرين

والغزالي لا يستنكر قسوة الملك ، إذا لؤمت الرعية ، بل

يدعو إلى أن تهابه الرعية وهو بعيد ، ويقول « وسلطان هذا الزمان

يجب أن تكون له أوفي سياسة ، وأتمهية ، لأن أناس هذا الزمان ليسوا كالمقدمين ، فان زماننا هذا زمان ذوي الوقاحة والسفهاء وأهل القساوة والشحناء . وإذا كان السلطان والعياذ بالله بينهم ضعيفاً أو كان غير ذى سياسة فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البلاد ، وأن الخلل يعود على الدنيا والدين « (١)

والسياسة في كلامه هذا معناها الحزم في شدة وقسوة ، لينتهى المفسدون

١٣

حقوق الوزراء

وعلى الملك أن يعامل الوزير بثلاثة أشياء :

الأول — إذا ظهرت منه زلة ، أو وجدت منه هفوة ، فلا يعاجله بالعقوبة

الثاني — إذا اتسعت حاله في خدمته واستغنى ، فلا يطمع في ماله وثروته ✓

الثالث — إذا سأله حاجة فلا يتوقف في قضائها

وينبغي أن يمنحه ثلاثة أشياء

الأول — أن لا يمتنع عن رؤيته متى اختار أن يراه

الثاني — أن لا يسمع في حقه كلام مفسد

الثالث — أن لا يكتفم عنه شيئاً من سره ، لأنه مدبر الدخل
وبه عمارة الخزائن والولايات

ويجب على الوزير :

أولاً — أن يكون محباً للخير ، مبغضاً للشر

ثانياً — أن يعين الملك على الشفقة بالرعية إذا رأى منه الميل لذلك

ثالثاً — أن يرشده باللطف إذا رأى منه ميلاً للظلم

ويقول الغزالي في نصيح الملك الذي أهداه كتابه « وينبغي

أن تعلم أن دوام الملك بالوزير ، وأن دوام الدنيا بالملك ، وينبغي أن

تعلم أنه لا يجوز له أن يهتم بغير الخير » ص ٧٩

وهذه الواجبات التي وضعها للملوك والوزراء تعتبر في الواقع

جملة بالنسبة لما يحتاجون إليه من شتى الآداب في معاملة الرعية ،

ومعاملة جيرانهم من الدول ، ولكن يلاحظ كذلك أنه حتم

الشرع في جملة هذه الآداب ، وقد وضع الفقهاء عدة أحكام تخص

الخلفاء والولاة ، وما أحسبه يخالفهم في هذا الباب

١٤

معاملة الملوك الظالمين

ومما يوضح جانباً من جوانب الأخلاق عند الغزالي رأيه

في معاملة الظامة من الأمراء والسلاطين ، فقد حتم على من يأخذ

مالا منهم أن ينظر كيف وصل اليهم ، وأن يتأمل الصفة التي
استحق بها الأخذ ، والمقدار الذي يأخذه ، وهل يستحقه اذا
أضيف الى حاله وحال شركائه في الاستحقاق ؛ وبين أنه إذا لم
يُعرف للسلطان دخل إلا من الحرام ، فالأخذ منه سحت محض .
وأن واجب الورع يقضى بأن لا يأخذ المرء شيئاً من مال الظالم
على الاطلاق ، فان لم يستطع فليأخذ ما يتأكد أنه حلال ✓

أما الدخول على الظلمة وغشيان مجالسهم فهو محذور .
ولا تجوز زيارة الملك الجائر إلا بعذرين : الأول أن يكون من
جهتهم أمر إلزام ، لا أمر إكرام ، ويعلم الرجل أنه إن امتنع
أودى ، أو فسدت طاعة الرعية : فتجب عليه الإجابة ، لاطاعة لهم
بل مراعاة لمصلحة الخلق ، حتى لا تضطرب الولاية

الثاني أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواه . أو عن
نفسه ، بطريق الحسبة ، أو بطريق التظلم

وإذا دخل عليك السلطان الظالم زائراً فجواب السلام لا بد
منه ، والقيام له غير حرام ، والأولى تركه إن لم يكن معه أحد . ثم
تأخذ في تعريفه ما يجمله ، وتخويفه فيما هو مستجرب عليه . وإرشاده
الى ما هو غافل عنه

والأفضل فيما يرى الغزالي أن يعتزلهم المرء فلا يراهم ولا

يروونه ! والأمر كذلك في معاملة قضاتهم ، وعمالهم ، وخدمهم .
وللغزالي في هذا الباب تفاصيل عجيبة فيما يتعلق بما يقيمون من
القناطر والطرقات والمساجد والسقايات والأسواق . وأخص
ما يلاحظ أنه إنما يدعو إلى أن يخلص المرء ذمته ، مع البعد كل
البعد عما يفضى إلى فتنة أو اضطراب

١٥

مفهوم الأُخوة

المراد بالأخوة الصحبة والصدقة ، إلى غير ذلك مما تشر
الألفة . والالفة — كما نص الغزالي — ثمرة حسن الخلق ، إذ
يوجب التحاب والتآلف والتوافق ، كما أن سوء الخلق يثمر
التباغض ، والتحاسد ، والتدابر

ويجب فيما يرى الغزالي أن يكون للرجل أعداء يبغضهم
في الله ، كما يجب أن يكون له أصدقاء يحبهم في الله

ولكن الحب في الله ، والبغض في الله غامض . ولكشف

الغطاء عنه ، قسم الصحبة إلى : ما يقع بالاتفاق ، كالصحبة بسبب
الجوار أو بسبب الاجتماع في المكتب ، وفي المدرسة ، أو في السوق
أو على باب السلطان ، أو في الأسفار ؛ وإلى ما ينشأ اختياراً
ويقصد ، وهو المراد . إذ لا ثواب ولا عقاب إلا على الأفعال

الاختيارية . والصحبة عبارة عن المجالسة ، والمخالطة ، والمجاورة .
وهذه الأمور لا يقصد بها الانسان غيره إلا إذا أحبه . والذي
يُحَبُّ : إما أن يحب لذاته ، وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود
وذلك المقصود : إما أن يكون مقصوراً على الدنيا وحظوظها ،
وإما أن يكون متعلقاً بالآخرة ، وإما أن يكون متعلقاً بالله تعالى

حب المرء لذاته ولجماله

يرى الغزالي أن الانسان قد يُحَبُّ لذاته ، لا لفائدة تنال منه
في حال أو مال ، بل لمجرد المجانسة ، والمناسبة في الطباع الباطنة
والأخلاق الخفية ، ويدخل في هذا القسم ، فيما يرى ، الحب
للجمال ، اذا لم يكن للمحب غرض خبيث ، فإن الجمال مستملح
لذاته ، وان قُدِّرَ فقدُ أصل الشهوة . والغزالي يضرب المثل لهذا
بالنظر إلى الفواكه ، والأنوار ، والأزهار ، والتفاح المشرب
بالحمرة ، وإلى الماء الجاري ، والخضرة ، من غير غرض مذموم
إذ تحب لعينها . وهذا الحب كما يقول الغزالي لا يدخل فيه الحب
لله ، بل هو حب الطبع ، وشهوة النفس ، وهو مباح لا يوصف
بمدح ولا بدم

الحب للمنافع الدنيوية

وقد يُحَبُّ الانسان لِنِئال من ذاته غير ذاته . كما يحب الرجل

سلطاناً لا تتفاهه بماله ، أو جاهه ، ويجب خواصه لتحسينهم
حاله عنده .

والمتوسّل إليه - كما يقول الغزالي - إن كان مقصور
الفائدة على الدنيا ، لم يكن حبه من جملة الحب في الله ، وإن لم
يكن مقصور الفائدة على الدنيا ، ولكنه لا يقصد به إلا الدنيا
كحب التاميد لاستاذه ، فهو أيضاً خارج عن الحب لله ، فإنه إنما
يجبه ليحصل منه العلم لنفسه ، فمحبوبه العلم

وينقسم هذا الحب فيما يرى الغزالي إلى مذموم ومباح ،
فإن كان يقصد به التوصل لأغراض مذمومة كقهر الأقران ،
وحيازة أموال اليتامى ، وظلم الرعية بولاية القضاء أو غيره ، كان
الحب مذموماً . وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح فهو مباح

الحب للمنافع الاضروية

وقد يُحِبُّ الانسان ، لالذاته بل لغيره ، وذلك الغير ليس
راجعاً إلى حظوظه في الدنيا ، بل يرجع إلى حظوظه في الآخرة ،
كمن يحب أستاذه لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ✓
ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة . وهذا من جملة
المحبين في الله . ومثله من أحب زوجته لأنها آلة إلى مقاصد دينية ،
كالتحصن والولد الصالح

الحب لمنافع الدنيا والآخرة

ويقول الغزالي : ليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجلة حظاً ألبتة . ويقول : إذا اجتمع في قلبه محبتان : محبة الله ، ومحبة الدنيا ، فاجتمع في شخص واحد المعنيان جميعاً حتى صالح لأن يتوسل به إلى الله وإلى الدنيا ، فإذا أحبه لصلاحه للأمرين جميعاً فهو من المحبين في الله ، كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ، ويكفيه مهات الدنيا بالمواساة في المال

الدنيا هليقة بالحب

ولا يفوتنا أن ننوه بما وفق إليه الغزالي حين قال « وعلى الجملة ، فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضاً لـحب الله تعالى ، فحب السلامة ، والصحة ، والكفاية ، والكرامة في الدنيا ، كيف يكون مناقضاً لـحب الله ؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحداهما أقرب من الأخرى . فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم ؟ وإنما يحبها غداً لأن الغد سيصير حالاً راهنة . فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة . إلا أن الحظوظ العاجلة منقسمة إلى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها ، وهو الذي احتزر عنه الأنبياء ، وأمروا بالاحتراز عنه . وإلى ما لا يضاد ، وهو الذي لم يمتنعوا عنه كالنكاح الصحيح وأكل الحلال » **❧** وليس بمستنكر أن يشتد حبك لـإنسان لجملة أغراض لك ترتبط به ، ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية ، فهو داخل في جملة الحب لله «

وانما نوهنا بهذه الفقرة لأنها في صوابها تناقض ما يردده
الغزالي من احتقار الأغراض الدنيوية ، والإشادة بالحياة الآخروية
مما يخيّل إلى القارئ أن الدنيا عنده أحقر من أن تتعلق بها
الأغراض !

الحب لله

وقد يُحِبُّ الإنسان في الله والله ، دون أن ينال منه شيء ،
أو يُتوسل به إلى أمر وراء ذاته ، وهذا أعلى الدرجات ، وهو
غاية في الدقة والغموض

ميزانه الحب

يَبِّنُ الغزالي أن المرء قد يُحِبُّ لذاته ، وقد يُحِبُّ لمقصود
دنيوى أو أخروى ينال منه ، وقد يجب لله ، لا لغرض يقصد
في حال أو مال

ولكن ماهى دلائل ذلك الحب ، حميداً كان أو غير حميد ؟
وبأى ميزان يوزن ذلك الميل ، حتى تعرف درجات المحبين ؟
لقد وضع الغزالي ميزاناً هو أدق موازين الحب في هذا
الوجود : وهو المال ! وانظر قوله « ومن احب ملكاً أو شخصاً
جميلاً أحب خواصه وخدمه ، وأحب من أحبه ، إلا أنه يُمتحن الحبُّ
بالمقابلة بمحظوظ النفس ، وقد يغلب بحيث لا يُبقي للنفس حظاً إلا فيما
هو حظ المحبوب ، وعنه عبر من قال :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد
وقول من قال :

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض ، كما تسمح
نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله ، أو في ثلثه ، أو في عشره .
فقادير الأموال موازين المحبة ، إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحسوب
يترك في مقابلته فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا
يملك لنفسه شيئاً »

المال هو أدق موازين الحب في هذا الوجود ، وقد أفصح
عن ذلك الغزالي ، وإن سبقه قول جميل :

سليبي مالي يابئين فائما يبين عند المال كل ضنين

مال الأخر على أخيه

وبعد الميزان الذي وضعه الغزالي له حجة : لانرانا في حاجة
إلى إجمال ما فصله من حقوق الأخوة . ويكفي أن نذكر أنه
يرى للأخ حقاً على أخيه : في نفسه ، وماله ، وقلبه ، ولسانه ؛
ولكل حق من هذه الحقوق درجات تتناسب مع ما تنطوي
عليه الصدور من حب قوى أو ضعيف

مقوى الأخر المذنب

على أنى أرى من الواجب أن أذكر رأى الغزالي في حقوق
الأخ المذنب ، فانه فيما أعتقد رأى كله صواب ، وهو في الوقت

نفسه كثير على عصر كالعصر الذي عاش فيه الغزالي ، فلسنا نجعل
أن الناس كانوا إذ ذاك قليلي التسامح ، وأنهم كانوا مملوئين
بالرَّيب والظنون

يرى الغزالي أن الصداقة لحمة كاحمة النسب . والقريب
لا ينبغي أن يهجر بالمعصية . فقد قال تعالى للنبي في عشيرته « فان
عصوك فقل إني بريء مما تعملون » ولم يقل إني بريء منكم ، مراعاةً
لحق القرابة ، ولحمة النسب . قال الغزالي « ومن حيث إن الاخوة
عقد ينزل منزلة القرابة ، فاذا انعقدت تأكد الحق ، ووجب الوفاء
بموجب العقد . ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره . وفقر الدين
أشد من فقر المال . وقد أصابته جائحه ، وألمت به آفة افتقر بسببها
في دينه ، فينبغي أن يراقب ويراعى ، ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به
ليعان على الخلاص من تلك الواقعة التي ألمت به . فلا أخوة عدة
للنائبات ، وهذا من أشد النوائب »

وقد توقع الغزالي أن يقول قائل : إن مقارف المعصية لا تجوز
مؤاخذته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء . لأن الحكم إذا ثبت بعلة
فالقياص أن يزول بزوالها ، وعلة عقد الاخوة التعاون في الدين ،
ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية . وقد أجاب بأن المعصية إنما
منعت ابتداء المؤاخذة مع الفاسق لأنه لم يتقدم له حق ، أما الأخ
المدنّب فقد ثبتت أخوته ، فلا تسقط بالمعصية ، كما لا تسقط

القرابة ، ومتى بقيت فقد بقي ما كان لها من الحقوق
وزيد الغزالي أن مصاحبة الفاسق خير من مجانبته ، إذ كانت
الصحبة داعية الرجوع الى الحق ، والإقلاع عن الباطل ، بخلاف
المجافاة ، فقد تقوى فيه الإصرار والعناد
وهذه عظة بالغة ، لأولئك الذين كلما رأوا مبطلا فروا منه
باسم الدين ، وهم يفرون من الواجب لو يعلمون !

١٦

البغض في الله

يقول الغزالي : « كل من يحب في الله لا بد أن يبغض في الله ،
فانك إن أحببت إنسانا لأنه مطيع لله ، ومحبوب عند الله ، فإن عصاه
لا بد أن تبغضه ، لأنه عاص لله ، وممقوت عند الله ، ومن أحب لسبب
فبالضرورة يبغض لضده » ولكن البغض كما رأيت لا يوجب المجافاة

العصيان بالاعتقاد

والمخالف لأمر الله ، إما أن يكون مخالفاً عقده أوفى عمله
والمخالف في العقد إما مبتدع أو كافر ، والمبتدع إما داع الى بدعته
أو ساكت ، إما بعجزه أو باختياره ، فأقسام الفساد
في الاعتقاد ثلاثة

الاول — الكفر والكافر إن كان محاربا فهو يستحق القتل

والإِرْقَاقُ ، وإن كان ذِمِّياً فلا يجوز إيذاؤه إلا بالأعراض عنه
والتحقير له

الثانى - المبتدع الذى يدعو الى بدعته . فان كانت البدعة
بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذمى . لانه لا يقرب بجزية ، ولا
يسامح بعقد ذمة . وإن كان مما لا يكفر به فأمره بينه وبين الله
أخف من أمر الكافر لاحتمال ، ولكن الأمر فى الإنكار عليه
أشد منه على الكافر ، لأن شر الكافر غير متعد . أما المبتدع
الذى يدعو الى البدعة ويزعم أن ما يدعو اليه حق فهو سبب لغواية
الخلق وشره متعد ، فالاستحباب فى إظهار بغضه ، ومعاداته ،
والانقطاع عنه ، وتحقيره ، والتشنيع عليه ، وتنفير الناس منه ، أشد
الثالث - المبتدع العامى ، الذى لا يقدر على الدعوة ،
ولا يخاف الاقتداء به ، فأمره أهون . والأولى أن لا يفتح
بالتغليظ والاهانة ، بل يتأطف به فى النصيح ، فان قلوب العوام
سريعة التقلب

العصيان بالفعل

أما العصيان بالفعل لا بالاعتقاد فانواعه ثلاثة :

الأول - وهو أشدها ، ما يتضرر به الناس فى دنياهم ، كالظلم

والغضب . وشهادة الزور ، والغيبة . والميعة ، وهذه معاص
شديدة ، لأنها ترجع الى ايداء الخلق . وأصحاب هذه المعاصي
ينقسمون الى من يظلم في الدماء ، والى من يظلم في الأموال ،
والى من يظلم في الأعراض . وبعضها أشد من بعض ، والاستحباب
في اهانتهم ، والاعراض عنهم مؤكداً جداً

الثاني — ما يتضرر به الناس في أخراهم لافي دنياهم ، كعمل
صاحب الماخور الذي يهيئ أسباب الفساد ويسهل طرقها على
الخلق ، وهو قريب من الأول ، ولكنه أخف منه
وأنا لأفهم كيف يرى الغزالي أن هذا العمل لا يضر الناس
في دنياهم^(١)

الثالث — عمل الذي يفسق في نفسه ، بشرب خمر ، أو ترك
واجب ، أو مقارفة محظور يخصه . والامر فيه أخف مما سبقه ،
ولكنه إن صودف وقت مباشرة العمل يجب منعه بما يمتنع به
منه ، ولو بالضرب والاستخفاف

تفسيرية

ويحسن بالتقاربي أن يضم الحب في الله ، والبغض في الله ،

(١) لم يكن للزنا في عهده من المضار الدنيوية من الامراض الفتاكة كالزهري
ونحوه ماله اليوم فلم يرتق بنظره الى أكثر من الضرر الديني لانه هو المائل أمامه
عبد الوهاب النجار

الى ما قرره الغزالي من وجوب الاحتساب ، فان ضم هذه الابواب بعضها الى بعض يعطينا صورة واضحة لما يجب أن يكون عليه المسلم أو المرید أو ذو الخلق الحسن فيما يرى الغزالي والرجل الذي أحاطه بالحسبة ، والحب في الله ، والبغض في الله ، هو رجل يعرف ما يجب عليه للهيئة الاجتماعية ، التي تصلح بصلاح الافراد ، فيهدب نفسه أو لا ليفهم بالضبط ماله وما عليه ، ثم يدعو الناس إلى حفظ أموالهم وأنفسهم ، وينهاهم عن اقتراف ما يضر بهم وبأخوانهم في الدين ، ثم يبغض بقلبه ويجوارحه من يبغض من العقيدة ، أو يظلم الناس . وقد فصل الغزالي ذلك كله بأسلوب بالغ التأثير ، ودعم كلامه بكثير من الآيات والأحاديث والاختبار

١٧

آداب الزواج

يسمى الغزالي آداب النكاح ، وهو أصح في التعبير ، لأن النكاح في كتب التشريع لا يراد به الجماع ، وإنما يقصد به العقد . ولكننا قلنا آداب الزواج ، مجازاة للعرف الحديث وقد وضع الغزالي عدة آداب للنكاح ، تعد في الواقع ترغيبا فيه ، وهي في جملتها من الآداب العادية . ويهمني منها أدب واحد ،

أصاب الغزالي في الاهتمام به ، وهو تربية النفس بالزواج على احتمال أعباء المعاش . فقد ذكر أن الفائدة الخامسة من فوائد النكاح « هي مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعي في إصلاحهن ، وإرشادهن الى طريق الدين ، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن ، والقيام بتربيتهن لأولاده : فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فإنها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم . وإنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقوقها . وإلا فقد قال عليه السلام : (يوم من والٍ عادل أفضل من عبادة سبعين سنة . ثم قال : ألا لكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته) وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفته نفسه وأراحها فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله . ولذلك قال بشر : فضل على أحمد بن حنبل ثلاث : إحداهما أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره . وقد قال عليه السلام : ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها الى في امرأته »

ويقرر الغزالي بعد هذا أن في الصبر على الأهل رياضة للنفس ، وكسراً للغضب ، وتحسيناً للخلق . ويذكرني هذا الأدب بما يكرره سيدي الاستاذ الدكتور منصور فهمي في رسائله من كلمة « غرم الحياة وغنمها » ويريد بذلك الترحيب بما في الحياة من متاعب ، في سبيل ما فيها من الطيبات . والحق أن احتمال الأهل والولد من عزائم الأمور . والشبان الذين ينفرون من الزواج

إشارة للراحة ، إنمام جنباء ، ضعفاء ، لا يصلحون للجِراد
في ميدان الحياة

١٨

الخروج من المظالم

ونريد أن نبين رأى الغزالي فيما يجب على التائب الذي ظلم
الناس . لأن في ذلك بياناً للرأيه في احترام ما يلزم المرء من مختلف
الحقوق . وقد بدأ الكلام في هذا الموضوع بقوله عليه السلام
(من كانت له عند أخيه مظلمة في عرض أو مال ، فليتحللها منه
من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم)

مظلمة العرض

فان كانت المظلمة متعلقة بالعرض ، فواجب على المغتتاب أن
أن يندم ويتوب ، ويتأسف على ما فعله ، ليخرج من حق الله .
ثم يستحل المغتتاب ليحله ، فيخرج من مظلمته . وينبغي أن يستحله
وهو حزين متأسف نادم على فعله . لثلا يقارف بريائه معصية
جديدة

مظلمة المال

وان كانت المظلمة في المال فعليه أن يميز الحرام ، وأن ينظر
في مصرفه

فان كان الحرام معلوم العين : من غضب ، أو ودیعة ، أو غير ذلك ، فأمره سهل . وإن كان ملتبساً فلا یخلو أمره من أن یكون فی مال هو من ذوات الأمثال ، كالحبوب والنقود والادهان ، أو أن یكون فی أعیان متمایزة : كالعیید والدور والشیاب

فان كان فی المتماثلات ، أو كان شائعاً فی أمال كله ، كمن اكتسب المال بتجارة یعلم أنه قد كذب فی بعضها بالمرا بحة ، وصدق فی بعضها ، أو من غضب دهنًا وخلطه بدهن نفسه ، وفعل ذلك فی الحبوب والدرهم والدنانیر ، فلا یخلو أمره من أن یكون معلوم القدر أو مجهولاً . فان كان معلوم القدر : كأن یعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام ، فعليه تمييز النصف . وإن أشكل فله طریقان : أحدهما الأخذ بالیقین ، والآخر الأخذ بغالب الظن ، وكلاهما قال به العلماء

وفي الأعیان المتمایزة : كالدور والعیید ، یوزع القاضی الثمن بقدر النسبة . وإن كانت متفاوتة ، أخذ من طالب الیبع قيمة أنفس الدور مثلاً ، وصرف إلى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل ویقدر التفاوت بالعرف

صرف المال الحرام

فإذا أخرج الحرام فلا یخلو أمره :

(١) إما أن یكون له مالك معین ، فیجب الصرف الیه

أو إلى وارثه . وإن كان غائباً فينتظر حضوره . وإن كانت له زيادة
ومنفعة فلتجتمع فوائده إلى وقت حضوره

(ب) وإما أن يكون للمالك غير معين ميثوس منه لا يدري
أما عن وارث أم لا . فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ، ويوقف
حتى يتضح الأمر فيه . فإن لم يعرف المالك تصدق بالمال ، وله أن
ينفقه على نفسه وعلى أولاده إن كان فقيراً . ومثل ذلك ما لو تعذر
الرد لكثرة الملاك ، كفلول الغنيمة ، فإنه كيف يقدر على جمع
الغزاة بعد تفرقهم ؟ وإن قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً على
الف أو الفين ؟

(ج) وإما أن يكون من مال الفيء والأموال المرصدة
لمصالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك إلى القناطر ، والمساجد ،
والطرق ، وأمثال هذه الأمور التي يشترك في الانتفاع بها عامة
المسلمين

مظلمة النفس

وإن كانت المظلمة في النفس ، كالقتل ، فينظر في نوعه ،
فإن كان خطأً فليسلم الدية ، وإن كان عمداً موجبا للقصاص فبالقصاص
وله أن يتعرف إلى وليِّ الدم ويحكمه في روحه ، فإن شاء عفا عنه
وإن شاء قتله . وقد تنبه الغزالي إلى أن هناك ذنوباً يجب أن تستر ،

فلا يصح أن يظهر فيها الاستحلال ، لأن في إظهاره جناية جديدة .
والخروج من مثل هذه المظالم يكون بالمجاهدة ، ورياضة النفس ،
والإحسان الموصول الى من أساء المرء اليه ، فان في الاحسان
جبراً للأساءة ، وهو كل ما يستطيعه التائب في مثل هذه الحال

١٩

واجب الاحتساب

الحِسْبَةُ والاحتساب في عرف المسلمين عبارة عن الأمر
بالمعروف إذا ظهر تركه ، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله . لقوله
تعالى « ولتكن منكم أمةٌ يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ،
وينهون عن المنكر » والاحتساب واجب على كل مسلم قادر ، وهو
فرض كفاية إذا قام به واحد من المسلمين سقط عن الجميع ، ويصير
فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره . وإذا كانت القدرة شرطا
للحسبة فقد أصبحت على ذوى السلطان أوجب ، لأنهم أقدر
من غيرهم . ومتى أقامت الحكومة محتسبا كان عليه أن يبحث
عن المنكر الظاهر ليصل الى إنكاره ، والمعروف المتروك ليأمر
بإقامته ، وكان لكل مسلم الحق في أن يستعديه فيما يجب إنكاره
ومن الفروق بين الحسبة والقضاء ، أن المحتسب يجوز له أن

يتعرض لتصفح ما يأمر به من المعروف ، وينهى عنه من المنكر ،
وإن لم يحضره خصم مستعد ، وليس للقاضي أن يتعرض لذلك
إلا بحضور خصم يجوز له سماع الدعوى منه . وأنه يجوز للمحتسب
أن يستعمل القوة فيما يتعلق بالمنكرات ، وليس للقاضي غير فحص
القضية بالأناة والوقار .

ويطول بنا القول لو أردنا سرد الفروق بين الحسبة ، وأحكام
القضاء ، وأحكام المظالم ، في الحكومات الإسلامية ، فلنكتف
بهذا القدر ، تمهيداً لرأى الغزالي في شروط الاحتساب

شروط المحتسب

ولا يجب على امرئٍ فيما يرى الغزالي أن يأمر بخير ، أو ينهى
عن شر ، إلا بالشروط الآتية :
أولاً — أن يكون مكلفاً . فلا يجب على الصبي أمر بمعروف ،
ولانهي عن منكر . بل يجوز له ذلك ، وليس لأحد أن يمنعه
ثانياً — أن يكون مؤمناً . ومفهوم أن الغزالي لا يعترف
للجاحد بشيء حتى يصلح للإرشاد
ثالثاً — أن يكون عدلاً . ويناقش الغزالي هذا الشرط ،

ويذكر أن الأنبياء قد اختلف في عصمتهم عن الخطايا ، والقرآن
العزير دال على نسبة آدم عليه السلام الى المعصية ، وكذا جماعة
من الأنبياء ، فلو اشترطنا في الإرشاد أن يكون متعاطيه معصوما
عن المعاصي لأغلق هذا الباب

رابعاً — أن يكون مأذونا من الإمام والوالى . وقد ناقش
الغزالي هذا الشرط ، ورأى أن تخصيص الاحتساب بإذن والى
بعد إطلاقه في الأحاديث والآيات ، تحكم لا أصل له . وقرر أنه
يجب على المرء زجر العاصى أينما رآه ، وكيفما رآه

خامساً — أن يكون قادراً . فليس على العاجز حسبة إلا بقلبه .

ولا يقف سقوط الوجوب عند العجز الحسى ، بل يلتحق به
ما يخاف منه مكروهاً يناله ، فذلك فى معنى العجز ، وكذلك إذا
لم يخف مكروهاً وعلم أن انكاره لا ينفع — وقد اختلفت كلمة
الغزالي فى هذه النقطة فى ص ٣٢٢ ج ٣ من الإحياء ينص على
سقوط وجوب الحسبة حين يعلم أنها لا تقيد . وفى ص ١٥٣ ج ١
يقول فى النهى عن كشف العورة فى الحمام « فاما قوله : أعلم أن
ذلك لا يفيد ولا يعمل به فهذا لا يكون عذراً ، بل لا بد من الذكر ،
فلا يخلو قلب امرئ عن التأثر من سماع الانكار واستشعار الاحتراز
عند التلبس بالمعاصى . وذلك يؤثر فى تقبيح الأمر فى عينه وتنفير
نفسه عنه فلا يجوز تركه »

وقد توقع الغزالي أن يقول قائل : إن المكروه المتوقع
ما حدّه الانسان . فان الانسان قد يكره كلمة ، وقد يكره ضربة
وقد يكره طول لسان المحتسب عليه في حقه بالغيبة ، وما من
شخص يؤمر بالمعروف إلا ويتوقع منه نوع من الأذى . وقد
يكون منه أن يسعى به إلى سلطان ، أو يقدر فيه في مجلس
يتضرر بقدره فيه ، فما حدّ المكروه الذي يسقط الوجوب به ؟
وأجاب الغزالي بأن الحسبة لا تسقط إلا بالمكروه الظاهر
كمن يعلم أنه يضرب ضرباً مؤلماً يتأذى به ، أو يعلم بأنه تُهب
داره ، ويُخرّب بيته ، وتُسلب ثيابه^(١)

المنكر المرهق عنه

ولا يُنهي عن شيء فيما يرى الغزالي إلا بالشروط الآتية :
أولاً — أن يكون منكراً ، أي محذور الوقوع في الشرع
قال الغزالي « وإنما عدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا ، لأن المنكر أعم
من المعصية ، إذ من رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر فعليه أن يريق
خمره ويمنعه ، وكذا إن رأى مجنوناً يزني بمجنونة أو بهيمة ، فعليه أن
يمنعه . ثم قال : ولا تختص الحسبة بالكبائر ، بل كشف العورة في الحمام ،
والخلوة بالأجنبية ، وإتباع النظر للنسوة الأجنبية ، كل ذلك من
الصغائر ويجب النهي عنه »

ثانياً — أن يكون المنكر موجوداً في الحال ، فلاحسبة على من فرغ من شرب الخمر ، ولا على من يُعلم من قرينة حاله أنه عازم على الشرب في ليلته

ثالثاً — أن يكون المنكر ظاهراً . فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابه لا يجوز أن يتجسس عليه ، وقد أمرنا أن نستتر ماستر الله ، وننكر على من أبدى لنا صفتته

رابعاً — أن يكون المنكر معلوماً بغير اجتهاد ، فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة فيه ، وهذا الشرط الأخير يدل على قدر الغزالي لحرية الرأي والتفكير ، وما أحوج المصلحين إلى تأمله والعمل بمقتضاه !

صفات المرشد

ويجب أن يتصف المرشد بالعلم ، والورع ، وحسن الخلق ، أما العلم فليعلم مواقع الحسبة ، وحدودها ، ومجاريها ، وموانعها ، ليقصر على حد الشرع . وأما الورع فليردعه عن مخالفة معلومه ، فربما يعلم أنه مسرف في الحسبة ، وزائد على الحد المأذون فيه شرعاً ، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض ، وأما حسن الخلق فليتمكن به من اللطف والرفق ، وهو أصل هذا الباب

قال الغزالي : « فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القُرْبَات
وبها تندفع المنكرات ، وإن فقدت لم يندفع المنكر ، بل ربما كانت
الحسبة أيضاً منكراً لمجاوزة حد الشرع فيها ^(١) »
وقد نص على أن اشتراط الورع ليس معناه أن الأمر
بالمعروف يصير ممنوعاً بالفسق ، وإنما يسقط أثره من القلوب
بظهوره للناس

أنواع المنكرات

قسم الغزالي المنكرات إلى مكروهة ومحظورة ، ويبيّن أن
منع المكروه مستحب ، والسكوت عليه مكروه ، وليس بحرام
إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له ، لأن الكراهة
حكم في الشرع يجب تبليغه إلى من لا يعرفه ، وأن منع المحظور
واجب ، والسكوت عليه حرام
ثم ذكر طائفة من المنكرات التي تجرى في المساجد ،
والاسواق ، والشوارع ، والحمامات ، والضيافة . وآراؤه في هذا
الباب مسدّدة ، ترجع إلى الحرص على سلامة الناس في دينهم
ومعاشهم ، وإصلاح ذات بينهم . فمنها دعوته إلى منع ما يؤدّي
إلى تضيق الطرق واستضرار المارة ، ودعوته إلى منع الملاك من

(١) ص ٣٣٧ ج ٣ احياء

تحميل الدواب مالا تطيقه ، وهو رفق بالحيوان . ودعوته إلى منع الاسراف في الطعام والبناء . والذي يتأمل ما سرده الغزالي من المنكرات يدرك مبلغ حرصه على غرس الرجولة والشرف في نفوس الأفراد والجماعات

درجات الاعتساب

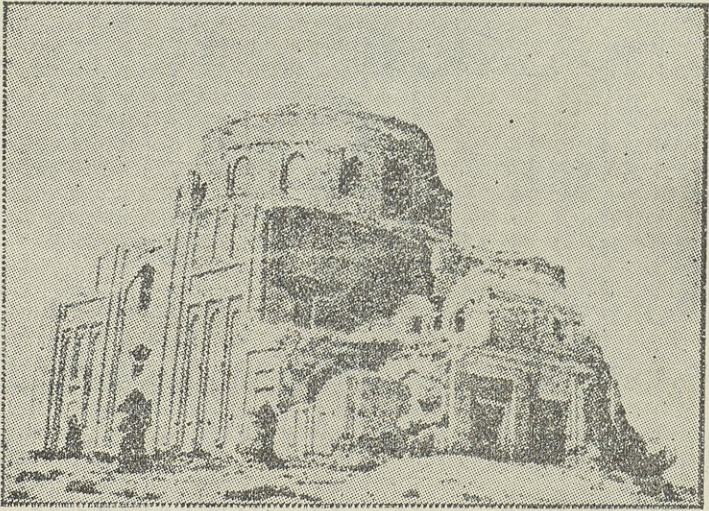
للاحتساب درجات ، وهي :

- (١) التعريف (٢) ثم النهي (٣) ثم الوعظ (٤) ثم النصيح
- (٥) ثم السب والتعنيف (٦) ثم التغيير باليد (٧) ثم التهديد بالضرب
- (٨) ثم إيقاع الضرب وتحقيقه (٩) ثم شهر السلاح (١٠) ثم الاستظهار بالأعوان وجمع الجنود

وفي الدرجة الأخيرة يقول الغزالي (وربما يستمد الفاسق أيضا بأعرانه ، ويؤدي ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا . فهذا قد ظهر الاختلاف في احتياجه إلى اذن الامام . فقال قائلون : لا يستقل آحاد الرعية بذلك . لانه يؤدي إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد . وقال آخرون : لا يحتاج إلى الاذن . وهو الأقيس ، لأنه جاز للآحاد الأمر بالمعروف ، وأوائل درجاته قد تجر إلى ثوان وثوالث ، وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب ، والتضارب يدعو إلى التعاون ، فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف ، ومنتهاه تجنيد الجنود في رضا الله ودفن معاصيه « ص ٣٣٦ ج ٣

ارشاد الامراء

ولا يجوز من درجات الاحتساب مع الامراء والسلاطين
— فيما يرى الغزالي — الا الرتبتان الاولىان وهما التعريف والوعظ
أما المنع بالقهر فليس لاحاد الرعية مع السلطان ، فان ذلك يحرك
الفتن ويهيج الشر ، ويكون ما يتولد عنه من المحذور أكثر
وأما التخشين في القول ، كقوله : يا ظالم ، يا من لا يخاف
الله ، وما يجري مجراه ، فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها
إلى غيره لم يجز ، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه ، فهو جائز ،
بل مندوب إليه ، ومن قتل في هذا فهو شهيد



مسجد خرب في طوس موطن الغزالي . ويظن الدكتور زويمر انه بنى في القرن الرابع

الباب الحادى عشر

فـ

تأثير الغزالى فى عصره

وما تلاه من العصور

أثر الغزالى فى عصره أثراً غير قليل : فشطرت أهل العلم ،
والولاية ، شطرين . أحدهما ينصره ، والآخر يخذله ، وما زال
الفريقان يختصمان حتى طيراً شهرته فى جميع الآفاق
وقد رأى الغزالى فى حياته من يقدره ، ويقدمه على جميع
العلماء ؛ ورأى فى الوقت نفسه كتبه تحرق فى بعض الأقطار
الاسلامية ، رمياً لها بالدعوة الخفية الى الكفر والإلحاد :

١

تجربته للمقرن الخامس

وكان جمهور المسامير فيما سلف يعتقد أن الله يبعث على رأس
كل مائة سنة من يجدد أمر الدين ، ولهم فى هذه العقيدة كلام
طويل ، وفيها يقول الجلال السيوطى فى أرجوزته
والشرط فى ذلك أن تمضى المائة وهو على حياته بين النفثة
يشار بالعلم الى مقامه وينصر السنة فى كلامه

وأن يكون جامعا لكل فن وأن يعم علمه أهل الزمن
وأن يكون في حديث قدرٍ وى من أهل بيت المصطفى وقد قوى
وكونه فردا هو المشهورُ قد نطق الحديث والجمهورُ
وهم يعتقدون أن مبعوث المائة الأولى عمر بن عبد العزيز
ومبعوث الثانية الشافعي ، والثالثة الأشعري أو ابن سريج ، والرابعة
الاسفراييني أو الصعلوكي أو الباقلاني . ويتفقون على أن مبعوث
المائة الخامسة هو الغزالي ، ويقول السيوطي في ذلك
والخامس الحبر هو الغزالي وعده مافيه من جدال^(١)
وأنا لا أريد الآن تحقيق هذه الفكرة ، وبيان ما تركز
عليه من أساس قوى أو ضعيف ، فهي في ذاتها فكرة سخرية ،
ونظم السيوطي فيها أسخف ، ويكفي أن يعلم القارئ أن الغزالي
بذ معاصريه ، وأخملهم ، حتى جاء المتأخرون فعدوه مجدد المائة
الخامسة ، وقد يكونون مخطئين !

٢

المنامات والأهلام

ومما يدل على أن الغزالي شغل الناس ، واحتل أفئدتهم ، وصار
موضع وساوسهم ، وهو أجسهم ، وأحلامهم ، مارأيناه لغير

(١) راجع شرح الزبيدي ص ٢٦ ج ١

واحد من المنامات المتشابهة في تأييد الغزالي ، ونشر فضله ،
فهذا السبكي يذكر في طبقاته أنه كان في زمانه شخص يكره
الغزالي ويذمه ويعيبه في الديار المصرية ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم
في المنام ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما بجانبه ، والغزالي جالس بين
يديه وهو يقول : يا رسول الله هذا يتكلم فيّ ! وأن النبي صلى الله عليه
وسلم قال : هاتوا الشياطين ، وأمر به فضرب لأجل الغزالي ، وقام هذا
الرجل من النوم وأثر الشياطين على ظهره ، ولم يزل ، وكان يبكي ويحكيه
للناس (؟ !)

ويذكر السبكي أيضاً أن أبا الحسن بن حرزهم لما وقف على الاحياء
وتأمله ، قال هذا بدعة ، مخالف لسنة ، وكان شيخاً مطاعاً في بلاد المغرب ،
فامر باحضار كل ما فيها من نسخ الاحياء ، وطلب من السلطان أن يلزم
الناس بذلك ، فكتب إلى النواحي ، وشدد في ذلك ، وتوعد من يخفي
شيئاً منه ، فاحضر الناس ما عندهم واجتمع الفقهاء ، ونظروا فيه ، ثم
أجمعوا على إحراقه يوم الجمعة وكان ذلك يوم الخميس ، فلما كانت ليلة
الجمعة رأى ابن حرزهم في المنام كأنه داخل من باب الجامع الذي تعود
الدخول منه ، فرأى في ركن المسجد نوراً ، وإذا بالنبي صلى الله عليه
وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما جلوس ، والامام أبو حامد قائم
وبيده الاحياء فقال يا رسول الله : هذا خصمي ! ثم جثا على ركبتيه
وزحف عليهما إلى ان وصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فناوله كتاب
الاحياء ، وقال : يا رسول الله انظر فيه ، فان كان بدعة مخالفاً لسنة
كما زعم ، ثبت إلى الله تعالى ، وإن كان شيئاً تستحسنه حصل لي من
بركتك ، فانصفني من خصمي ! فنظر فيه رسول الله ورقة ورقة إلى

آخره ، ثم قال : إن هذا شىء حسن ، ثم ناوله أبابكر فنظر فيه كذلك ، ثم قال : نعم ! والذى بعثك بالحق يارسول الله إنه حسن ! ثم ناوله عمر فنظر فيه كذلك ، ثم قال كما قال أبو بكر . فأمر رسول الله بتجريد أبي الحسن بن حرزهم من ثيابه ، وضربه حدّ المفترى ، فخرّد وضرب ، ثم شفع فيه أبو بكر بعد خمسة أسواط ، وقال يارسول الله ، إنما حصل ذلك منه اجتهاداً فى سنتك وتعظيماً . فعفا عنه أبو حامد عند ذلك . فلما استيقظ من منامه ، وأصبح ، أعلم أصحابه بما جرى ، ومكث قريباً من الشهر متألماً من الضرب ، ثم سكن عنه الألم ، ومكث إلى أن مات ، وأثر الشيطان على ظهره (! ؟)

وهناك المنام الذى رأى فيه أبو الفتح الساوى أنه تلا بين يدي رسول الله قواعد العقائد الذى صنفه الغزالي ، وهو منام طويل نقله السبكي فى طبقاته . وقد كنت وضعت قائمة لأمثال هذه المنامات ، ثم بدالى أن أقصر على ما ذكرت رغبة فى الإيجاز

وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلاً على أن الغزالي من أصحاب الكرامات ، كما نوّه بذلك مترجموه ، كلا ! وإنما أتخذها دليلاً على ما وصلت إليه منزلة الرجل فى قلوب المسلمين ، فإن لما يراه المرء فى منامه صلةً قويةً بما يابح به فى يقظته ، وهؤلاء الذين جلدوا فى منامهم ، لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالي وهم أيقاظ ، وعلى الأخص إذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين فى تلك العصور الخوالى من سلطة الأولياء ، وتصرفهم المطلق فى عالم الأحياء ، وسبحان من جلّ عن الشريك !

تلامذة الغزالي وأصحابه

ومما يبين عن أثر العالم في عصره ، تلامذته وأصحابه : فهم في علمهم ،
وأدبهم ، أثر من آثاره . وقد أثر الغزالي تأثيراً حسناً في جمهور كبير
من تلامذته وأصحابه ، ذكرهم الزبيدي ، منهم القاضي ابو نصر احمد
ابن عبد الله الحنقري (نسبة الى خمس قرى التي تعرف بسيخ رية) ولد
سنة ٤٦٦ هـ وتوفي سنة ٥٤٤ هـ ومنهم الامام ابو الفتح احمد بن علي بن
محمد بن برهان — بفتح الباء — ولد سنة ٤٧٦ هـ وتوفي سنة ٥١٨ هـ ومنهم
أبو منصور محمد بن إسماعيل بن القاسم الطوسي توفي سنة ٤٨٦ هـ ومنهم
أبو سعيد محمد بن أسعد بن محمد النوقاني قتل في مشهد علي بن موسى
الرضي سنة ٥٥٤ في واقعة النفر ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله
ابن تومرت المصمودي الملقب بالمهدي صاحب دعوة سلطان المسلمين
عبد المؤمن بن علي ملك المغرب ، دخل الشرق وتفقه على الغزالي .
ومنهم أبو حامد محمد ابن عبد الملك بن محمد الجوزقاني الاسفرايني .
ومنهم ابو سعيد محمد بن علي الجاواني الكردي حدث بكتاب إجماع
العوام للغزالي عنه . ومنهم الامام أبو سعيد محمد بن يحيى بن منصور
ولد سنة ٤٧٦ هـ وهو من أشهر تلامذة الغزالي ، تفقه عليه وشرح كتابه
البيسيط

وما أريد أن أطيل في هذا الباب ، وإنما أنص هنا على أن تلامذة
الغزالي أحدثوا أثراً كبيراً في الحياة الاسلامية ، وأكثرهم ماتوا شهداء ،
وليس اشترك العلماء في الحركات العامة ، إلا أثراً لقوتهم المعنوية ،
وايمانهم بما يدعون اليه . وانص أيضاً على أن تلامذة الغزالي لم يعرفوه

غالبا إلا بمؤلف الاحياء ، فهم لم يصحبوه لمؤلفاته في الفقه أو المنطق
أو الاصول ، وانما صحبوه على انه داع الى الله ، ومرشد لمكارم
الأخلاق



مؤلفاته وفتاويه

ومما يدل على مبلغ تأثير الغزالي في الحياة الاسلامية ، عناية
الناس بمؤلفاته وفتاويه . فانا نجد مثلاً كتابه الوجيز في الفقه وضع له
نحو سبعين شرحاً كما قال الزبيدي ، وقد قيل : لو كان الغزالي نبياً لكان
معجزته الوجيز ! وممن شرح هذا الكتاب الفخر الرازي وابو الثناء
محمود بن أبي بكر الارموى . والعماد أبو حامد محمد بن يونس الاربلي ،
وأبو الفتوح العجلي ، وأبو القاسم عبد الكريم ابن محمد القزويني
الرافعي ، وقد اختصر النووي من شرح الرافعي كتاباً سماه الروضة ،
وخرج أحاديثه ابن الملقن في سبع مجلدات ، سماه البدر المنير ، ثم
اختصره في أربع مجلدات وسماه الخلاصة ، ثم لخصه في جزء ، وسماه
المنتقى . وخلصه أيضاً الحافظ بن حجر ، وشرح الوجيز أيضاً البدر
الزركشي ، والبدر بن جماعة ، والشهاب البوصيري ، والجلال السيوطي
ونجد أيضاً كتابه الوسيط في الفقه ، شرحه تلميذه محمد بن يحيى
النيسابوري شرحاً سماه المحيط في ستة عشر مجلداً ، وشرحه نجم الدين
احمد بن علي بن الرفعة في ستين مجلداً وسماه المطلب وشرحه النجم القمولى
وسماه البحر المحيط ، وشرحه عدد غير هؤلاء ذكرهم الزبيدي في ص ٤٣
ج ١ شرح الاحياء

وقال عمر بن عبد العزيز بن يوسف الطرابلسي يمدح كتبه الاربعة
في الفقه

هذَّب المذهب حبرٌ أحسن الله خلاصه

ببسيط ووسيط ووجيز وخالصة

ونجد كذلك كتابه المستصفي في الأصول موضع عناية العلماء ،
فقد اختصره أبو العباس أحمد بن محمد الاشبيلى المتوفى سنة ٦٥١ هـ .
وشرحه أبو علي الحسن بن عبد العزيز الفهرى المتوفى سنة ٧٧٦ وعليه
تعليقات لسليمان بن داود الغرناطى المتوفى سنة ٨٣٢

ونجد كتابه تهافت الفلاسفة قد أحدث رجة غنيقة بين فلاسفة
المسلمين ، فقام ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ وألف كتاباً في نقده ،
ومقام ابن رشد في عالم الفلسفة غير مجهول . ثم جاء خوجه زاده المتوفى
سنة ٨٩٣ وألف كتاباً في التحكيم بين الغزالي وابن رشد باشارة
السلطان محمد الفاتح العثماني . ووضع علاء الدين بن علي الطوسى كتاباً
في المحاكمة بين الغزالي وابن رشد ، سماه الذخيرة ، ومنه نسخة بدار
الكتب المصرية نمرة ١٧٤

ونجد كتابه قواعد العقائد شرحه ركن الدين الاسترآبادى ومحمد أمين
ابن صدر الدين الشروانى

ونجد العلماء عنوا بتحقيق نسبة (المضمونون به على غير أهله) إلى
الغزالي . وممن بحث ذلك السبكي وصاحب تحفة الارشاد . وصنف
أبو بكر محمد بن عبد الله المالقي المتوفى سنة ٧٥٠ كتاباً في رده ، وهذا
مظهر لعناية العلماء بنفى مادس عليه

وليست عناية العلماء بفتاويه بأقل من عنايتهم بكتبه ، فقد جمعها
غير واحد ، بل رأينا من كتب دروسه التي كان يعظ بها الناس

في بغداد ، ورأيانهم يحفظون ما نقل عنه من القصائد الممتفرقة (انظر
نمرة ٢٤٣ ، ١٢٨ ، ٥٦٢ ، ٢٧٦٢ من فهرست دار الكتب المصرية)
ولو رجعنا إلى ما ألف في الوعظ والفقہ في العصر الاخير
لرأينا كثر المؤلفين يرجعون إلى الغزالي في أكثر الأبواب
وقد أخبرني صديقي عبد القوي افندي الحلبي أن من النادر أن
تنشأ مكتبة في أي قطر من الاقطار الاسلامية ، ولا تشمل قائمتها على
طائفة من كتب الغزالي في الفقه والأخلاق

٥

عبرة الفقه بالاضطرار

وقديبدو لأول نظرة ، أن لا صلة بين اهتمام العلماء بمؤلفاته
في الفقه وبين تأثيرهم بما كتب في الأخلاق ، ولكننا لو عرفنا
أن الروح السائد في ذلك العصر كان يجمع بين الفقه والتصوف ،
لرأينا أن اهتمام المؤلفين بشرح مصنفات الغزالي إنما كان أثراً
لإيمانهم بصلاحه وتقواه ، وقد كانت الأوساط الفقهية ولا تزال
تعتقد أن لصلاح المؤلف تأثيراً في الانتفاع بمؤلفاته ، ولو كتب
في الحساب والنجوم

أضف إلى هذا أن الغزالي نفسه كان يُعنى بالفقه والتوحيد
في مؤلفاته الأخلاقية ، فكأنه يرى هذين الفنين جزءاً أو مقدمةً
لعلم الأخلاق

والذين عُمنوا بنقد كتبه إنما التفتوا أيضاً الى الوجهة الأخلاقية؛
فالقضاة منهم كانوا يرونه خطراً على الأخلاق ، لأنه بجانب
الشريعة ، وهي فيما يرون أساس الأخلاق . والفلاسفة منهم كانوا
يخافونه على الأخلاق ، لأن لها قواعد متينة تلقوها عن معلمهم ،
وصاحبنا هذا يريد أن يأتي على تلك القواعد بأذاعته وسأوس
المتصوفه ، وقد وقع ما كانوا يحذرون

٦

تأثير الإحياء

ولئن قالوا في الوجيز ما قالوا ، ووضعوا عليه ما شاءوا من
عشرات الشروح ، وفعلوا مثل ذلك أو قريباً منه في مؤلفاته
في الفقه ، والتوحيد ، والأصول ، فإن أبعده كتبه أثراً ، وأسيرها
ذكراً ، وأبقاها على وجه الدهر ، هو كتابه إحياء علوم الدين
بلا جدال

كتب الغزالي في الفقه ، ولكنه لم يجدد مذهبه الا بمقدار ،
فلم يثر فتنة . وكتب في المنطق ، ولكنه لم يزد عن سواه غير
الإبانه والإيضاح . وكتب في الأصول ، ولكنه بحيث لا يثير
الخصومة ، ولا يهيج اللدّ . وكتب في الفلسفة ، ولكنه لم يزد
على أن تعنى بلبلى معاصريه . وكتب في التوحيد ، فلم يخالف
الا شاعرة إلاقليلا ، فظل مستور الحال

وما كتب الأحياء حتى التفت الناس إليه من كل جانب ،
وسار اسمه مسير الشمس ، وشغلت به جميع القلوب ، شوقاً إليه ،
أو اعتباراً عليه ، أو بغضاً له ، أو رفقاً به . وقد شهد هذه الضجة ، وسمع
هذه الصيحة ، وهو حي يرزق . وحاول أن يهدى ناقديه بكتاب
يوضح فيه ما غمض في الأحياء ، وهو الإملا على إشكالات
الأحياء . ولكنه في الواقع لم يزد إلا إشكالات إلى إشكال . فليج
الناس في المرء ، فوضع كتابه المنهاج ، على أن يكون موضع
وفاق ، فكان في الواقع أيضاً ضغناً على إبالة ، ثم مات الغزالي
قبل أن يحسم هذا النزاع ، فلم تهدأ العاصفة بموته ، بل قامت قيامة
الجدل بين تلامذته وبين خصومه ، ولا يزالون مختلفين !

ويمكن الحكم بأن الخصومة التي كانت بين أنصار الغزالي
وبين خصومه كانت خصومة بين الشريعة والتصوف ، فإن
أنصار الغزالي جميعاً صوفية ، أو شبه صوفية ، وخصومه جميعاً
من علماء الشريعة . وأبعدهم غوراً في النيل منه هم المتصددرون
للفتيا والقضاء .

فبينما نجد ابن القيم يرميه (بالتخليط والهديان) نجد أبا الحسن
الشاذلي يذكر أنه رأى النبي في منامه وقد باهى موسى وعيسى

بالغزالي . وقال : أفي أمتي كما جبر كهذا ؟ فقالوا : لا ! ونجد أبا العباس
المرسي يشهد له بالصدقية العظمى ! وليت شعري ما هيمة ؟

والفرق كبير بين من يرميه بالتخليط والهديان وبين من
يحمل بأن لا نظير له في أمة موسى وعيسى عليهما السلام
وقد قدمت لك شيئاً من المنامات المتعلقة به ، وبينت ما لها
من أسباب ، وأزيد الآن أن كل هذه المنامات مسببة عن الأحياء
فهي تارة تقع لنا قدي ذلك الكتاب ، وتارة تقع للمتفهمين به من
علماء الاسلام

والذين أحرقوا الأحياء ، لم يحرقوه لأنه كتاب هيئ ؛
والذين أفوا الكتب في نقده ، لم يفعلوا ذلك لأنه كتاب هيئ ؛
وإنما نقده هؤلاء ، وأحرقه أولئك ، لأنه فيما يرون كتاب خطر
وليكن خطراً على الاسلام والمسلمين ، وليكن كتاب شر
وفتنه ، وليكن كتلة زندقة وإلحاد ، فهو على كل حال كتاب رهيب
خشيه أولئك الناس ، وهذا ما يعنيننا الآن

وأشهر من نقد الأحياء الامام ابو عبدالله المازري المالكي المتوفى
سنة ٥٣٦ وقد ناقشه السبكي في طبقاته ، فليرجع اليه من شاء ، ويتلخص
نقد المازري في أن الغزالي غير ثقة فيما تعرض له من الفنون ، وأن كتابه
(متردد بين مذاهب الموحدين والفلاسفة وأصحاب الاشارات)
ويتلخص رد السبكي في رمي المازري بالحسد والكيد للصوفية في شخص

الغزالي . ومن نقده ابو الوليد الطرشوشى . وتجد جملة من نقده فى الجزء الاول من شرح الاحياء للزييدى . فاما الذين كتبوا فى فضل الاحياء فهم كثير : منهم الشيخ عبد القادر العيديرى ، وضع كتابا سماه : تعريف الأحياء ، بفضائل الاحياء . وفى أيدى الناس كتاب (لبعض الفضلاء) اسمه : بغية القاصدين لفضائل احياء علوم الدين .

وأطال السبكى فى مدحه حتى نقل عن بعض المحققين انه قال : لو لم يكن للناس فى الكتب التى صنفها الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر غيره لكفى . ثم قال : وهو من الكتب التى ينبغى للمسلمين الاعتناء بها وإشاعتها ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقلم ينظر فيه ناظر الا ويتعظ به فى الحال

ويدل على مبلغ تأثير الاحياء عناية العلماء به ، فانا نجد الحافظ العراقى خرّج أحاديثه فى كتابين : أحدهما كبير الحجم فى مجلدين ، وهو الذى صنفه فى سنة ٧٥١ هـ ثم اختصره فى مجلد وسماه المغنى عن حمل الأسفار . ثم أتى تلميذه شهاب الدين بن حجر العسقلانى فاستدرك عليه ما فات فى مجلد . وصنف الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى كتابا سماه : تحفة الأحياء ، فيما فات من تخريج أحاديث الاحياء وقد سبقت كلمتنا فيما نقل السبكى من الأحاديث الموضوعه

ومن اختصر الاحياء أبو الفتوح احمد بن محمد الغزالي المتوفى بقزوين سنة ٥٢٠ هـ وسماه لباب الاحياء . واهم هذا هو أخو الغزالي . ثم اختصره احمد بن موسى الموصلى المتوفى سنة ٦٢٢ . ثم محمد بن سعيد البنى ، ويحيى ابن ابى الخير البنى ، ومحمد بن عمر بن عثمان البلخى وسماه عين العلم وزين الحلم (النظر نمرة ١٠٩ من فهرست دار الكتب المصرية) . واختصره عبد الوهاب بن على الخطيب المراغى وسماه لباب الاحياء . واختصره

الشمس محمد بن علي بن جعفر العجلوني المشهور بالبالي شيخ خانقاه
سعيد السعداء بمصر المتوفى سنة ٨٢٠
واختصره ابن الجوزي في كتاب سماه : منهاج القاصدين . ومنه
نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية نمرة ١٦٧

وللاحياء شرح مطول يقع في عشر مجلدات ، وفيما شاء الله من
الصفحات ، الفه الزبيدي ، وقد اعتمدت على هذا الشرح في تحقيق
كثير من مواطن الخلاف

ولم يقف الأمر عند شرح الاحياء ، واختصاره ، وتخريج أحاديثه ،
بل وضعت الأبحاث المفردة ، لشرح كلمة وردت في الاحياء ، وهي :
ليس في الامكان أبدع مما كان . وممن شرح هذه الكلمة : عبد الوهاب
الشعراني ، وعبد الكريم الجيلي ، ومحمد المغربي شيخ الجلال السيوطي ،
واحمد بن مبارك السجلهاسي ، وأبو بكر بن عربي . ووضع ناصر الدين
ابن المنير الاسكندري رسالة في هذه المسألة سماها : الضياء المتلالي ،
في تعقب الاحياء للغزالي . وفي مناقضة هذه الرسالة ألف السيد
السمهودي رسالة تقع في سبعة كراريس كما قال الزبيدي . وألف البرهان
البقاعي رسالة في هذه المسألة سماها تهديم الاركان ، وألف الجلال
السيوطي رسالة ناقض بها البقاعي سماها تشييد الاركان

٦

الانتفاع بمؤلفات الغزالي

ولقد تتبعت العصور التي تلت عصر الغزالي فوجدت
الانتفاع بمؤلفاته ظاهراً كل الظهور في حياة علماء الدين والتصوف
والأخلاق . ولقد رأيت من بينهم من همّ بحفظ كتاب الاحياء

عن ظهر قلب . ورأيت منهم من كان يتقرب إلى الله بنسخ هذا الكتاب . وتجد في ص ٦٩ ج ٣ من خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ، مظهراً للأثر الغزالى فى ذلك العصر ، إذ تجد من العلماء من يتخذ وزداً من الاحياء كما يتخذ ورداً من القرآن ولولا خوف الإطالة لضربت للقارئ عشرات الأمثال

وفى العصر الحاضر يدرس كتاب الاحياء فى الازهر والمعاهد الدينية ، وكان الاستاذ الشيخ محمد عبده قرر أن يدرس معه كتاب ابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق ، ولكن رأى العلماء فيه آراء فلسفية ، فقرروا لذلك حذفه ، لئلا يفسد الطلاب !

والاستاذ الشيخ يوسف الدجوى ينصح لتلامذته دائماً بالانتفاع بكتاب الاحياء . وكنت ممن أوصاهم بذلك ، ولكن الله لم يشأ أن أكون كما أراد الاستاذ ، فقد رأيت كيف صورّت الغزالى بصورة الرجل الذى قد يخطئ وقد يصيب ، وهذا من مثلى كثير !
وأثر الغزالى ظاهر فى مؤلفات الشيخ الدجوى ، وهو أيضاً سبب ضعف تلك المؤلفات : فان كتاب سبيل السعادة الذى وضعه الاستاذ منذ بضع سنين يشبه أن يكون خلاصة مشوهة للآراء الحديثة فى فهم أصول الأخلاق ، وفضيلة الشيخ معذور لأنه لا يعرف لغة أجنبية ، ولأنه يبغض المدنية الحديثة من أعماق

صدره ، ويستبعد الاهتداء بآراء الفلاسفة المحدثين !
ويمكن الحكم بأن دراسة كتاب الاحياء في الأزهر مجرداً
من آراء المفكرين في نقده ، وتميز غنثه من ثمينه ، كانت السبب
في إفساد العقلية الازهرية ، وجعلها غير صالحة لأن تسمو
بأصحابها إلى الطمع في أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين
والأمل كبير في أن يصل هذا الصوت إلى من بيدهم الأمر في
الازهر والمعاهد الدينية: فيغيروا ذلك المنهج القديم في دراسة الاخلاق ،
فان في الأزهر ولواحقه نحو عشرين ألفاً من الطلبة تميتهم تلك
المذاهب البالية ، التي يعولون عليها في فهم نزعات النفوس ،
وخلجات القلوب . وسبحان من لو شاء لهدانا وإياهم سواء السبيل !

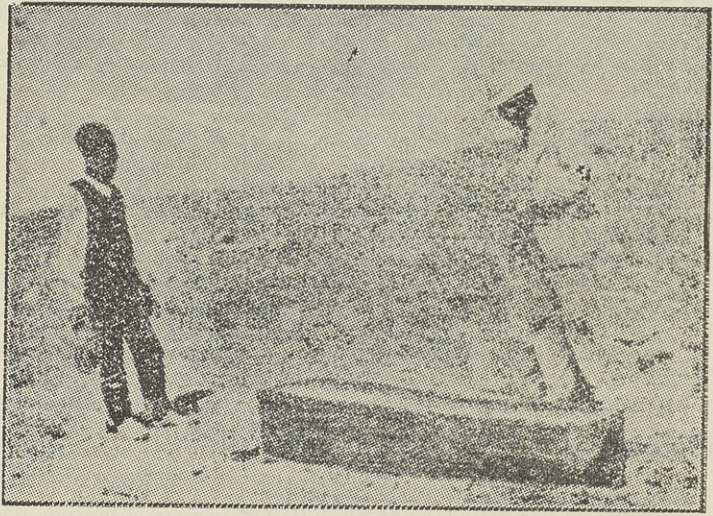


عناية الأجناب بالغزالي

ومما يتصل بتأثير الغزالي في الحياة العامة ، عناية الأجناب
به : فقد كتبت عنه عدة مؤلفات : بالفرنسوية ، والانجليزية ،
والألمانية . ومنهم من يتعصب له فوق ما يفعل المسلمون . ويعده
الدكتور زويمر واحداً من أربعة ويقول : كل باحث في تاريخ
الاسلام يلتقي بأربعة من أولئك الفطاحل العظام . وهم : محمد نبى
المسلمين نفسه ، والبخارى ، والأشعري ، والغزالي .

والدكتور زويمر من المستشرقين الانجليز الذين درسوا العقلية

الشرقية ، وكتابه عن الغزالي من الكتب القيمة ، وتجد فيه من مظهر العناية بالغزالي ما كتبه عن قبره ، نقلا عن خطاب وصله من القس دونالدسن في ١٧ يناير سنة ١٩١٧ ، وقد زار قبر الغزالي ووجد في إحدى زوايا الحجر كلمة (غزالي) و (بوحا) وأصلها بالطبع أبو حامد . وهذا هو الرسم الذي أرسله القس دونالدسن الى الدكتور زويمر عن قبر الغزالي



ومن أجود ما كتب بالفرنسوية عن الغزالي كتاب Carra de Vaux والمسيو كارادي فو هذا رجل خبير بالحياة الاسلامية ، وله كتاب عن ابن سينا أحب أن يطلع عليه من يود أن يعرف شيئاً عن المدارس الفلسفية عند المسلمين ، وإني للأسف حين أقرر

أن المستشرقين يفهمون مذاهب أهل السنة والمعتزلة أكثر من علماء الأزهر الذين اذا عرض لهم ذكر المعتزلة لم يزيدوا على أن يقولوا (قبحهم الله) وقد أخبرني حضرة الاستاذ الدكتور طه حسين أن المسيو كازانوفاً وضع كتاباً عن الغزالي ، واني ملموم في أن غفلت عن هذا الكتاب ، فان الطريقة التي جرى عليها المسيو كازانوفاً في كتابه «محمد ونهاية العالم» طريقة تغري الباحث بتعقب ما يكتب هذا الرجل الدقيق . وآسف أيضاً على أن الظروف لا تسمح بأن أترجم شيئاً من آراء هذا الرجل ، لأن البحث العلمي عنده فوق كل مقام . وانما أدعو من يجب الاطلاع الى مراجعة Mohamet et la fin de monde فان فيه من المباحث ما يواتي شهوات العقول ، وللعقول شهوات !!

وهناك كتاب للمسيو Moher موضوعه :

Etudes sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et Gazali

Lucien gautier ويحسن الرجوع الى المقدمة التي وضعها المسيو

حين نقل الدرّة الفاخرة الى الفرنسية

musulemane ويحسن الاطلاع على الجزء التاسع من المجموعة

السابعة من Journal asiatique وفي مقدور القارئ أن يرجع

الى encyclopédie de l'islam 20 livre اذا اراد أن يعرف ما كتب

عن الغزالي بالفرنسوية والانجليزية والالمانية . وقد أخبرني
حضرة الاستاذ الشيخ مصطفى عبدالرازق أنه علم أن في اللغة التركية
عدة مؤلفات عن الغزالي . وأحسب أن السبيل اليها ممد لمن شاء
وأحب أن يعفني القارئ من تفصيل ما عرف عن نظر
المستشرقين الى الغزالي ومذاهبه الصوفية ، فاني مضطر الى
الاكتفاء بارشاده الى طريق الاطلاع

الفوز للحياة

وبالرغم من تأثير الغزالي في الشرق والغرب ، وتغلغله
في أعماق الحياة العالمية ، فان الفوز فيما يظهر لن يكون لآرائه
في الأخلاق . ولكن سيكون الفوز للحياة
ألا إن الأخلاق كالشرائع . فكما تنهزم الشريعة أمام الحياة ،
كما انهزمت المسيحية لخروجها على مال الحياة من قوانين ، كذلك
تنهزم الأخلاق أمام الحياة ، حين تخلو عما في الحياة من عناصر
وأصول

وهكذا انهزم الغزالي حين نازل الحياة !

حرّم النقش والتصوير ، ولكن النزعات البشرية مشت
في طريقها بقوة . ولم تصدف عن النقوش والتصاوير !
وحرّم الغناء . ولكن مشت الأذواق في سبيلها بقوة ،

ولم تزل ظامئة الى الأناغم والألحان !

وليته حين حرم النقش والتصوير والغناء ، وضع لذلك عِللاً معقولة ! ولكنه حرم التصوير لأنه يدعو الى الوثنية ، وهذا كذب على الواقع ، فطالما أحببنا تهاويل الصّور ، ولم نفكر في الوثنية . وحرم الغناء لأنه يدعو الى شرب الخمر . وهذا ظن مردود ، فطالما سمعنا عبد الطيف افندى البنا و ابراهيم افندى القباني والشيخ عبد السميع عيسى ، ولم نفكر في الخمر ، ولا في مجالس الخمر !!

ليست الأَخلاق شيئاً آخر غير مناهج الحياة . والأخلاق التي تبني بها الأمم ليست ما يعرفه الغزالي من التواضع ، والتوكل ، والحمول ، وانما هي فهم قوانين الحياة . وأحب أن أكرر كلمة الحياة : لأنها عندي غاية الأَخلاق

والفضائل السلبيه كالصبر ، والزهد ، والقناعة ، لن تكون فضائل حتى تقضى الظروف باعتبارها أسلحة ماضية في سبيل الحياة . فقد يكون الحمول من أسباب النباهة وذيوع الشهرة ، كما يكون الصيت أحياناً من أسباب الحمول

ولا قيمة للحياة بغير القوة . فيجب أن تكون الأَخلاق باباً الى الحياة القوية . وطالما شككت في قوله عليه السلام : اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرنى في زمرة المساكين !

الباب الثاني عشر في

أنصار الغزالي وخصومه

قدمنا أن الخصومة كان مشارها الفرق بين الفقه والتصوف
وأن أنصار الغزالي كانوا في الاغلب صوفية ، وأن خصومه كانوا
في الأكثر من الفقهاء . وزيد الآن أن تفقك على ترجمة طائفة
من أنصار الغزالي وخصومه ، ونبين بجانب ذلك شيئاً مما اختص
به أولئك العلماء الذين حاربوا الغزالي أو أيّدوه ، لنهد لك السبيل
إلى فهم الحركة العقلية التي أوجدتها مؤلفات الغزالي ، وسبيلنا
الإيجاز في هذا الباب ، لأن المقام لا يسمح بالتطويل

ابن رشر

ولد في قرطبة سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م . ودرس في صغره الفقه
والتوحيد والاصول . ثم أقبل على دراسة الطب والفلسفة . وكان
له بسبب علمه وفضله عدد من الحساد يتقولون عليه الاقويل .
توفي رحمه الله بمراكش في أوائل سنة ٥٩٥ هـ بعد أن ذاق

الأمرين من نفي واضطهاد ، جزاء ما قدمت يداه من شرح فلسفة
القدماء !

والذي يقرأ حياة ابن رشد ، ويرى مآلقيه في زمانه ، يعلم أن
العرب كانوا يحتضرون ، وأن دولتهم كانت تمشى الى الفناء ، لأن
الذين يحاربون الفكر الحر ، ويضطهدون المفكرين الأحرار ،
لا يصلحون مطلقاً للحياة . وكذلك دالت دولة العرب بعد قليل

وخصومة ابن رشد للغزالي تكاد تكون فلسفية ، فقد وضع
الغزالي كتاباً سماه تهافت الفلاسفة ، والغرض من الكتاب ظاهر
من عنوانه ، فعارضه ابن رشد بكتاب سماه تهافت التهافت ،
والذي يهمني من معارضة ابن رشد للغزالي إنما هو دفاعه عن
ابن سينا والفارابي ، فقد كان الغزالي يراها من الكفار .

ويتأخص دفاع ابن رشد في أن مسألة قدم العالم وحدوثه التي
كانت مثار الخلاف ، إنما كان الاختلاف فيها بين المتكلمين من
الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعاً للاختلاف
في التسمية وبخاصة عند بعض القدماء . فان هناك ثلاثة أصناف من
الموجودات طرفان وواسطة بين الطرفين . وقد اتفقوا في الطرفين
واختلفوا في الواسطة . أما الطرف الأول فهو موجود وجد عن
شيء ومن شيء ، أي عن سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم على

وجوده وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكوّنهما بالحس مثل الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات. وهذا الصنف اتفق الجميع على أنه محدث. وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء ولا تقدمه زمان. وهذا اتفق الجميع على أنه قديم وهو الله. وأما الصنف الثالث فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان، ولكنه موجود عن شيء أي عن فاعل، وهذا هو العالم بأسره. والكل متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم، فإن المتكلمين يسامون بأن الزمان غير متقدم عليه لأن الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام، وهم أيضاً متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه وكذلك الوجود المستقبل، وإنما يختلفون في الزمان الماضي والوجود الماضي فالتكلمون يرون أنه متناه، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته وأرسطو وفرقته يرون أنه غير متناه كالحال في المستقبل. يقول ابن رشد «فهذا الموجود الأخير الأخرى مرفيه بين أنه قد أخذ شبهة من الوجود الكائن الحقيقي ومن الوجود القديم. فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديماً. ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث سماه محدثاً. وهو في الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ولا قديماً حقيقياً. فالمذاهب في العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر، فإن الآراء التي شأنها هذا يجب أن تكون في الغاية من التباعد، أعني أن تكون متقابلة كما ظن المتكلمون في هذه المسألة»

ولم يقف ابن رشد عند هذا الحد ، بل انتقل إلى كلام هو
في الواقع صنف لأدعياء العلم الذين يحسبون قدم العالم وحدوثه من
الأموال الهينة التي يصدرون عنها الفتوى كأنها مسألة طلاق ؛ !
وإليك ما يقول في ذلك :

« مع أن هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر الشرع ، فإن ظاهر
الشرع إذا تُصِفَّح ظهر في الآيات الواردة في الإنشاء عن إيجاد العالم أن
صورته محدثة بالحقيقة . وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين
أعني غير منقطع . وذلك أن قوله تعالى (وهو الذي خلق السموات
والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) يقتضى بظاهره وجوداً
قبل هذا الوجود ، وهو العرش والماء ، وزماناً قبل هذا الزمان ، أعني
المقترن بصورة هذا الوجود ، الذي هو عدد حركة الفلك . وقوله تعالى
(يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) يقتضى بظاهره وجوداً
ثانياً بعد هذا الوجود . وقوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان)
يقتضى بظاهره أن السموات خلقت من شيء »

وهناك صنف ثانياً تفضل بها ابن رشد على علماء التوحيد .
ذلك بأن هؤلاء القوم يختلفون من الأساليب والاصطلاحات
مالا يعرفه الدين ، ثم يقولون : من تعدى هذه الحدود فهو كافر .
فألهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؛ !

وإليك ما يقول ابن رشد في ذلك :
« والمتكلمون ليسوا في قولهم أيضاً في العالم على ظاهر الشرع ، بل

متأولون ، فإنه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا فيه نصاً أبداً ، فكيف يتصور في تأويل المتكلمين في هذه الآيات أن الاجماع انعقد عليه ؛ ثم قال : والظاهر الذي قلناه من الشرع في وجود العالم قد قال به فرقة من الحكماء . ويشبه أن يكون المختلفون في هذه المسائل العويصة إمامصيين مأجورين ، وإما مخطئين معذورين فان التصديق بالشيء من قبل الدليل القائم في النفس هو شيء اضطراري لا اختياري ، أعني أنه ليس لنا أن نصدق أولاً ونصدق ، كما لنا أن نقوم أو لا نقوم ، وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له إذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه السلام : إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر .
وبمناسبة كلام ابن رشد نقرر أن علماء التوحيد أسرفوا في تكفير الفلاسفة بل أسرفوا في تكفير بعضهم البعض ، بأسباب ضعيفة لا يعرفها الاسلام ، وما زالوا يسرفون حتى حفظ عنهم الرأي العام جملة تعابير هي مناط الكفر والإيمان . وفي كتاب فيصل التفرقة للغزالي مظهر لهذه الآراء الفاسدة ، التي ظنها الأولون حقائق ، وهي في الواقع أباطيل

والذي أراه أن مجازفة علماء التوحيد في الحكم بمحدوث العالم ، وفي وصف الله بصفات معينة محدودة ، وفي تعيين مصير العالم بشكل خاص ، كل أولئك يدل على أن هؤلاء الناس كانوا في غاية السذاجة ، وأن نظرهم كان غير بعيد . وستسخر المقادير

منهم يوم تطوى كتبهم وآراؤهم ، ويدخلون فيما يسمى قبل التاريخ ، كما دخل من قبلهم ألوف الألوفا من أصحاب الشرائع والقوانين

ابن تيمية

ولد بخرّان يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ . وقدم به والده الى دمشق في سنة ٦٦٧ حين استولى التتار على حران . وقد تلقى عن والده الفقه والأصول ، ثم عُني بالنظر في الحساب والجبر والفلسفة ، وتقدم للتدريس وسنه دون العشرين . وقد بلغت مصنفاته ثلثمائة مصنف . منها تعارض العقل والنقل والجواب الصحيح في الرد على النصارى واثبات المعاد والرد على ابن سينا واثبات الصفات والرد على الامامية الخ

قال الحافظ ابن كثير : وفي رجب سنة ٧٠٤ راح الشيخ تقي الدين ابن تيمية الى مسجد الفارنج وأمر أصحابه وتلامذته بقطع صخرة كانت تزار وينذر لها هناك . فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، فأزال عن المسلمين شبهة كان شرها عظيما . وبهذا وأمثاله أبرزوا له العداوة . وكذلك بكلامه في ابن عربي واتباعه ، ففسد وعودى ، ومع هذا لا تأخذه في الله لومة لأثم ، ولم يبال بمن عاداه . ولم يصلوا اليه بمكروه . وأكثر ما نالوا منه الحبس ، مع أنه لم ينقطع عن البحث لا بصر ولا بالشام

وكان ابن تيمية كثيرا ما ينشد هذه الأبيات :

لو لم تكن لي في القلوب مهابةٌ لم يطعن الأعداء فيَّ ويقدحوا
كالليث لما هيب خطاله الزبي^(١) وعوت لهيبته الكلاب النباح
يرمونني شُرر العيون لأنني غلّست في طلب العلا وصبّحوا

وقد توفي رحمه الله في صباح الاثنين عاشر ذي القعدة سنة ٧٢٨ وهو في السجن . فأخرج الى الجامع في يوم مشهود لم يعهد في دمشق مثله ، وقد تبرك الناس بماء غسله ، واشتد الزحام على نعشه ، ودفن بمقابر الصوفية بعد أن صلوا عليه مرارا ، وقدر من حضر جنازته من الرجال بمائتي ألف ومن النساء بخمسة عشر ألفا . ورثاه كثير من العلماء منهم ابن الوردي

والذي يعود الى ترجمة ابن تيمية في الكتب التي عُني مؤلفوها بترجمته يعرف كثيراً عن العقلية الاسلامية في القرن الثامن ، ويكفي أن نلفت القارئ الى قولهم «ودفن بمقابر الصوفية» فإن لذلك معاني لا تعزب عن ذهن اللبيب ، وما أريد أن أزيد وابن تيمية من كبار المفكرين في الاسلام ، وإيكنه لا يخلو من سذاجة . فإنك بينما تراه يتوغل في المدركات المعقولة ، تراه ينحدر فجأة في هاوية الأوهام . من ذلك قوله « العلماء هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدي بهم

(١) الزبي جمع زبية وهي الحفرة

في ظلمات البر والبحر. وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرأيتهم ،
اذ كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فعلمواؤها شرارها إلا
المسلمين فان علماءهم خيارهم » ^(١) وهذا بالطبع حكم لا سند له من
معقول ، أو منقول

ويعد ابن تيمية من خصوم الغزالي لأنه كتب فصولاً
كثيرة في تناقضه ، وتسفيه بعض آرائه . ومن أعجب ما رأيت
له ، حكمه بأن الغزالي هجر طريق الصوفية في أخريات أيامه ،
وفي ذلك يقول : « ولهذا تبين له في آخر عمره أن طريق الصوفية
لا تحصل مقصوده فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية ، وأخذ يشتغل
بالبخارى ومسلم ومات في أثناء ذلك على أحسن أحواله ، وكان كارها
ما وقع في كتبه من نحو هذه الامور مما أنكره الناس عليه »
وأنا لا أستبعد كلام ابن تيمية ، فان الغزالي كان متقلباً
في آرائه لا يستقر على حال . فهو تارة فقيه ، وتارة صوفي ، وتارة
فيلسوف

وسبب هجوم ابن تيمية على الصوفية أنه رأى منهم من
يفضل الولي على النبي ، كما رأى من الفلاسفة من يفضل الفيلسوف
على النبي . فانا نراه يمدح ابن سينا لانه يفضل النبي على الفيلسوف
ويسمى طريقه طريق العقلاء ، ويذم الفارابي لأنه يفضل
الفيلسوف على النبي ، ويسمى طريقه طريق الغلاة . ويذم

(١) انظر مقدمة رفع الملام

محيي الدين بن عربي لأنه كان يدعى أنه كان يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به الى النبي ، لأن الملك على أصلهم هو الحال الذي في نفس النبي ، والنبي في زعمهم يأخذ عن ذلك الحال ، والحال يأخذ عن العقل ، فهو على ذلك أفضل من النبي لأنه لا يحتاج إلى وسيط

وأحب أن أنبه القارئ الى أني إنما أذكر تاريخ فكرة من الأفكار الاسلامية ، لا أكثر ولا أقل ، والمؤرخ غير مسئول

ابن القيم

هو من تلامذة ابن تيمية . ولد في سنة ٦٩١ وتوفي سنة ٥٧١ . لقي في حياته ضرراً من الشدة بسبب آرائه الحرة . فقد حبس مدة لا ينكره أن تشد الرحال إلى قبر الخليل . وقد حبس مع ابن تيمية في المدة الأخيرة ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت أستاذه . وله عدة تصانيف . منها مدارج السالكين ، وشرح أسماء الكتاب العزيز ، وتقد المنقول ، والمحك المميز بين المردود والمقبول ، وأعلام الموقعين الخ

وابن القيم هذا من ألد خصوم الغزالي ، وقد نقلنا جملة من آرائه حين تكلمنا عن أغلاط الإحياء ، فلا نعود إليها الآن وأكرر ماقلته من أنني أوجز كل الإيجاز في هذا الباب .

فلهؤلاء الذين أترجمهم آراء هي غاية في الخطورة ، من حيث ما فيها من الدقة ، ومن الجرأة ، مع أنهم فيما أرى كانوا يبالغون في الاحتياط ، لأن العالم الاسلامي كان يضطهد الفلاسفة إذ ذاك . ولو سمح لنا الدهر بوضع كتاب في الفلسفة الاسلامية لاستطعنا أن نرفع عن هؤلاء الأفاضل آصار الخمول

السبكي

هو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ . والسبكي هذا من كبار المؤلفين . وكتابه جمع الجوامع في الأصول يدل على كده وكدحه في سبيل العلم ، وإن كان غايةً في اللبس والغموض . وكتابه طبقات الشافعية الكبرى كتاب جيد ، من حيث ما فيه من عيون المسائل الفقهية ، ومن حيث الترتيب . وعيب السبكي يرجع الى ضعفه في النقد والتمييز ، ولو خلت كتبه من الآراء التي اعتمد فيها على ذاكرته فقط ، لكان لها شأن كبير

ويعتبر السبكي من أنصار الغزالي ، وقد كتب عنه في الطبقات أكثر من ثمانين صفحة ، « ودافع عنه دفاع الأبطال » حين عرض لخصومه . وهو يعتقد بكل سذاجة أنه لو لم يكن لدى

المسامين غير كتاب الاحياء لكفى !! وما أريد أن أطيل في الكلام
عن السبكي ، فقد عرضنا له عدة مرات

الزبيدي

هو محمد بن محمد الحسيني الزبيدي . وهو من علماء القرن
الثاني عشر ، وقد وضع شرحاً مطولاً للإحياء في عشر مجلدات ،
انتهى من تأليف الجزء الأول منه في يوم الجمعة ٢٥ محرم سنة
١١٩٣ هـ . وفي هذا الجزء كتب دفاعه عن الغزالي

وهو من أشد أنصار الغزالي ، ولكن دفاعه عنه دفاع
سخي ، لا قيمة له ، لا في نظر الشرع ولا في نظر العقل . من
ذلك قوله في تأييد ما يراه الغزالي من أن الزواج ميل إلى الدنيا :
« وأما كون التزويج من جملة الميل إلى الدنيا فهو ظاهر ، لأنه
في الغالب يطلب للاستمتاع : وذلك لا يحصل إلا بالوقوع في الآفات
التي كان عنها يعزل أيام عزوبته ، لاسيما ان كان متجرداً عن القيام بالاسباب
التي تجلب له أمر معاشه فانه يتلف بالكلية ، ويلزمه الرياء لكل من
أحسن اليه بلقمة أو خرقة أو غيرها فأبغض الخلق اليه من يذمه عنده
خوفاً من ان يتغير اعتقاده فيه فيقطع عنه بره فكان عبادة هذا كلها
لأجل الذي أحسن اليه »

وهذا كلام غير مفهوم في الواقع ، فضلاً عن أن يكون
دفاعاً عن رأي يرى الناس أنه غير صواب

الباب الثالث عشر

في

الموازنة بين الغزالي وبين الفلاسفة المحمدين

هذا باب إذا أطلته طال ، لأن لآراء الغزالي أشباها كثيرة ،
في الفلسفة الحديثة . وتحملني الرغبة في الايجاز على الاكتفاء بأهم وجوه
المقابلة بينه وبين الفلاسفة المحدثين . وحسبي أن أدل القارئ على
كيفية السير في هذا الطريق

الغزالي وديكارت descartes

أقرب الفلاسفة شهماً بالغزالي هو ديكارت لأنه ارتاب كما
ارتاب الغزالي ، وبقي في شكه وارتياحه زمناً غير قليل
ولد ديكارت في لاهاي سنة ١٥٩٦ م أي بعد الغزالي بنحو
٥٣٠ سنة . تلقى العلم في مدرسة يسوعية ، كأكثر الأطفال
لعهده ، وحمله جده ونشاطه على دراسة اللغات القديمة ، والأساطير
والتاريخ ، والبلاغة ، والشعر ، والرياضيات ، والأخلاق ،
واللاهوت . ولم يقنع بذلك ، بل قرأ كل ما وقع في يده من نادر
المؤلفات ، كما حدثت عن نفسه . ورحل إلى باريس في السادسة
عشرة من عمره ، وتطوع في الجندية ، وعمل عدة سياحات

في ألمانيا ، والسويد ، والدانمارك ، ثم استقر في هولنده ، حيث رأى الإقامة فيها أنفع لنشر آرائه بحرية لم تسمح بها فرنسا اذ ذاك وبعد أن أقام في هولنده عشرين سنة ، مكبا على وضع مذهبه ، دعته كريستين ملكة السويد لتتلقى عنه العلم ، ولكنه لم يتحمل برد تلك البلاد ، ففضى نخبه في سنة ١٦٥٠ بعد أن أمضى نحو سنة في ستوكهولم ، ثم حملت جثته الى فرنسا في سنة ١٦٦٧ ودفن بكنيسة saint-étienne

مؤلفات ديكارت

يعتبر ديكارت في نظر مؤرخي الآداب الفرنسية أول رجل عبر عن آرائه الفلسفية بلغة واضحة ، وجعل لغة الفرنسيين لغة فلسفة ، بعد أن كان الفلاسفة من قبله يكتبون فلسفتهم باللغة اللاتينية . وأهم ما يعيننا من مؤلفاته :

- | | |
|--------------------------------------|----------|
| règles pour la direction de l'esprit | أولاً — |
| discours de la méthode | ثانياً — |
| méditations métaphysiques | ثالثاً — |
| les principes de la philosophie | رابعاً — |
| les passions de l'âme | خامساً — |

ففي هذه المؤلفات بسط ديكارت آراءه الفلسفية . فليرجع

إليها من شاء ، فانه لا يوجد عنه شئ مقنع بالعربية

شكوك ديكارت

وكما ارتاب الغزالي حين رأى صبيان النصارى لا نشوء لهم إلا على التنصّر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الاسلام ، فقد ارتاب ديكارت حين رأى شيوع التقليد ، ورأى الناس في الأكثر إما أن يكونوا ضعفاء لا يقدرّون على تمييز الحق من الباطل ، فيتبعوا آراء غيرهم بلا بصيرة ، وإما أن يكونوا أقوياء ، فيسرعوا الى الحكم ثقة بقوتهم ، فاذا شكوا بعد ذلك ، فقد لا يهتدون إلى سواء السبيل

ومما حمل ديكارت على الشك ، ما رآه في أسفاره من اختلاف العادات والآراء ، وتباين العقائد والمدركات ، وما تبينه من تأثير التربية ، في التفرقة بين أخلاق الشعوب

وأهم ما تنبه له في رحلاته ، الشك في قيمة الرأي العام ، والاستهانة بكثرة الأصوات . لأنّ اجماع الأمة على رأى ، لا يدل على أنه رأى الأمة ، فقد يكون رأى فرد واحد ، مُجملت عليه الأمة لسبب من الأسباب

وآراء الفلاسفة كانت مما حمل ديكارت على الارتياب ، إذ كما

يوجد رأى غريب بعيد التصديق إلا وقد قال به فيلسوف

ولكن ديكارت كان في ارتيابه أصرح من الغزالي . فيما
نجد الغزالي يحدثنا بأنه دام قريباً من شهرين على مذهب السفسطة
« بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال » أي انه لم يكشف الناس
بشك إلا حين أجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديسه ، نجد ديكارت
يتطلب الأماكن الصالحة لنشر شكوكه ، ونجده يحكم ببطلان
الآراء التي بنى عليها آراءه حين ظنّها حقة ، وبوجوب التخلي
مرة واحدة عن جميع آرائه ، ليضع بناءً جديداً على أساس جديد
ونرى الغزالي شك في المحسوسات ، لأنه ينظر الى الظل
فيراها واقفا لا يتحرك ، فيحكم بنفي الحركة ، ثم يعرف بالتجربة
والمشاهدة ، أنه يتحرك ولكن بالتدريج . ثم نراه همّ بالشك
في العقليات ، لأنه يعتقد في النوم أموراً ، ويتخيل أحوالاً
يعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ثم يستيقظ فيعلم أنه لم يكن لجميع
متخيلاته ومعتقداته أصل ، فيسأل : بم تأمن أن يكون جميع
ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة الى حالتك ،
وقد يمكن أن يطرأ عليك حالة أخرى تكون نسبتها الى يقظتك
كنسبة يقظتك الى منامك ؟

كذلك نجد ديكارت يقرر أن الأشياء التي سلم بأنها أثبت
من غيرها وأصح ، إنما كان اعتمدها في صحتها وثباتها على الحواس ،

وقد تبين غير مرة أن الحواس خداعة — وهو كذلك يرى في نومه تصورات يعلم حين يستيقظ أنها باطلة ، فمن أين يعرف فضل اليقظة على المنام ، أو فضل المنام على اليقظة ، وهو في كليهما مُضَلَّلٌ مُخَدَّوعٌ ؟ !

الفرق بين الغزالي وديكارت

الفرق عظيمٌ جداً بين الغزالي وديكارت ، فإن الغزالي خرج من شكه بطريقة لا تصل بأحد إلى يقين ، خرج من شكه بنور الله ، ونور الله هذا لا يعرفه العلم ، حتى يضمه إلى ماله من أصول . والغزالي نفسه يشعر بذلك ، فقد نراه يحكم بأن من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة ، وينقل أن رسول الله لما سئل عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قال : نور يقذفه الله في القلب فيشرح به الصدر فليل وماعلامته ؟ قال : التجافي عن دار الغرور ، والانتابة إلى دار الخلود . يقول الغزالي : وهو الذي قال صلى الله عليه وسلم فيه (إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره) فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف !!

ومادام الغزالي لم يرجع عن شكه « بنظم دليل وترتيب كلام »

كما قال ، فمن العبث أن نستعين العقل والمنطق لنخرج من ظلمات الشكوك . وهذا يناقض كل المناقضة ما فعله ديكرت للخروج من شكوكه ، وكذلك كان الغزالي سبباً لحدوث الفلسفة في الشرق ، كما كان ديكرت سبباً لهوضها في الغرب

أسلوب ديكرت

لم ير ديكرت من الحكمة أن يخرج على ما في بلاده من عادات وقوانين ، بل رأى من الخير أن يحافظ على الدين الذي نشأ عليه ، وأن يسير على أكثر الأمور قبولا واعتدالا عند أهل عصره ، حتى يتمكن من وضع مذهبه في طمأنينة وسكون ويقول پول جانيه paul Janet إن ديكرت حين اقتنع بعدم كفاية العلوم المعروفة لعصره ، لم يركن الى الارتياح كما فعل مونتيني montaigne بل رأى من الواجب أن يبني صرح العلم على أساس جديد . وكذلك يمكن أن نقول إن الغزالي انهزم أمام شكوكه ، ولكنه لم يركن الى الارتياح كما فعل مونتيني ، ولم يفكر في وضع العلم على أساس جديد كما فعل ديكرت ، ولكنه انتظر هداية الله ، والله يهدي من يشاء :

وأول ما يبدأ به ديكرت هو الدعوة إلى نبذ الكتب وتحكيم العقل ، لأنه يرى أن المؤلفات التي تنطوى على مختلف

الاراء ، ليست أقرب إلى الحقيقة من التعقلات البسيطة التي يقوم بها رجل سليم الذوق ، وقد لمس الأشياء بيديه . والمهم عنده أن تحسن التفكير، لا أن تعرف كيف فكر الناس . والبناء الذي قام به مهندس واحد ، خير عنده من البناء الذي يقوم به عدد من المهندسين ، فان وَحدة الذوق من موجبات الجمال

ويرى ديكرت أنه لوضع فلسفة جديدة ، يجب أن يوضع أسلوب جديد . والأسلوب المختار لديه هو الأسلوب الرياضي ، لأنه يعصم الفكر عن الخطأ والضلال
وقد وضع لأسلوبه هذه القواعد الأربع :

أولاً — لا يصح قبول شيء على أنه حق ، ما لم يُعرف (ما هو) بغاية الوضوح

ثانياً — تقسم كل مسألة صعبة الى ما يمكن أن تشتمل عليه من الأجزاء ، ليكون ادراكها سهل المنال

ثالثاً — ترتيب التفكير ، والابتداء بالموضوعات السهلة البسيطة ، للوصول الى الموضوعات المركبة

رابعاً — فرض نظام في الموضوعات التي لا يسبق بعضها بعضاً في الطبع

يقول بول جانيه « وهذه القواعد الاربع في ذهن ديكرت معنى جد محدود . والقاعدة الاولى تظهر كأنها عادية ، وليس كذلك ،

فإن إغفال كل سلطة ، وإقرار الاستقلال المطلق للعقل ، كان في أوائل القرن السابع عشر جرأة وبدعة ^(١) . ومن جانب آخر ينبغي أن تفهم كلمة (وضوح) فإن كل مانعته بقوة ليس واضحاً ، ولأجل وضوحه ينبغي أن يخلص العقل من كل تأثير للحواس والخيال ، ليدرك الأفكار بوضوح وتميز . فإن مدركات الحواس مختلطة ، والآراء المعقولة هي التي تولد من أعماق العقل واضحة متميزة . وكذلك لا يوجد واضح محسوس ، إذ كل واضح معقول »

والجارحة التي تدرك الحقيقة مباشرة هي البصيرة intuition ولا يريد بها ديكارت ما يتغير من أحكام الحواس والخيال ، وإنما يريد بها إدراك العقل السليم اليقظ : الإدراك السهل الواضح الذي لا يتطرق إليه أي شك ، الإدراك الحازم الذي يولد فقط من أضواء العقل

وبموجب هذه البصيرة يستطيع كل إنسان فيما يرى ديكارت أن يعلم أنه موجود ، وأنه يفكر . ويستطيع كذلك أن يعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن $2 + 2 = 4$ كما أن $1 + 3 = 4$ لأن هذه الأحكام مدركة بغاية الوضوح والجللاء

وديكارت يبدأ بنفسه فيفرض أن جميع ما يراه باطل ، فإذا يمكن أن يعتبر صحيحاً حينئذ ؟ قد لا يثبت إلا عدم وجود شيء يقيني في العالم ، وإسكن يبقى بالطبع أن هناك إنساناً شك ، وأن

(١) بدعة : هي الكلمة التي اخترناها لترجمة كلمة nouveauté لأنها أقرب إلى المراد

هذا الانسان لا محالة موجود . وهنا يقول ديكارت كلمته المأثورة
Je pense, donc Je suis . أنا أفكر ، فأنا إذن موجود . ولا
بأس فيما يرى ديكارت أن يُعشَّ الانسان ويُخدع ، فان هذا يدل
فقط على أنه رأى الأشياء مرة على غير ما هي عليه ، ولا ينافي أنه
كائن موجود . ويرى ديكارت أنه قد يرغب في أشياء لن تكون
فالمرغوب فيه موهوم ، ولكن الرغبة نفسها حقيقة لا خيال
وجملة القول في أسلوب ديكارت أنه لا شيء أوضح لديه من
فكره ، فهو يؤمن أولاً بوجوده ، ثم ينتقل إلى الأشياء يقيس
وجودها بقدر ما فيهما من الوضوح ، لأن القاعدة عنده أنه لا يصح
قبول شيء على أنه حق حتى يعرف « ما هو » بغاية الجلاء
ولفلسفة ديكارت كثير من الخصوم والأنصار ، ولا يسمح
لنا الوقت بتفصيل ما قيل في النيل منه ، والدفاع عنه ، وربما عدنا
إليه في مؤلف خاص

٢

الغزالي وبسكال pascal

ولد بسكال في كليرمون في ١٨ يونيه سنة ١٦٢٣ وانتقل به
أبوه الى باريس في سنة ١٦٣١ حيث اتصل بكثير من علماء ذلك
العصر ، وكان أول أستاذ لبسكال هو والده الذي عنى بتربيته على

قوة الفكر ، وحسن الاستنباط . وقد شغف بسكال بالرياضة ،
وألف فيها وهو يافع . ثم مال إلى الفلسفة ، ولكنه لم يعول على
عقله ، بل أسلم نفسه لهواجس دينية ، حُمِلَ عليها بضعف صحته ،
واضطراره إلى حياة العزلة والانفراد

واشتهر بسكال بكتابه الأفكار *pensées* وهو مجموعة آراء
جمعت وطبعت بعد وفاته ، وكتابه *lettres provinciales* يمثِّل
رأيه في حياة القسيسين والرهبان

ووجه الشبه بين الغزالي وبسكال هو أن كلا منهما ابتداءً
حياته بقوة قهارة ، ثم انتهت به صحته إلى الرضى بالتحول في ضلال
التنسك والزهد ، فقد رأيت كيف أقبل الغزالي على كل علم ،
وكيف درس كل النحل ، وعرف بواطن جميع الفرق ، ثم رأيت
كيف رضى بوساوس الصوفية ، وعدَّ كل ما سوى مذهبهم
ضلالاً في ضلال !!

وكذلك ابتداءً بسكال حياته بتأييد مذهب ديكرت ،
والتحمُّس لنصرة العقل ، ومحاربة الوسوس القديمة . حتى لنجده
يدافع عن الشهوات الكبيرة التي توجد الأعمال العظيمة ، كالحب
والطمع . وذلك في رسالته *discours sur les passions de l'amour*
ولكن صحة بسكال أخذت تسوء يوماً بعد يوم ، واضطر إلى
العزلة في *port-royal* واختار الفلسفة الصوفية التي لخصها

في محادثته مع مسيو دي ساسي كما قال بول جانيه ، ثم عوّل أخيراً
على الاكتفاء بالانجيل

ومما يقرب بسكال من الغزالي شكه في قوة الطبيعة الانسانية ،
فهو يرى أن الانسان مملوء بالخطأ الغريزي الذي لايزول الا بعناية
الله . وليس هناك شيء يهدي الانسان الى الحقيقة ، بل كل شيء
يخدعه . ومع أن العقل والحواس أصلان للحقائق فإن كلا منهما
يخدع صاحبه ، والناس يدعو بعضهم بعضا الى الخداع : فهم يتبادلون
المدح لعامهم فيما بينهم بكمراهة الحقيقة التي تنافي المدح ، وكذلك
لا يتكلم امرؤ في حضرتك كما يتكلم في مغيبك ، فالانسان في نظر
بسكال مجموعة من الكذب والزور والنفاق

وقد بالغ بسكال في احتقار العقل . تم تمنى لو أنه عرف جميع
الأشياء بالوحي والشعور ولم يحتج أبدا الى العقل !! ويتهم بسكال
عقله باغرائه بالشك . ويعتقد أن الدين لا يأتي مطلقا من ناحية
العقل ، وانما يأتي من شعور القلب ، ومن هداية الله ، ويجوز أن
يأتي الدين من طريق العقل ، ولكن مثل هذا الدين لا ينفع
للنجاة !! وهذا بالطبع اسراف

الفيزيائي وهوبس hobbes

ولد هوبس في إنجلترا سنة ١٥٨٨ ورحل الى باريس في سن
الأربعين حيث درس الرياضيات وعلوم الطبيعة . ثم زار فرنسا
مرة ثانية ، وأقام فيها مدة طويلة ، واتصل صلة متينة بالفيلسوف
جسّندي صاحب الفضل على موليير وڤولتير . ثم مات في إنجلترا
سنة ١٦٧٩

وأشهر مؤلفات هوبس هو كتابه la nature humaine
وكتابه leviathan أو la matière, la forme et l'autorité du
gouvernement وفي هذا الكتاب الأخير دافع عن الأثرة ،
والاستبداد ، فقد كان هوبس من غلاة الماديين ، والاحساس
عنده ليس الا حركة من حركات المنخ ، وهذه الحركة متى وافقت
الوظائف الحيوية أنتجت اللذة ، واللذة تولّد الرغبة ، والرغبة
توجد الإرادة . فليست الإرادة إذّا إلا رغبة مُسيطرّة . وهوبس
لا يعرف باعثاً للعمل غير طلب اللذة ، أو الهروب من الألم .
والعواطف عنده ليست إلا صوراً لحب الذات
وهوبس من أصحاب نظرية العقد الاجتماعي contrat social

التي عُنى بها جان چاك روسو فيما بعد . ويرى هوبس أن الانسان
مفطور على الأثرة والشره ، وأن جميع أعماله إنما هي سُلم إلى
مطامعه . وهذه الفطرة جعلت الحياة الطبيعية مرة المذاق ، لطمع
القوى في الضعيف . ويتخيل هوبس أن آباءنا الأولين لم يروا
سبيلا إلى السلامة من شر الأقوياء غير الانضمام تحت لواء سلطة
بشرية تدفع عنهم عادية المطامع ، وهذه السلطة تمثل في الملك ،
ولهذا الملك جميع الحقوق التي كانت لجميع الأفراد قبل التعاقد ،
وليس عليه إلا واجب واحد : هو حفظ الأمن

ويرى هوبس تأييداً لنظريته أن الدين الحق هو دين الدولة
مهما كان جوهره ، وعلى كل فرد الخضوع له ، والخروج عليه
كفرو ومروق

ويظهر مما سلف أن هوبس يريد بنظرية العقد الاجتماعي
تأييد الملكية ، ولا كذلك روسو حين دافع عن هذه النظرية
فانه يرى أن حياة الطبيعة كانت حياة نعيم ، وأن الناس لما أفسدوها
بأنفسهم اضطروا إلى أن يتنازل كل فرد منهم عن جزء من حريته
ليتكون من مجموع هذه الاجزاء قوة مدنية تدافع عن الجميع ،
وهذه القوة لا تمثل في الملك كما يرى هوبس ، وإنما تمثل في شخص
هو مندوب الامة ، ولها عزله حين تريد

إلى هنا لا يرى القاري أي تناسب بين هوبس وبين الغزالي
والواقع أن الجمع بينهما بعيد، لأن الغزالي رجل توضيحية وإيثار،
والخير عنده يرجع في الأكثر إلى نفع الناس، في حين أن هوبس
يرى الخير في أن يعمل المرء لنفسه، قبل أن يحلم بسواه. ولكني
رأيت بعد البحث أنهما يتفقان في تكييف وجهة الطبيعة
الإنسانية، وأن اختلافاً في غاية الاخلاق، فإذا كان هوبس يرى
أعمال المرء مظهراً للأثرة، ويرى حب المرء لجاره ليس إلا ضرباً
من حب النفس، وأن طاعته للقوانين الأخلاقية ليست إلا سعيًا
في سبيل نفعه، فكذلك الغزالي يتهم أكثر العاملين بالرياء،
ويرميهم بحب الذات

والغزالي يسيء الظن بالطبيعة الإنسانية، ويرى العمل
في الأغلب لا يراد به إلا نيل الثواب، أو الفرار من العقاب،
ولا يزال بالطبيعة الإنسانية يفحصها ويسبر أغوارها بمسبر الشك
والارتياب، حتى يصل بعد الفحص إلى أن هناك رياءً « هو أخفى
من ديب النمل » ومن كلامه: رب عبد يخلص في عمله، ولا
يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره
ذلك وارتاح له، وهذا السرور يدل على رياء خفي، فلو لا التفات
القلب إلى الناس ما ظهر سروره عند اطلاع الناس

والفرق بين الغزالي وهوبس ، يرجع الى أن هوبس يريد أن يجعل وجهة الطبيعة الانسانية أساساً للاخلاق ، فيكون الخير ما ينفع المرء ، والشر ما يضره . ولكن الغزالي يرى أن الخير لا يكون إلا حيث ينتفع المرء ولا يضر غيره ، لان وجهة الغزالي وجهة إسلامية ، لا ضرر فيها ولا ضرار .



الغزالي وبوتلير butler

بوتلير هو فيلسوف انجليزي ولد سنة ١٦٩٢ وتوفي سنة ١٧٥٢ وهو يعول أكثر من الغزالي على الفطرة الانسانية وعنده أن المرء يستطيع بنفسه أن يدرك ما في عمله من الخطأ والصواب قبل أن يقدم عليه ، وان لم يعلم شيئاً من المباحث الاخلاقية . ويرى أنه لا شئ يدعونا إلى طاعة قانون الاخلاق غير اعتماده على السريرة ، ولا يرى بوتلير فرقا بين السريرة التي تحتم طاعة الاخلاق وبين حب النفس ، مادنا نفهم سعادتنا الحقيقية فان الواجب والمنفعة لا يختلفان عنده ، وهنا يتفق مع الغزالي بعض الاتفاق ، لان وجهة الغزالي اسلامية ، والاسلام يرى المنفعة في الواجب ، وان كان لا يرى الواجب في المنفعة ، فان هذا شئ قد يكون وقد لا يكون . إلا إن أردنا ما هو نافع

في الواقع . على أن بوتلير يقيد اتفاق المنفعة مع الواجب بالامور
الاخروية ، ويرى اتفاقهما في الامور الدنيوية كثير الوقوع ،
لا واجب الوجود

وأجل ما في بوتلير حكمه على الفضائل بأنها قانون الطبيعة ،
في حين أن الغزالي يراها ضرورياً من التكليف

٥

الغزالي وكارليل karlyle

ولد كارليل سنة ١٧٩٥ في قرية اكلفكان بجنوب اسكوتلانده
من والديشغل بصناعة البناء . تلقى مبادئ العلم في قريته . ثم دخل
جامعة ادنبرج في الثالثة عشرة من عمره . وفي التاسعة عشرة من
عمره صار مدرسا للرياضة بمدرسة أنان ، وبعد ثلاث سنين صار
رئيس مدرسة ببلدة كركالدى . وفي سنة ١٨١٨ ترك مهنة التعليم .
وذهب الى ادنبرج ، وهو لا يدري ماذا يعمل ، ولكنه درس علم
المعادن ، واضطر من أجله الى تعلم الألمانية التي كانت سببا لذيوع
شهرته . وتوفي سنة ١٨٨١

وكارليل هذا من كبار الفلاسفة ، ومن أعظم المدافعين عن
الديانات . حتى لنجده يدافع عن الوثنية ، لأنها في رأيه ليست الا
إفراطا في العجب من الشيء ، حتى ينقلب هذا العجب تقديسا

وعبادة ، ولأنه يرى أن الأقدمين ما قدسوا شيئاً إلا لأنه إله ،
أورمز الى آله . ومن آثار كارليل كتاب الأبطال الذي ترجمه
الأستاذ محمد السباعي . وفي هذا الكتاب فصل ممتع عن
النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه . كان سبباً في تغيير وجهة
أنظار الأجانب نحو الاسلام . ومن كلامه في ذلك :

« لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد مهذب من أبناء هذا
العصر أن يصنحى الى ما يُظن من أن دين الاسلام كذب ، وأن محمداً
خداع مزور . وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة
المخجلة . فان الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة
اثنى عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذي
خلقنا . أفكان يظن أحدكم أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها
هذه الملايين الفاتئة المحصر أ كذوبة و خدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع
ان أرى هذا الرأي أبداً . ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق
الله هذا الرواج . ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول . فما
الناس إلا به وبجانين ، وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة ، كان الأولى
بها أن لا تخلق . فوا أسفاه ! ما أسوأ مثل هذا الزعم . وما أضعف أهله ،
وأحقهم بالرثاء والمرحمة ! »

وقد دافع كارليل عن الاسلام خير دفاع ، فناقش من رموه
بالقسوة ، واستعمال السيف ، وبين أن المسيحية نفسها لجأت إلى
القوة حين لم ينفع التسامح . ورد على من زعموا أن القرآن مملوء
بالتعقيد ، وبين أن سبب هذه التهمة هو عجز الترجمة عن نقل

بلاغه القرآن وحلاوته . وعارض من نسبوا الى رسول الله
الهفوات ، وأكد أن طلب العصمة طلب سخيف ، فان العصمة
لله وحده ، وأكبر الهفوات عنده أن يحسب المرء أنه برىء من
الهفوات

الكفر والايمان

يتفق الغزالي وكارليل في أن كلاَّ منهما مؤمن ثابت اليقين ،
ويختلفان في فهم السريرة الانسانية ، وفي نتيجة التفكير . فالغزالي
لا يعترف للضمير بالصلاحية للحكم ، وانما الشرع هو الفيصل
في الحسن والقبح ، فما حسنه الشرع فهو حسن ، وما قبحه فهو
قبيح . ولكن كارليل يرى أن الشعور بالواجب معنى أبدي ،
وهو جزء من الطبيعة الانسانية ، فهو قوة غريزية لا تحتاج
في كسبها إلى شرائع ولا قوانين

ونتيجة التفكير محترمة عند كارليل ، وهو لا يصدق بأن
الإلحاد والتفكير يجتمعان في قلب رجل واحد . والاخلاص
عنده هو الأساس . ومن كلامه : « يرجي لنا أن تفهم معنى الوثنية
متى سلمنا أولاً أنها كانت في حين من الأحيان ديناً صحيحاً في اعتقاد
أهلها . فلنوقن كل اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الايمان
ولم يكن بهم من ذهول ولاجنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك
أصحاء العقول والحواس ، أيقاظاً قد صورهم الله على صورنا ، وخلقهم

نخلقنا ، لا فرق بيننا وبينهم في حال من الأحوال . ولنوقن كذلك أنا
لو كنا وجدنا معهم ، لا منا بما كانوا يؤمنون به ، ولكننا وإياهم سواسية
في سائر الأشياء »

ويتلخص رأى كارليل في أن كل دين فيه عنصر من الحق ،
والوثنية عنده ليست إلا رموزاً شعرية ، وتمثيلاً بالمرئيات لما
جرى في وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره . وكل
دين فيما يرى إنما هو رمز وتمثيل . ولكن الاختلاف هو
في المشاعر والافكار . والفرق بيننا وبين الوثنيين يرجع إلى
الشكل أكثر مما يرجع إلى الجوهر ، لأن كلا منا يرى
التفكير في ملكوت الله نوعاً من العبادة ، ونحن لو أغرنا
بالكون كما أغرم الوثنيون به ، لرأينا الله في كل نجم ، بل
في كل زهرة

رأى الغزالي في الاجتهاد

لا يمكن لامرئ أن يكفر ، في نظر كارليل ، مادام مخلصاً
في عقيدته ، مهما كانت تلك العقيدة . ولكن الغزالي يرى أن
الاجتهاد له حد محدود . والمختار عنده أن الإثم والخطأ متلازمان
فكل مخطئ آثم وكل آثم مخطئ ، ومن اتقى عنه الإثم اتقى عنه
الخطأ ، وهو يقسم النظريات إلى ظنية وقطعية : ولا إثم
في الظنيات إذ لا خطأ فيها . والقطعيات عنده ثلاثة أقسام :

كلامية ، وأصولية ، وفقهية . ويعنى بالكلامية العقليات المحضة ،
والحق فيها عنده واحد . ومن أخطأ الحق فيها فهو آثم . ويدخل
في هذا القسم حدوث العالم ، وإثبات المحدث ، وصفاته الواجبة
والجائزة والمستحيلة ، وبعثة الرسل وتصديقهم بالمعجزات ، وجواز
الرؤية ، وخلق الأعمال ، وإرادة الكائنات ، وجميع ما الكلام فيه مع
المعتزلة والخوارج والروافض والمبتدعة . فهذه المسائل الحق فيها
عنده واحد ، ومن أخطأه فهو آثم : فإن أخطأ فيما يرجع الى
الايان بالله ورسوله فهو كافر . وإن أخطأ فيما لا يمنعه من معرفة
الله عز وجل ومعرفة رسوله ، كما في مسألة الرؤية وخلق الأعمال
وإرادة الكائنات ، فهو آثم من حيث عدل عن الحق وضل ،
ومخطى من حيث أخطأ الحق المتيقن ، ومبتدع من حيث قال قولاً
مخالفاً للشهور بين السلف ، ولا يلزمه الكفر . ويعنى بالأصولية
كون الإجماع حجة ، وكون القياس حجة ، وكون خبر الواحد
حجة الخ . وهذه المسائل أدلتها عنده قطعية ، والمخالف فيها مخطىء
آثم . والفقهيّات بعضها يكفر المرء بإنكاره ، وبعضها يآثم بجهوده
فإنكار تحريم الخمر والسرقه ووجوب الصلاة والصوم ، كفر .
وإنكار الفقهيّات المعلومة بالاجماع خطأ وإثم

تحرير هذه المسألة

الأصل في الحكم الأخلاقي أن يتبع غرض العامل من عمله : إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فالعمل الذي أريد به الخير ، هو خير : وإن كان ضاراً في ذاته . والعمل الذي أريد به الشر ، هو شر : وإن كان نافعاً في ذاته . ويطالب الرجل فقط بأن يتروى قبل أن يعمل ، ليعرف ما في العمل من ضر ونفع ، وخطأ وصواب . ومتى أفرغ الجهد في البحث فقد أمن المسؤولية ، واستحق حسن الجزاء .

ولقد تتبعت ما كتبه علماء المسلمين في هذه المسألة فرأيتهم لا يكادون يهتدون . وسبب ضلالهم يرجع الى أنهم خلطوا بين الوجهة الأخلاقية ، والوجهة القضائية ، وكان يجب عليهم أن يفصلوا بين الوجهتين . فالذي يقتل مساماً خطأً مدين من الوجهة القضائية ولكنه بري من الوجهة الأخلاقية ، لأنه لم يقصد القتل . والشرع محق في اعتماده على الوجهة القضائية ، لأن فيها استئصالاً للجرائم ، ولأن القاضي متى عذر كل من ادعى الخطأ فقد يفلت منه كثير من المجرمين

والذي يدل على أن وجهة الشرع وجهة قضائية صرفة ، أنه يكتبني بإيمان المقلد . مع أن الإيمان لا ينفع فيه التقليد .

ويقول الباجوري في ص ٣٢ من حاشيته على الجوهرة ما نصه :
(والخلاف في ايمان المقلد انما هو بالنظر لأحكام الآخرة وفيما
عند الله . وأما بالنظر الى أحكام الدنيا فيكفي فيها الإقرار
فقط . فمن أقر جرت عليه الأحكام الاسلامية ، ولم يحكم عليه
بالكفر ، إلا إن اقترن بشئ يقتضى الكفر كالسجود لضم)
وهذا واضح الدلالة على أن النجاة لا تكون باتباع الشرع . ولكن
بالايمان به . والايمان ثى آخر غير ظواهر الأعمال

الخطأ والعناد

كان على الغزالي أن يفرق بين من يخطئ في العقليات بعد
اجتهاده ، وبين من يعاند . فان الأقرب الى الحق أن ينجو من
نظر في الشريعة الاسلامية من الفلاسفة بنية حسنة وبقصد
الاقتناع ، ولكنه بعد البحث لم يقتنع ، ولم يقف مع هذا في وجه
المسامين . ولو أن الغزالي نظر هذه النظرة ، لما كفر ابن سينا
والفارابي ، إلا إن أمكن أن يثبت عندهما العناد ، مع انهما لم
ينكرا الرسالة المحمدية ، ولكن الناس لعهد الغزالي كانوا فيما يظهر
مصابين بداء الشك في عقائد الفلاسفة ، ورميهم بالروق
وقد جرت بيني وبين فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى مناقشة

في هذه المسألة منذ ثلاث سنين ، فكان فضيلة الأستاذ يرى أن الكفر يكفي فيه الجهل ، وكنت أرى أنه لا يتحقق إلا بالعناد . ثم رأيت فيما بعد أن الجاحظ يرى هذا الرأي . وقد نقل الغزالي في المستصفى « أنه ذهب الى أن مخالف ملة الاسلام ، من اليهود ، والنصارى ، والدهرية ، ان كان معاندا على خلاف اعتقاده فهو آثم ، وان نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضاً معذور . وانما الآثم المعذب هو المعاند فقط : لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفاً من الله تعالى اذا استمد عليهم طريق المعرفة » وينسب ابن الحاجب الى الجاحظ أنه قال : لا إثم على المجتهد مع أنه مخطئ ، وتجري عليه أحكام الكفار ، بخلاف المعاند فإنه آثم » وهذا يدل على أن الجاحظ مع حكمه بنفي الإثم عن المجتهد المخطئ يرى معاملته كما يعامل الكفار ، وهذه بعينها الوجهة القضائية التي حدثتك عنها منذ قليل

ويظهر أنه كان لهذا الرأي أنصار فيما سلف ، فقد جاء في فصول البدائع ص ٤٢٤ ج ٢ مانصه (وما نقل عن بعض السلف من تصويب كل مجتهد في المسائل الكلامية كخلق القرآن ، ونفي الرؤية ، وخلق الأفعال ، فمعناه نفي الإثم والمعدورية ، لاحقية القول والمأجورية) وجاء في إرشاد الفحول ص ٢٤١ مانصه (مسألة الرؤية ، وخلق القرآن ، وخروج الموحدين من النار ، وما يشابه ذلك : الحق فيها واحد ، فمن أصابه فقد أصاب ، ومن أخطأه ففيل يكفر . ومن القائلين بذلك الشافعي

فمن أصحابه من حمّله على ظاهره . ومنهم من حمّله على كفران النعم «
وحكى ابن الحاجب في المختصر عن العنبري أن كل مجتهد
مصيب . قال ابن دقيق العيد « ما نقل عن العنبري والجاحظ ، إن
أرادا أن كل واحد من المجتهدين مصيب لما في نفس الأمر ، فباطل ،
وإن ارادا أن من بذل الوسع ولم يقصر في الأصوليات يكون معذوراً
غير معاقب ، فهذا أقرب . لأنه قد يعتقد فيه أنه لو عوقب وكلف بعد
استفراغه غاية الجهد لزم تكليفه بما لا يطاق » انظر الشوكاني ص ٢٤٢

ترجيح بلا مرجح

يرى الغزالي في كتاب فيصل التفرقة أن الرحمة تشمل
كثيراً من الأمم السالفة ، وإن كان أكثرهم يعرضون على النار ،
إما عرضة خفيفة ، في لحظة أوفى ساعة ، وإما في مدة ، حتى
يطلق عليهم اسم بعث النار . ويرى أن أكثر نصارى الروم
والترك لعده تشملهم الرحمة ، لأن منهم من لم يبلغه اسم محمد ،
ومنهم من بلغه اسمه مقروناً بأكاذيب تصرف المرء عن النظر .
ويرى في كتاب الصحبة أنه لا ثواب ولا عقاب الا على الأفعال
الاختيارية

ونسأله : لماذا رجوت أن تشمل الرحمة كثيراً من الأمم
السالفة ؟ أليس ذلك لأنهم معذورون ؟ ولماذا حكمت بنجاة الترك
ونصارى الروم ممن لم تبلغهم الدعوة ، أو بلغتهم محرفة مشوهة ؟

أليس ذلك لأنهم معذورون؟ ولماذا قضيت بأنه لا ثواب ولا عقاب إلا على ما يفعل المرء باختياره؟ أليس ذلك لأن عقاب المرء على ما اضطر إليه، أو أكره عليه، ظلم وعدوان؟

وإذا كان ذلك كذلك، كما يعبر الكتاب الأقدمون، فلماذا تحكم بكفر من لم يعلم وجوب النظر، أو علم بوجود النظر، ولكنه بعد البحث لم يقتنع؟ ولماذا تحكم بنفي الأثم غنم يجتهد ويخطئ في المسائل الفقهية، وتحكم بالآثم والكافر على من يجتهد ويخطئ في المسائل الكلامية؟ ألا يسع العذر لجميع المفكرين على السواء؟ فإن لم يسعهم، أفلا يكون هذا الفرق ترجيحاً بلا مرجح، وهو في رأيكم غير معقول؟

ظلمم الابرياء

وما عجت لشيء كما عجت من حكم الجاحظ بمعاملة المعذورين كما يعامل الكفار. فإنه إذا صح لديه أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية، إن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضاً معذور، وإنما الآثم المعذب هو المعاند فقط، أقول إذا صح عنده ذلك فكيف يحكم بأن يعامل هؤلاء بمعاملة الكفار، وهم عند الله ناجون؟ أفنكون نحن أغير من الله على دينه الذي لم يكلف فيه نفساً إلا وسعها؟

ولقد أعلم أن الجاحظ لو كان حياً وسمع هذا السؤال ، لأجاب بأن في هذا التشديد تقليلاً للخوارج على الدين . وهذا جواب معقول ، ولكن يلاحظ أنه تأييد لما قلناه آنفاً من أن علماء المسلمين نظروا الى هذه المسائل من وجهة قضائية ، لا من وجهة أخلاقية . وكان عليهم أن يتنبهوا الى الفرق بين القضاء والأخلاق ، فمن الواضح أن القتل خطأ معاقب عليه من الوجهة القضائية ، مع أن الذي يقتل خطأ بريء أمام نفسه ، وأمام ربه ، وأمام الواقع وأحب أن أنبه القارئ الى أني في هذا الحكم لا أتكلم من وجهة شرعية ، فقد يدعى المدعون أن الشرع لا يعرف ذلك . وإنما أتكلم من وجهة فلسفية ، وأفترض أن الشرع إن لم يتنبه لهذا الحكم ، فقد كان يجب أن يتنبه له ، وأن يضع له الحدود ، فإن المعدور بريء ، ومن الظلم أن يقتل الأبرياء

٦

الفيزيائي وسبينوزا spinoza

ولد سبينوزا في امستردام سنة ١٦٣٢ من عائلة يهودية . وقد اضطهده اليهود لشكك في تعاليم اليهودية . وهم أحدهم بقتله . فاضطر لذلك الى أن يعتزل في لاهاي . وصار يكسب قوته بالعمل في صقل زجاج التلسكوب والميكروسكوب . وقد عرض عليه أصدقاؤه المساعدة عدة مرات ، ولكنه رفض قبول المعونة بعزّة

واباء . وعرض عليه منصب أستاذ للفلسفة بجامعة هيدلبرج ،
ولكنه لم يقبل ، حباً في الاستقلال . وعاش عيش الناسكين .
وقد أصيب بمرض الصدر ، فاحتلمه بلا شكاية . ثم مات سنة ١٦٧٧
بعد أن حكم أهل عصره بكفره

وأهم مؤلفاته traité théologico-politique وقد نشر في حياته ،
وفيه أخضع الكتاب المقدس للنقد وحرية الفكر . وكتابه
éthique ظهر بعد موته ، وفيه بسط مذهبه عما وراء الطبيعة ،
وتكلم عن النفس ، والأهواء ، والشهوات .

وسبينوزا من أشد أنصار مذهب الحلول : فهو يرى أن الله
هو كل شيء . وأن كل شيء هو الله . وهو في ذلك يخالف الغزالي
إذ يرى لله وجوداً غير وجود العالم . والله في رأيه هو المدبر لهذا
الكون ، ولكن سبينوزا يرى أن الله والعالم شيء واحد ،
ويرى الله حالاً في كل ذرة ، وفي كل حبة ، وفي كل نبتة ، وفي كل
ورقة ، وفي كل دابة ، الى آخر ما في الوجود . وليس للانسان
حرية ، وان اعتقد أنه حر ، وانما يحلم وأعينه مفتوحة !

ومن أجل هذا ثار رجال الدين على سبينوزا ورموه بالزندقة ،
قال الدكتور رابورت « وما كان أبعد عن الاتحاد ، فقد كان
مملوءاً بحب الله ، حبا جاءه عبر الطبيعة ، فمن كأس الطبيعة الطاخفة

قد شرب الالوهية حتى ثمل ، وحتى أصبح لا يرى أمامه الا الله»^(١)
وهذا الاعتذار يشبه ما اعتذره المسلمون عن البسطامي والحلاج ،
ومن اليهم من القائلين بوحدة الوجود
وغاية الاخلاق عند سبينوزا هي كمال الطبيعة الانسانية ،
فكل علم لا يفضى الى ذلك فهو في رأيه غير مفيد ، وهو يتفق
مع الغزالي في هذا المعنى الأخير : أى في احتقار كل علم لا يوصل
إلى السعادة ، وان اختلفت غايتها بعض الاختلاف . فان غاية
الاخلاق عند الغزالي هي السعادة الاخروية

ومع أن سبينوزا يعمل لكمال الطبيعة الانسانية ، فانه يرى
أن التمييز بين النقص والكمال ، والخير والشر ، من الأمور
الاعتبارية ، إذ ليس هذا التمييز الا صورة نتزعاها من الموازنة بين
الاشياء . فاذا كان الغزالي يرى أن الخير هو ما أمر الله به ، والشر
ما نهى الله عنه . فان سبينوزا يرى أن الخير هو النافع ، والشر
هو الضار . وبعبارة أخرى : الخير هو ما يزيد قوتنا ويُعدّها
للعمل ، والشر هو ما يضعفها أو يضع في سبيلها العوائق . وينتج
من ذلك أن الخير يحدث الفرح ، والشر يحدث الحزن
ويبقى بعد ما سلف أن السعادة كل السعادة في إكمال العقل

(١) مبادئ الفلاسفة ص ١٦٦

لأنه في رأيه هو وجودنا الحق ، ثم يقرر أن السعادة في الواقع هي طمأنينة النفس ، التي تنشأ من معرفة الله ، فليس الجهل شراً إلا لأن صاحبه دائم القلق والاضطراب ، وليس للحكمة فضل أكثر مما تورث صاحبها من الأمن والسكينة ، وهو يتفق مع الغزالي في هذه النقطة الأخيرة

ومن أظهر الفروق بين الغزالي وسبينوزا نفي الشخصية الانسانية ، ونفي المسؤولية . وهذا واضح ، لأنه ما دام العالم هو الله ، والله هو العالم ، فلن يرى سبينوزا للمرء شخصية ، ولن يحكم بأنه مسؤل . أما الغزالي فيرى وجود الشخصية الانسانية ، ويرى أهليتها للجزاء ، والثواب ، والعقاب ، وان كانت عنده أضعف من أن تدرك شيئاً بغير هداية الله

الغزالي وهينري Gassendi

ولد جسندي في بروكس بجنوب فرنسا سنة ١٥٩٢
اشتغل حيناً بتدريس البلاغة والفلسفة ، ثم صار قسيساً وسافراً
الى هولنده واشتغل بالطبيعيات ولا سيما الفلك والتشريح ، ثم
دعى لتدريس الرياضيات بالمدرسة الملكية في باريس سنة ١٦٤٥ ،
وظل بها الى أن توفي سنة ١٦٥٥

وأهم ما يمتاز به جسندي هو دفاعه عن فلسفة ابيقور المتوفى
سنة ٢٧٠ قبل الميلاد . وأبيقور هذا يرى أن غاية الأخلاق هي

السعادة الذاتية : فليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها تجلب لذة ،
وليست الرذيلة رذيلة إلا لأنها تحدث ألماً ، ولا قيمة لأي عمل
في نفسه إلا بنسبته الى اللذائذ والآلام . وقد كان أبيقور يدافع
عن مذهبه بطريقة تقربه من رضى العقلاء ، فكان يرى أنه لا مانع
من احتمال الآلام الوقتية في سبيل ما يعقبها من اللذائذ الباقية ،
ويحلل الفضائل الشاقة ، ويبين ما فيها في نفس الأمر وحقيقة
الواقع من البعد عن الآلام ، لأن ما في الخروج على الفضيلة من
اللذة ، لا يساوى ما يعقبه من الألم ، وكذلك ما في الصبر على ترك
الرذيلة من فوات اللذة العاجلة ، يعوض على صاحبه كثيراً من
الآلام التي يتعرض لها باقتراف المنكرات

ولكن الناس فهموا مذهب أبيقور فهما غير صحيح ، فحسبوه
فقط داعياً إلى اللذة ، وأخذوا يصفون الرجل الخليع بأنه (أبيقورى)
بجاء جسندى فأحياتعاليم هذا المذهب ودافع عنه . وقد أثر جسندى
في عصره تأثيراً شديداً . وحسبه أن كان من تلامذته مولير

والغزالي تكلم عن اللذة ، وعنى بها كما فعل جسندى ،
ولكن الفرق بينهما بعيد ، فان جسندى يرى اللذة غرضاً من
أهم أغراض الانسان . ولكن الغزالي يراها صفة من صفاته ،
فالعين لذة ، وللأذن لذة ، ولعضو التناسل لذة . ولا قيمة للحياة
بغير هذه اللذات . ولكن يجب أن تحد بمحدود العقل والشرع ،

ومن السهل أن يعرف المرء ما لهما من الحدود . ولكن جسندى
يحد اللذة بما لا يصحبه ألم ولا يعقبه ألم . وهنا موضع الخلاف ،
فإن الزنا في نظر الغزالي ليست له أضرار دينوية ، ولكنه يذهب
بصاحبه إلى النار .

الغزالي ومالبرانش malebranche

ولد مالبرانش في باريس سنة ١٦٣٨ ومكث قسيساً خمسين
سنة . وكان كل همه أن يوحد بين الدين والفلسفة . وقد توفي بعد
مرض طويل سنة ١٧١٥

وأهم مؤلفاته *traité de morale* و *recherche de la vérité*
وهو من أنصار ديكرات والمعجبين به ، ومن القائلين بوجوب
حرية الفكر الى أقصى حد . والقاعدة عنده أنه لا يصح أن نسلم
تماماً الا بالقضايا التي تظهر لنا واضحة الى حد أنه لا يمكننا أن نرفض
التسليم بها ، والا تعرضنا لعتب العقل ، وتأنيب الضمير
والقاعدة الأخلاقية عند مالبرانش أنه لا يصح أن نحج
خيراً من الخيرات حبا تاماً ، مادمننا نستطيع أن لانحبه بلاندم .
وهنا يتفق مع الغزالي ، فيقرر أنه لا يجب أن نحج غير الله حبا
تاماً مطلقاً . ونحن نذكر أن الغزالي قرر أن الحب المطلق لا يكون
لغير الله ، لانه لا نظير له ، لافي الامكان ولا في الوجود
ويتفق مالبرانش مع الغزالي في عدم الثقة بأحكام الحواس ، لانه

رأى البصر يختلف حكمه على الأشياء باختلاف القرب والبعد ،
ويضيف الى ذلك شكه في الوحدة الزمنية ، لانه يرى اليوم على
طوله قصيراً بالنسبة الى الفرح المسرور . ويرى الساعة على قصرها
طويلةً بالنسبة الى المتألم الحزين

ويتفق الغزالي ومالبرانش في فهم الرجل الخير . فاذا كان
الغزالي يقرر أنه ماهلك امرؤ عرف قدره ، فان مالبرانش يقرر
أن الانسان الخير حقيقة هو من لا يريد أن يكون سعيداً الا بقدر
ما يستحق ، وبقدر ما تسمح له العدالة الالهية

ويفترق الغزالي ومالبرانش في تقدير اللذة . فهي عند الغزالي
خير الى حد محدود ، ثم تنقلب الى شر . وهي عند مالبرانش خير
دائماً ، وان كان التمتع بها لا يفيده دائماً ، لانه قد تصرفنا عن الله .
ويختلفان كذلك في فهم الألم ، فهو عند مالبرانش يكاد يكون
خيراً ، وان كان شراً بالفعل . والغرض من ذلك تبرير الاحتمال .
أما الغزالي فلا يخصص الألم باهتمام خاص ، وان كان يرحب بكل
ما يناله من الاذى في سبيل الله

*
**

وبعد هذه المقارنات الموجزة . أوصى القارى بان يعتبر
هذا الباب لمعة يسيرة في جانب ما يجب من درس آراء الفلاسفة
المحدثين ، وأحضه على إتمام ما فاني إتمامه ، والله بالتوفيق كفيل

الباب الرابع عشر

في

آراء علماء العصر في الغزالي

تمهيد

لا يوجد هذا الباب في النسخة التي قدمت للجامعة المصرية ، وإنما رأيت أن أكتبه بعد الامتحان ، تنميًا للسلسلة التاريخية ، التي أردت أن أبين بها قيمة الغزالي في مختلف العصور ولقد عجبت حين رأيت العلماء يحشون من تدوين رأيهم في الغزالي بجرأة وصراحة . وحجتهم في ذلك أن الرأي العام لا يقبل في الغزالي غير المدح الخالص ، وللغزالي كسائر المؤلفين حسنات وسيئات ، وهم لا يستطيعون أن يبدوا شيئًا من سيئاته في العلانية ، كما لا يمكنهم أن يذكروا حسناته مجردةً من النقد ، وإلا كانوا عرضةً للسخرية والاستهزاء !

وإذ كانت الخطة التي جريت عليها في نقد الغزالي تقضي علىٰ بنشر ماله وما عليه ، عملاً بالنزاهة العلمية ، فقد رأيت أن أثبت آراء أنصار الغزالي وخصومه في هذا العصر ، وأدونها كما

هي بلا زيادة ولا نقص ، معتمداً في ذلك على محادثات خاصة دارت بيني وبينهم ، وعلى سند كتابي فيما يتعلق برأى حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد بك جاد المولى وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار . وأنا أشكر هذين الأستاذين بصفة خاصة : لأنني لم أر من غيرهما جرأة على التقدم بشيء مكتوب ، وأعذر من أحجم عن الكتابة ، لأن الضجة التي قامت بعد الامتحان أفهمت من لم يفهم : أن حرية الفكر في مصر لا ظهير لها ولا نصير

رأى الدكتور منصور فرامى

الدكتور منصور علم من أعلام هذا العصر ، وهو أستاذ الفلسفة في الجامعة المصرية ، وقد لاقى بسبب آرائه ما يقدره لا مثاله عادة من الظلم والاضطهاد . فصلته الجامعة في سنة ١٩١٣ مجازاة للجمهور الذي غضب وثار بسبب ما شاع إذ ذاك من أنه رمى النبي عليه السلام بحب الشهوات . وقد رأى حضرة صاحب الدولة سعد باشا زغلول أن حرمان الجامعة من مثل هذا العقل الناصح ظلم مبین ، فنصح يومئذ بأن يصلى الجمعة في الأزهر ليكون في ذلك قطع لآلسنة المرجفين ، وليستطيع دولته أن

يرجعه الى الجامعة ، ويصل من عمله ما انقطع . ولكن الدكتور منصور أبى أن يشهد العلماء له بالايان ، لأن الله على إيمانه شهيد ، فشكر لسعد باشا رفقته به ، وظل بعيداً عن الجامعة بضع سنين . ثم رجع إليها على الرأس فى سنة ١٩٢١

وللدكتور منصور رسالة عن الغزالي نالها الدكتوراه من جامعة باريس ، فلرأيه فى الغزالي قيمة خاصة . وهو لا يعد خصماً للغزالي ولا نصيراً له ، وإنما يشكره على ما أداه للعلم من الخدمات ، ويغفر له أغلاطه ، لأنه كأكثر المؤلفين لعهد يعتمد على ذاكرته ، والاعتماد على الذاكرة يورث التناقض والاضطراب

٢

رأى الشيخ على عبد الرازق

الأستاذ الشيخ على عبد الرازق رجل ممتاز من بين رجال هذا العصر ، وقد تلقينا عنه دروس الأدب والبيان فى الأزهر منذ اثني عشر عاماً ، وأماله فى علم البيان دليل على عقليته النادرة . ولو مضى فى التأليف لآصبح قليل الأمثال . وقد درس الغزالي بعناية ، وهو يقف ازاءه موقف الحياد . ويقرر أن الغزالي أوجد حركة فكرية فى العالم الاسلامى . أما

قيمة هذه الحركة فتختلف باختلاف الأنظار ، فمن الناس من يراها ضارة ، ومنهم من يراها نافعة ، ولا يزالون مختلفين

٣

رأى الشيخ يوسف الدجوى

الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى عالم من هيئة كبار العلماء ، وهو ذو نفوذ كبير فى الأزهر والمعاهد الدينية ، وأكثر العلماء الممتازين اليوم من تلامذته . ومن الخطأ أن تعرفه من مؤلفاته ، لأنها مع قلتها ضعيفة ، ولأن الفرق بعيد بين ما يقوله فى دروسه الخاصة وبين ما يدونه فى تلك المصنفات ، إذ كان يريد أن يصل بكتبه الى أفهام الجماهير ، ومن هنا فقدت هذه الكتب قيمتها العلمية . ورسالته الصغيرة فى تفسير قوله تعالى (لا يسأل عما يفعل) تجعلنا نأسف كثيراً على هجره لهذا الأسلوب البديع ، وإقباله على خطة الترغيب والترهيب ، التى تذكرنا بكتاب الإحياء ويكاد يعدّ الشيخ الدجوى خليفة للغزالي فى هذا العصر ، ففيه تقريباً كل خصائصه ، من القدرة ، والاخلاص ، وقوة النفوذ ، وبغض الفلسفة ، والحذر من أن يتجاوز العقل ماله من الحدود



رأى الاستاذ جاد المولى بك

الأستاذ محمد بك جاد المولى من نوابغ هذا العصر . تخرّج
من دار العلوم سنة ١٩٠٦ وكان ترتيبه الثانى ، فسافر فى أول بعثة
أرسلها دولة سعد باشا زغلول حين كان وزيرا للمعارف فى سنة
١٩٠٧ ففضى ثلاث سنين فى الكلية الجامعة بمدينة رديج . ثم عين
فى سنة ١٩١٠ مساعدا لأستاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد
وقضى بها ثلاث سنين . ثم عاد فى سنة ١٣ فعين فى قلم الترجمة
بوزارة الأشغال ففضى بها ثلاث سنين . وفى سنة ١٦ نقل الى
الديوان العالى ، وظل فى خدمة البيت المالك الى سنة ٢٢ حيث
نقل مفتشا بوزارة المعارف العمومية

وقد انتدبته الوزارة مع حضرة الأستاذ عبده خير الدين
ليشتركا فى الامتحان الذى تقدمت له فى الجامعة المصرية . ويذكر
الجمهور أن الاستاذ جاد المولى بك كان يتأجج غيرةً على الغزالى ،
وقد ناقشنى بشدة فى كل الموضوعات التى خالفت فيها الغزالى .
فبدالى بعد الامتحان أن أحادثه عن الغزالى من جديد ، فتوجهت
إلى منزله لهذه الغاية ، فتفضل وأطلعنى على المحاضرات التى كان

ألقاها عن الغزالي في سنة ١٩١٨ فرأيته يفضله على كثير من
الفلاسفة المحدثين منهم والقدماء .

والاستاذ جاد المولى بك لا يشك في أن المسامين انتفعوا
بالتصوف أيما انتفاع ، وبقدر نفع التصوف يتقدّر جهد الغزالي
في نشره وإذاعته . وقد كان الاستاذ جاد المولى بك يستشهد وهو
يحدثني عن ذلك بما كتبه الاستاذ الغمراوي بك في كتاب الغرائز
ويقول: إن الصوفي هو كالمعلم سواء بسواء ، فكما يجب على المعلم
أن يعمل لاستئصال الغرائز السيئة ، وتوجيه الغرائز الحسنة الى
النواحي النافعة ، كذلك يجب على الصوفي أن يراقب حركات
المريدين . لأن التصوف ليس إلا رياضة للنفوس
وبالرغم من عناية الغزالي بالتصوف ، فإن الأستاذ جاد المولى
بك يراه من المجددين ، وقد سألته عن معنى هذا التجديد ، فقرر
أنه يريد به النهوض بالأفكار الاسلامية التي آمن بها الغزالي ،
والتي كاد يقضى عليها تيار الفلسفة اذ ذاك

٥

رأى الشيخ عبد العزيز جاويش

الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش إمام من أئمة المسلمين في
هذا العصر . وهو معروف في جميع الاقطار الاسلامية ، وله أبحاث

في فلسفة التشريع تعزُّ على من رامها وتطول ، وقد استفاد من النفي والاضطهاد أيما استفادة ، ووقف بذلك على كثير من عقليات الأمم والشعوب ، وعدّه الأنجليز بين أعدائهم الألداء في الحرب العالمية . ولقبوه بالرجل الخَطِرِ المُخِيفِ

ويعد الشيخ جاويز من خصوم الغزالي : فهو أولاً يؤمن بقوة الغزالي ومثاقته ، ولكنه بعد ذلك يعجب من تساميه الى منزلة المجتهد المطلق ، مع أنه كان « جاهلاً » بفن الحديث . ويرى الشيخ جاويز أن جهل الغزالي بهذا الفن هو المقتل الوحيد لقيمته العالمية ، ولن ينفعه بعد ذلك ذبوع اسمه في العالمين . ويقرر الشيخ جاويز ان الغزالي متناقض ، وأنه من الصعب تحديد آرائه لأنها قد تختلف في الكتاب الواحد ، ولأنه لم ينكر شيئاً الا وقد قال به في بعض أحواله !

٦

رأى الكونت دي جالارزا

ظل الكونت دي جالارزا أستاذاً للفلسفة في الجامعة المصرية ست سنين ، وهو نادرة النوادر في كرم الاخلاق . وله مؤلفات في الفلسفة لا عيب فيها غير الغموض ، وعذره في ذلك أنه أجنبي عن اللغة العربية .

وهو من أشد أنصار الغزالي ، ويراه المسلم الحق بين فلاسفة
المسلمين ، ويعجب كثيرا بوجهته الروحية ، وله على الغزالي ما أخذ
واحد : وهو منعه الناس من ورود مناهل العلم ، مع أنه لم يمنع
نفسه شيئاً من العلوم . ويرى أن الغزالي حَرَمَ بذلك من كانوا
أهلاً للاستفادة ، وإن كان عصم من ليسوا أهلاً للانتفاع ، من
سواد الناس . والغزالي في رأيه غاية الغايات في الاخلاص

٧

رأى الدكتور العناني

الدكتور علي العناني من كبار الاساتذة في هذا العصر ، وقد
مكث في ألمانيا نحو عشر سنين ، فتمكن بذلك من أن يدرس
الفلسفة دراسة عميقة ، وهو من أساتذة الجامعة المصرية
والدكتور العناني ينظر الى الغزالي نظرة خاصة ، من حيث
تطور الفكر الاسلامي . فهو يرى أن الفكرة الاسلامية كانت
تعتمد أولاً على الوحي ، ثم دخل العقل على أنه مفسر وموضح ،
ولكنه مازال يقوى وينمو حتى كاد يستقل عن الوحي استقلالاً
تاماً ، فرأى الغزالي أن يقف في وجه هذا الاستقلال ، فأخذ
يحارب الفلاسفة ويناضلهم حتى أخمل ذكرهم في الشرق ، وبذلك
انتقلت الفلسفة الى الاندلس ، ووجدت هناك مرعاها الخصب

والدكتور العناني يرى أن الغزالي سلك تلك السبيل خضوعاً
للرأى العام في البداية ، ولكنه تأثر بما دعا إليه في النهاية ، وعاد
حرباً للعقل ، وسلاماً للمبادئ الروحية . وهو لا يصدق ما ذكره
ابن تيميمة من رجوعه الى ظاهر الشريعة ، فان الرجل كان
أخذاً أخذاً بمذاهب الصوفية ، وان كان لا ينكر مع ذلك أن له
آراء كان يخفيها ويضن بها على الناس



رأى الشيخ عبد الوهاب النجار

الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار نادرة هذا العصر ، فقد
يندر أن يفوته شيء من معارف هذا الجيل . وهو أعرف الناس
بروح العرب والاسلام . وقد درس الغزالي دراسة جيدة . وله
على هذا الكتاب ملاحظات يراها القارى في الهوامش ، وهى
ملاحظات سديدة لم نشأ أن نحرم منها القراء . وقد قابلته أخيراً
فذكر لى أنه فاته أن يضع ملاحظة عما أخذته على الغزالي من
تحريم الغناء فى أكثر الأحيان ، وهو يرى أن الغزالي محق
فيما يقرر من الاكتفاء باباحة الغناء حين لا يوجد موجب التحريم .
لأن مهنة الغناء مجلبة للشقاء ، وعلى الأخص حين تضطرب
الأحوال

ورأى الشيخ النجار في الغزالي رأى وسط : فهو يرى أنه في جملته لا نظير له ، وأن الحكم يتناقضه فيه شئ من المبالغة ، لأن الرجل كان ينظر الى الأشياء من جهات متعددة ، وكان لسنه في ذلك أكبر تأثير . وينكر عليه المبالغة في متابعة الصوفية ، ويضرب المثل بما يبديحه للفقير من تمزيق الثوب قطعاً مربعة تصلح للترقيع ، ويقول : هذا الفقير إما أن يكون في حالة صحو أو في حالة ذهول : فإن كان ذاهلاً فهو معذور ، ولا حكم له ، وإن كان صاحياً فهو عايب ، لأنه ما معنى تمزيق الثوب بطريقة خاصة تجعله صالحاً لأن يرقع به سواه ؟ إن هذا إلا إتلاف !

٩

رأى الشيخ حسين والى

الأستاذ الشيخ حسين والى من كبار العلماء ، ومؤلفاته تمتاز بالوضوح والبيان ، وعلى الأخص (كتاب التوحيد) الذى ظهر منذ سنين ، ولولا أنه شغل بالادارة عن التأليف لكان لمصنفاته تأثير عظيم في بسط آراء المتقدمين في الأصول والتوحيد والأخلاق ويعده الشيخ حسين والى من أشد أنصار الغزالي ، فهو يدافع عن وجهته في التصوف ، لأن التصوف في رأيه لا يخرج عن الأصول الاسلامية ، والغلو الذى نراه في الإحياء ليس إلا تمكيناً

للمعاني التي يدعو اليها الغزالي . وهو لا يرى أن الغزالي قصد بمؤلفاته
فئة من الناس ، وإنما يرى أنه كتبها لجميع الطوائف ، وكل فريق
يأخذ بقدر استعداده ، وبقدر ما يصلح له من أنواع الخلال .
والغزالي عنده معذور فيما وقع له من ضعيف الحديث . لأنه لم
يرد غير تأييد وجهة نظره بما اتفق له من الأحاديث والأخبار
والآثار . ومن البعيد أن يضع حديثاً في كتاب من كتبه وهو
يعلم انه موضوع أو ضعيف ، مع ما عرف عنه من الأمانة والاختصاص

١٠

رأى الشيخ عبد الباقي سرور

الاستاذ الشيخ عبد الباقي سرور من العلماء الأفاضل ، الذين
جمعوا بين المعقول والمنقول . وكتابه عن « ماضي الاسلام وحاضره »
الذي نشره في جريدة الأفكار من أدق ما كتب المصلحون
في العهد الأخير . ويندر أن يظهر كتاب ولا يطالع عليه ، فهو
لذلك أعرف العلماء بالحركة الفكرية ، وأعلمهم بما يجري في عالم
السياسة ، والفلسفة ، والاجتماع . وهو فوق ذلك أعير الناس على
وطنه ودينه ، وإنه لعلى خلق عظيم

ويرى الشيخ عبد الباقي أنه ليس للغزالي مذهب خاص ، وإنما
يتنوع دفاعه بتنوع الرأي الذي يدافع عنه ، وهذا منشأ ما في كتبه

من تباين الآراء : فقد كان محتج بأصول المعتزلة والأشعرية والكرامية ، وهو يناقش الفلاسفة ، ويريد بهذا أن يجمع في يده كل الاسلحة الفكرية ليدفع بها طغيان الفلسفة الذي كان يخشى على الدين من تياره . والشيخ عبد الباقي يرى ان التصوف في كتب الغزالي انما كتب للصوفية ، لالجميع الناس ، كما ظن ذلك كثير من الباحثين . ودليل هذا رجوعه في اخريات أيامه الى دراسة كتب السنة حتى ليذكرون انه مات والبخارى على صدره . ولعدم اختصاص الغزالي بمذهب خاص وجهة شريفة : هي تحرى الحق والبحث عن عناصر القوة فيما كان لعهد من مختلف المذاهب . وهذه الوجهة فيما يرى الشيخ عبد الباقي ضمانا للسلامة من التقاليد المذهبية ، التي تغل حرية الفكر ، وتحرم الباحث من الارتفاع بشمرات العقول

١١

رأى الشيخ احمد أمين

أحسن ما يوصف به الاستاذ الشيخ أحمد أمين أنه رجل نافع ، فان كتبه ورسائله مفعمة بالآراء الجيدة ، التي تغرس الحياة في نفس المستفيد . وعمله في لجنة التأليف والترجمة والنشر عمل الرجل

الذي يعرف أن لا حياة لأمته بغير العلم ، ولهذه اللجنة أثر كبير في الحركة العلمية ، ولأعضائها فضل عظيم على شباب هذا الجيل ويرى الشيخ احمد أمين أن الغزالي حوّل الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعهم الى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوف والصوفية . وحبب ذلك الى الناس . وأسلوبه في الترغيب والترهيب أنفع الأساليب في هداية الجماهير . ويرى معنا أن الغزالي لم يضع طريقة نافعة لخلوص المرء من شكوكه . وأن آراءه في الأخلاق لا تنفع في هذه الايام ، لأن المدنية الحديثة تتطلب قوة التنازع ، وهو يفضل السلامة على كل شيء !

خاتمة الكتاب

الآن ، وقد قدمنا للقارىء ما وقفنا اليه في درس الأخلاق عند الغزالي ، نوصيه بأن يرجع إن شاء الى كتاب الأحياء ، وكتاب الميزان ، وكتاب المنهاج ، وكتاب المستصفي ، وإلى المصادر الأجنبية التي ذكرناها في غير هذا المكان ، وإلى كل ما يستطيع الوصول اليه مما يتعلق بالغزالي ، ليعرف صحة ما في هذا الكتاب من مختلف الأحكام

ونحن لا ننكر أننا كنا قساةً في نقد الغزالي ، ولكننا نرجو أن يتنبه القارئ أيضاً إلى ما كشفنا الغطاء عنه من حسناته .
ونحب أن يذكر الذين أسرفوا في اللوم عند ما علموا بعض ما يحتويه هذا الكتاب ، أننا لم نكتب لإرضائهم أو إغضبهم ، وإنما وضعنا نصب أعيننا غاية واحدة ، هي خدمة العلم والتاريخ ، خدمة خالصة لوجه الله ، لا للناس وأحب أن أسجل هنا كذلك ، أني ترددت فيما نصحني به حضرات الأساتذة من رفع بعض المسائل التي ثار من أجلها اختلاف ، فلم أرفع منها شيئاً ، وإنما أضفت إليها بعض البيان ، فليس على لجنة الامتحان أية مسئولية ، وإنما أنا وحدي المسئول

*
*

أما بعد فإني أسأل الله أن يجزييني بفضله على ما قدمت في سبيل العلم والدين من صادق الجهود ، واليه وحده أرفع الرجاء ، فقد مني الناس بالجحود ، ونكران الجميل

« رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا . رَبَّنَا فَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادِ »

الاسلام والاخلاق *

يقول المرجفون إنى قررت أن الدين الاسلامى دين فتح لا دين أخلاق . ولولا ضعف ملكة النقد فى مصر ، لما شاعت هذه الاكذوبة ، ولما وجدت من يتلقاها بالقبول . فليس من الجائز أن رجلا مثلى قضى فى الازهر خمسة عشر عاماً يحكم بين الجماهير فى دار الجامعة المصرية بان الدين الاسلامى ليس دين أخلاق ، وهو يعلم على الأقل أنه يجد معارضين أشداء من طلبة الازهر وعلماؤه ، وقد حضر منهم يومئذ عدد غير قليل وهأنذا أشرح للقراء أصل هذه الأ كذوبة التى تناقلها الناس ، ليعلموا الى أى حد يجرؤ المتقولون على تشويه الاحاديث !

قلنت فى رسالتى « إن ما كتبه الغزالى عن التوكل صريح فى الدعوة إلى الرهبنة ، وقطع العلائق مع الناس ، والتدرج على احتمال الظأ والجوع ، والافتناع بان الموت من جملة الارزاق » فلما سألتى حضرات الاسانذة الممتحنين عما يؤيد هذا الحكم من كلام الغزالى ، قدمت لهم قوله « فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب : أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام ، لأن صاحب السياحة فى البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه ، حتى يكون فعله حراماً ، بل لا يبعد أن يأتية الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن الى أن يتفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ففعله ذلك حرام ، وان فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له .

* نشرت هذه الكلمة فى المقطم بتاريخ ٤ يونية سنة ١٩٢٤

ولكن ليس فعله حراماً إلى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب »

وهنا لا أكتف القارئ انى حملت على الغزالي حملة شديدة ، ورميته بجهل أسرار الدين ، وسخرت من الآداب التي وضعها للمتوكل حين يخرج من بيته : إذ يدعوه الى أن لا يترك في البيت متاعاً يحرص عليه السراق ، والى أن لا يحزن اذا سرق متاعه بل يفرح اذا أمكنه ، والى ان لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فان فعل بطل توكله ودل على تأسفه على مافات ، ويدعوه الى ان يقيم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله اذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالماً !

ثم قلت في التعليق على هذه الآداب الميئة « وما ادري ما الذي انسى الغزالي ان يحض المتوكل على ان يترك باب البيت مفتوحاً وان يعلق عليه لوحة مكتوباً فيها بخط واضح جميل : من اراد ان يأخذ شيئاً من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزى بما مكّن صاحبه من صنع المعروف !! »

عند ذلك تدمر الحاضرون من العلماء ، وقال فضيلة الاستاذ الشيخ اللبان : لا عيب على الغزالي في ذلك لأن الدين الاسلامي دين أخلاق ، فقلت : وهو قبل ذلك دين فتح وامتلاك ، وليس من الاخلاق في شيء ان يجرد المرء بيته حتى لا يبقى فيه متاع يحرص عليه السراق ، فهل جانبت في ذلك الصواب ؟

والظاهر ان حضرات العلماء فهموا من الفتح التخريب ، والاعتداء على الشعوب . كلا ياهؤلاء ! الدين الاسلامي دين فتح ، رضيتم ام كرهتم ، وللفتح شروط وآداب سنّها الدين الحنيف ، وانتم حين تنفرون من كلمة « الفتح » إنما تجارون الاجانب الذين يتوددون اليكم بوصف

الاسلام بالقناعة والرضى بالقليل . وهذا خطأ صراح ، فان الدين الاسلامى ابعد الاديان عن الزهادة ، وابغضها للخمول ، ولا حرج على الاسلام فى ان يرغب اتباعه فى امتلاك ناصية العالم ، فان هذا امل نبيل ، ولم يحدثنا التاريخ عن امة قوية ، او ملة قوية ، وضعت حداً لمطامعها فى الحياة ، وانما ترغم الأمم الضعيفة ، او الممل الضعيفة ، على ان تحدد آمالها واطماعها بضيق الحدود !

ستقولون : ان رسول الله وأصحابه لم يأمرؤا المجاهدين بحرب القسيسين والرهبان ، بل أمرؤهم بالرفق بهم ، والابقاء عليهم ، كما أمرؤهم بعدم التعرض للأطفال والنساء والكهول . وأقول لكم : ان هذه المعاملة لاتدل على أن الاسلام ليس دين فتح ، ولكنها تدل على أن الاسلام كان أحكم من أن يبدأ فتوحاته بارهاق النفوس وتنفير القلوب . وهذه الملاينة ، وذلك الرفق ، من الأسلحة الماضية فى استئلال السخائم ، والتبشير بالدين الجديد . وكذلك دعا النبى الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل خصومه بالتى هى أحسن ، حتى ظفر بالفتح المبين

هذا ماأريد من أن الاسلام دين فتح وامتلاك . ولو بعث رسول الله اليوم ، ورأى ماأنتم عليه من قلة وذلة ، لبلل رداءه بدموعه ، وكان له مع حضرات العلماء موقف يرد الولدان شيئا . . أفتحسبون أن قوله عليه السلام (بعثت لأتتم مكارم الاخلاق) معناه أنه جاء لينشر علينا ، ويذيع فينا ، تلك المبادئ السقيمة ، التى دافع عنها الغزالي وأمثاله ، حين تكلموا عن التوكل والصبر والخمول ، وتابعهم فى ذلك مع الاسف علماء هذا الجيل ، فى غير خجل ولا استحياء ؟

انا لا انكر أن التوكل فضيلة ، ولكن انكر ان يكون معناه

الاقتناع بان الموت من جملة الارزاق ، وانما التوكل ان تقتحم المصاعب
معتمداً على الله (وعلي الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) والصبر فضيلة .
ولكن على ان يكون صبراً على الجهاد لا صبراً على الضيم . والحمول
فضيلة . ولكن على معنى ان تقبل على عملك غير حاسب للشهرة حساباً .
فاما ما نقل الغزالي من ان بعض العلماء كان يترك الدرس اذا زاد الطلبة
عن ثلاثة يشاراً للحمول ، فهي خطة سلبية ، وهروب من الواجب ،
تعالت الاخلاق عما يصفون !

ومن العجيب ان نجد العلماء يضربون الامثال بزهد النبي وخلفائه ،
وكان عليهم ان يعرفوا ان الزهد من النبي وخلفائه فضيلة قضت بها
الضرورة ، وهانحن اولاء نرى بأعيننا كيف تنظر الجماهير الى ما يملك
رؤساء الحكومات نظر المحنق المغيظ ، فلا عجب ان يتنبه رسول الله
صاحب الخلق العظيم الى ما فطرت عليه الجماهير من حسد من يملك
زمام الامور . ولو قضت الظروف اذ ذاك بان يكون النبي فرداً من
جماعة يسوسها غيره ، لرايناه ينمى ثروته ، ويسعى جاداً في استغلال
ما يملك من ارض او مال . . على انى اعلم من سيرة رسول الله ما يدل
على انه كان ينظر الى الدنيا بعين ملؤها الحب والاعزاز ، وحسبنا ان نتلو
قول اصدق القائلين « ربنا آتتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا
عذاب النار » فهل ترونه قال : آتتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنتين
أو حسنتان ؟ ! أو ليس من جلال الدنيا أن تسوى بالآخرة ؟

من أجل هذا تروني أنككر أن تكون « الأخلق » في الاسلام
معناها الرضى بالموجود وان قل وهان ، ومن أجل هذا عارضت الغزالي
بعد ما عاشرته في مؤلفاته بضع سنين ، فماذا تنقمون منى بعد هذا
البيان ؟

الى الدكتور زكى مبارك

قصيدة لخصرة الشاعر المبدع السيد حسن القاياتى

ماذا اعتزمت وما نويته العلم أيسر ما وعيته
اليوم رُحْتَ بغمظة فاهنا زكى بما جنيته
للكون سرٌّ لو سمو ت إليه فى دعة حويته
لم تقض مصر دينها للعلم إلا مد قضيته
يسمو برأسك أنه للحق أكثر ما حنيته
قيل الضلال وإنما نور الهداية ما اجتليته
دين عصيت به النهى والعلم كالزيع اتقيته
إن الجود مسود أطربنى لما نعيته
لا تشك زفرة حاقده من صدره أنت اشتويته
كم يحسدون محسداً فى علمه، فهل اجتديته ؟
تة بالكتاب فإنه عن قلب أو اب رويته
للعلم عرش لم تزل تسبى النهى حتى رقيته
إيه لخدك إنه أصغى لسحرك فاستبيته

حسن القاياتى

للدكتور زكي مبارك

تحت هذا العنوان نشرت جريدة الأفكار الغراء في يوم الأحد ١٨ مايو سنة ١٩٢٤ الكلمة الآتية :

« كان منتصف الساعة الخامسة بعد ظهر الخميس الماضي موعد امتحان الاستاذ زكي مبارك في الجامعة المصرية لإحراز شهادتها النهائية ، فما دنت الساعة الرابعة حتى غص مكان الامتحان بجماعة من كبار العلماء والكتاب وطلبة الجامعة وطلبة المدارس العالية ومحبي العلم وأنصاره . وما آذنت ساعة الامتحان حتى أخذ أعضاء اللجنة أما كنهم ، وهم حضرات الأساتذة الشيخ عبد الوهاب النجار ، والدكتور أحمد ضيف ، والأستاذ عبده خير الدين ، وصاحب العزة محمد بك جاد المولى . وكانت رئاسة اللجنة للدكتور منصور فهمي . وجلس أمامهم الاستاذ الشيخ محمد زكي عبد السلام مبارك ليمتحنوه في رسالته « الاخلاق عند الغزالي » وموضوعيه اللذين اختارهما ، وهما « الرق في الاسلام » و « الصور الشرعية »

بدأ الاستاذ النجار يلقي على الممتحن السؤال إثر السؤال ، وكانت أسئلته غاية في الدقة ، وكذلك كانت الأجوبة ، الا في بعض مواضع نادرة جداً ، كان فيها الشيخ زكي علياً بسبب التخلص منها ، خبيراً بما يقبل فيها من الأعذار . ثم بدأ محمد بك جاد المولى مندوب وزارة المعارف يسأل : فكانت أسئلته أسئلة عالم محقق ، عني بدرس الرسالة وبدرس الغزالي معاً ، فكان إعجاب السامعين بها شديداً جداً ، وكذلك كان إعجابهم بالمجيب في أكثر مسائله عنه . ثم تتابع السائلون حتى تم الامتحان في الرسالة وفي الموضوعين

ولقد كان موقف رئيس اللجنة وهو الدكتور منصور موقف الاستاذ
الرحيم المشفق بتأنيده ، الطروب المعجب به معاً . كان رحيماً مشفقاً حين
تشدت الأسئلة وتقسو ، وكان طروباً معجباً حين يرى تأنيده قد خلاص
منها على فرط شدتها خلاص الحجر من نسج الفدام

أما الشيخ زكي مبارك ، أما زكي أفندي مبارك ، أما الدكتور زكي
مبارك ، فقد دل الممتحنين على الإحاطة التامة بما درس ، وقوة الترجيح
فيما رأى ، وصحة المذهب فيما ذهب . ورأوا فيه فوق ذلك ثباتاً وجرأة
قلما تتوفر لكل طالب في موقف كهذا الموقف . ولقد كانت أجوبته
دليلاً على أنه حر الفكر ، حر الضمير ، لا يتقيد إلا بما يحس أن العقل
يطالبه بالتقيد به ، ولا يذعن إلا بما يؤمن بأن العلم يكلفه الاذعان له .

فلقد دارت أسئلة حول القديم والجديد ، أو حول الاطلاق والتقييد
وكان انصار القديم كثيرين ، وأنصار الجديد قليلين ، أو كانوا كثيرين
ولكن لا يحبون ان يظهروا ، ولكن لم يجد زكي مبارك حرجاً في ان يظهر ،
ولم يجد حرجاً في ان يصدم من انصار القديم ، ولم يجد حرجاً في أن يلين لهم
حين بصر بهم يفضون ، ورآهم يشورون ، ليهدى من ثورتهم ، ويخفف
من غضبهم ، فدل بهذا على انه حاذق ، لا يففل المداراة ، حين لا تكون
سبيل غير المداراة

كذلك كان صديقنا زكي مبارك في هذه الجلسة التي عقدت لامتحانه،
ومنحه شهادة الدكتوراه . وهل كان غير ذلك وهو طالب في الازهر
الشريف وفي الجامعة المصرية ؟ فنحن نهنيء الاستاذ بهذا النجاح ، ونهنيء
الجامعة بأن كان زكي مبارك ابنها الخامس الذي أحرز شهادتها العليا
بدرجة « جيد جداً » سائلين الله ان يكثر لها من هؤلاء الأبناء البررة
الذين يخدمون العلم ، ويخدمون الأمة ، بخير ما تخدم به الأمم «

فهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٢	حياته الروحية	١	فاتحة الكتاب
٥٥	فهمه للحياة		الباب الأول
٦٠	وفاته وراثؤه	٤	العصر الذى عاش فيه الغزالي
	الباب الثالث	٦	الدولة السلاجوقية
٦٤	المنابع التى استقى منها الغزالي	٩	الباطنية
٦٩	المصادر الفلسفية	١٢	الحروب الصليبية
٧١	اخوان الصفا	١٦	المدارس النظامية
٧٣	الفارابي	٢١	روح ذلك العصر
٧٤	ابن سينا	٢٦	البلدان التى عرفها الغزالي
٧٥	ابن مسكويه	٢٧	طوس
٧٩	منبع التصوف	٢٩	نيسابور
٨٠	أصل التصوف	٣٢	جرجان
٨٠	أنفاس الصوفية	٣٤	دمشق
٨٢	قوت القلوب	٣٩	بيت المقدس
٨٣	الرسالة القشيرية	٤٢	أعيان ذلك العصر
٨٥	من عرف الغزالي من الصوفية	٤٣	الشهرستاني
٨٥	الامام الشافعي	٤٤	الابيبوردي
٨٧	المزني وحرملة والمحاسبي	٤٥	الارجاني
٨٨	الجنيد		الباب الثاني
٨٩	منبع الشريعة	٤٦	حياة الغزالي
٩٠	الانجيل	٤٧	أسرته
٩٤	أساتذة الغزالي وأصحابه	٤٩	مولده ونشأته

الصفحة	الموضوع
١٥١	الاعراض والنتائج
١٥٤	الوسائل والغايات
١٥٦	وضع القصص
	الباب السادس
١٥٩	الأخلاق
١٦٠	تعريف الخلق
١٦١	تربية الخلق
١٦٣	كيف يربي الخلق
١٦٥	إمكان تغيير الخلق
١٦٦	أقسام الطبائع
١٦٧	كيف يعرف المرء عيوب نفسه
١٦٩	علامات حسن الخلق
١٧٠	الطريق إلى تهذيب الاخلاق
١٧٣	غاية الاخلاق
١٧٤	مناقشة قصيرة
١٧٦	هل تورث الاخلاق
١٧٩	تحرير هذا البحث
	الباب السابع
١٨٠	تحديد الفضيلة
١٨٣	أمهات الفضائل
١٨٤	الفضائل السلبية
١٨٥	الفضائل الفردية
١٨٦	درجات الاخلاق
١٨٧	فضيلة الصدق

الصفحة	الموضوع
	الباب السابع
٩٦	مؤلفات الغزالي
٩٩	طريقته في التأليف
١٠٢	الصوت المردد في مؤلفات الغزالي
١٠٣	كتاب الاحياء
١٠٥	أغلاط الاحياء
١١٦	غفلة الغزالي وعناده
١١٩	الكذب على الغزالي
	الباب الخامس
١٢٢	الخير والشر
١٢٣	الحسن والقبيح
١٢٤	مشارت الغلط
١٢٦	نقض حجة المعتزلة
١٢٧	تحرير هذا البحث
١٢٩	الضار والنافع
١٣٠	العمل والاعتقاد
١٣٣	مقياس الخير والشر
١٣٤	إغفال الغزالي لهذا المقياس
١٣٧	الارادة
١٤١	تربية الارادة
١٤٢	أهمية الارادة
١٤٣	الجبر والاختيار
١٤٨	الضمير

الصفحة الموضوع	الصفحة الموضوع
٢٢٦ رذيلة الحسد	١٨٨ مراتب الصدق
٢٢٧ رذيلة العجب	١٩٠ فضيلة الصبر
٢٣١ رذيلة الكبر	١٩١ أسماء الصبر
٢٣٤ آفات اللسان	١٩٢ درجات الصابرين
٢٣٥ الكلام فيما لا يعنى	١٩٢ حكم الصبر
٢٣٦ فضول الكلام	١٩٣ ضرورة الصبر
٢٣٧ الخوض فى الباطل	١٩٤ تحصيل الصبر
٢٣٨ المرء والجدال	١٩٥ فضيلة الخمول
٢٣٩ الخصومة	١٩٦ فضيلة التوكل
٢٤٠ التقعر فى الكلام	١٩٨ كراهة السؤال
٢٤١ الفحش	١٩٩ حكم الكسب
٢٤٢ اللعن	٢٠٤ مقامات المتوكلين
٢٤٢ المزاح	٢٠٥ توكل المعيل
٢٤٣ الاستهزاء	٢٠٦ الادخار
٢٤٣ افشاء السر	٢٠٧ آداب المتوكلين
٢٤٤ الوعد الكاذب	٢٠٩ توكل الخائف
٢٤٤ الكذب فى القول واليمين	٢١٠ توكل المريض
٢٤٤ الغيبة	٢١٣ ملاحظات ثلاث
٢٤٦ النسيمة	٢١٥ فضيلة الاخلاص
٢٤٧ كلام ذى اللسانين	الباب الثامن
٢٤٨ المدح	٢١٨ توقي الرذائل
٢٤٩ الغفلة	٢١٩ رذيلة الغضب
٢٥٠ السؤال عن صفات الله	٢٢٣ درء الشر بالشر
٢٥١ رذيلة الرياء	٢٢٤ رذيلة الحقد

صفحة الموضوع	الصفحة الموضوع
٢٩٧ حقوق الجوار	الباب السابع
٢٩٩ حقوق الاقارب	٢٥٣ العلوم
٣٠٠ حقوق الوالدين	٢٥٥ مناقشة قصيرة
٣٠٠ حقوق الابناء	٢٥٦ الشك طريق اليقين
٣٠١ واجب التاجر	٢٥٧ علم الفقه
٣٠٤ آداب المسافر	٢٥٩ علم التوحيد
٣٠٦ حقوق المرأة	٢٦٢ الفنون
٣١١ الرفق بالمرأة	٢٦٤ الشعر
٣١٢ واجبات المرأة	٢٦٥ الموسيقى
٣١٤ آداب السكتاب	٢٦٨ الغناء
٣١٥ واجبات الملوك	٢٦٩ غناء المرأة والأمرد الجميل
٣١٨ حقوق الوزراء	١٧٠ موضوع الغناء
٣١٩ معاملة الملوك الظالمين	٢٧١ مايباح من الغناء
٣٢١ حقوق الاخوة	٢٧٢ آداب السماع
٣٢٢ حب المرء لذاته وجماله	٢٧٤ الرقص
٣٢٢ الحب للمنافع الدنيوية	٢٧٥ النقش والتصوير
٣٢٣ الحب للمنافع الاخرية	٢٧٧ خلاصة هذا البحث
٣٢٤ الحب لمنافع الدنيا والاخرة	٢٧٨ تربية الاطفال
٣٢٤ الدنيا خليقة بالحب	٢٨٤ تربية البنات
٣٢٥ الحب لله	٢٨٥ آداب المعلمين
٣٢٥ ميزان الحب	٢٨٩ « المتعلمين
٣٢٦ ماللاخ على أخيه	الباب العاشر
٣٢٦ حقوق الاخ المذنب	٢٩٢ واجب المرء نحو نفسه
٣٢٨ البغض في الله	٢٩٤ واجبه نحو اخوانه في الدين

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٥٢	تأثير الاحياء	٣٢٨	العصيان بالاعتقاد
٣٥٦	الانتفاع بمؤلفات الغزالي	٣٢٩	العصيان بالفعل
٣٥٨	عناية الاجانب بالغزالي	٣٣٠	نتيجة
٣٦١	الفوز للحياة	٣٣١	آداب الزواج
	الباب الثاني عشر	٣٣٣	الخروج من المظالم
٣٦٣	انصار الغزالي وخصومه	٣٣٣	مظالمه العرض
٣٦٣	ابن رشد	٣٣٣	مظالمه المال
٣٦٨	ابن تيمية	٣٣٤	صرف المال الحرام
٣٧١	ابن القيم	٣٣٥	مظالمه النفس
٣٧٢	السبكي	٣٣٦	واجب الاحتساب
٣٧٣	الزبيدي	٣٣٧	شروط المحتسب
	الباب الثالث عشر	٣٣٩	المنكر المنهى عنه
٣٧٤	الموازنة بين الغزالي وبين	٣٤٠	صفات المرشد
	الفلاسفة المحدثين	٣٤١	أنواع المنكرات
٣٧٤	الغزالي وديكارت	٣٤٢	درجات الاحتساب
٣٧٥	مؤلفات ديكارت	٣٤٣	ارشاد الامراء
٣٧٦	شكوك ديكارت		الباب الحادى عشر
٣٧٨	الفرق بين الغزالي وديكارت	٣٤٤	تأثير الغزالي في عصره
٣٧٩	أسلوب ديكارت		وما تلاه من العصور
٣٨٢	الغزالي وبسكال	٣٤٤	تجديده للمقرن الخامس
٣٨٤	الغزالي وهو بس	٣٤٥	المنامات والاحلام
٣٨٨	الغزالي وبوتليير	٣٤٨	تلامذة الغزالي وأصحابه
٣٨٩	الغزالي وكارليل	٣٤٩	مؤلفاته وفتاويه
٣٩١	الكفر والايان	٣٥١	علاقة الفقه بالاخلاق

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤١٠	رأى الاستاذ جاد المولى بك	٣٩٢	رأى الغزالي في الاجتهاد
٤١١	رأى الشيخ جاريش	٣٩٤	تحرير هذه المسألة
٤١٢	رأى السكونت دى جالارزا	٣٩٥	الخطأ والعناد
٤١٣	رأى الدكتور العناني	٣٩٧	ترجيح بلا مرجح
٤١٤	رأى الشيخ عبد الوهاب النجار	٣٩٨	ظلم الأبرياء
٤١٥	رأى الشيخ حسين والى	٣٩٩	الغزالي وسينوزا
٤١٦	رأى الشيخ عبد الباقي سرور	٤٠٢	الغزالي وجسندي
٤١٧	رأى الشيخ احمد أمين	٤٠٤	الغزالي وما برانش
٤١٨	خاتمة الكتاب		الباب الرابع عشر
٤٢٠	الاسلام والاخلاق	٤٠٦	آراء علماء العصر في الغزالي
٤٢٤	قصيدة السيد حسن القاياتي	٤٠٧	رأى الدكتور منصور فهمي
٤٢٥	كلمة الافكار	٤٠٨	رأى الشيخ على عبدالرازق
		٤٠٩	رأى الشيخ يوسف الدجوى

« الغلطات المطبعية »

صحح هذا الكتاب بغاية العناية ، فلم تظهر فيه إلا غلطات معدودة ، لا يتغير بها المعنى ، ويكفى أن ننبه على أنه جاء في ص ١٣٦ (من يلتفت الى غيره) وصوابها (من لا يلتفت الى غده) وفي ص ١٤٥ (الأعداد) وصوابها (الأعداد) وفي ص ١٢٨ (ما يثبتون به حسن) وصوابها (ما يثبتون به أنه حسن) وفي الباب الأول وضعت كلمة الفصل الثالث موضع الفصل الثاني . وما عدا ذلك لا يفوت القارئ والفضل في ندرة الغلطات المطبعية في هذا الكتاب يرجع الى حسن النظام في المطبعة الرحمانية التي كان لهماها نصيب وافر في إدراك ما يغفل عن المصحح في بعض الأحيان

المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب إلى عربية وفرنسوية . أما المصادر العربية فأهمها مؤلفات الغزالي ، وهي : إحياء علوم الدين ، ومنهاج العابدين ، والاربعين في أصول الدين ، وميزان العمل ، وجواهر القرآن ، والادب في الدين ، ومشكاة الانوار ، ونصيحة الملوك ، والمنقذ من الضلال ، وإلجام العوام ، وخلاصة التصانيف ، ورسالة الطير ، وكيمياء السعادة ، ومكاشفة القلوب ، وقواعد الطريق العشرة ، والاملاء على ما أشكل من الاحياء ، والكشف والتبيين ، والقسطاس المستقيم ، ومقاصد الفلاسفة ، والتفرقة بين الاسلام والزندقة ، والدرة الفاخرة ، والمستصفي في الاصول

ومما يتعلق بالغزالي من المصادر العربية : طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، وشرح الاحياء للزبيدي ، وقوت القلوب لابن طالب المسكي ، والرسالة القشيرية ، ومجلة الهلال ، والسعادة لابن مسكويه ، وتهذيب الاخلاق له ، وفلسفة ابن رشد لفرح انطون ، والدخيرة في المحاكمة بين تهافت الفلاسفة لعلاء الدين الطوسي ، وحياة الغزالي للدكتور زويمر ، وفتاوى ابن تيمية ، وأعلام الموقعين لابن القيم ، وفصل المقال لابن رشد ، ومحاضرات الكونت دي جالارزا في الجامعة المصرية سنة ١٩٠٩ . ومبادئ الفلسفة تعريب احمد امين ، والملل والنحل للشهرستاني ، ومعجم البلدان لياقوت

وأهم المصادر الفرنسية:

gazali. par Carra de Vaux

études sur la philosophie d'Averroës concernant son
rapport avec celle d'Avicenne et gazali. par Moher

traité d'éschatologie musulmane. par lucien gautier

encyclopédie de l'islam (20^e livre)

histoire de la philosophie. par paul Janet

cours de philosophie. par e. boirac

averroës. par e. renan

مؤلفات

زكي مبارك

العلاج

الطبعة الأولى

حبيب الربيع

الطبعة الثانية

الصور الشعرية

تحت الطبع

مدائح العشق

تحت الطبع

قال

قال

قال

قال

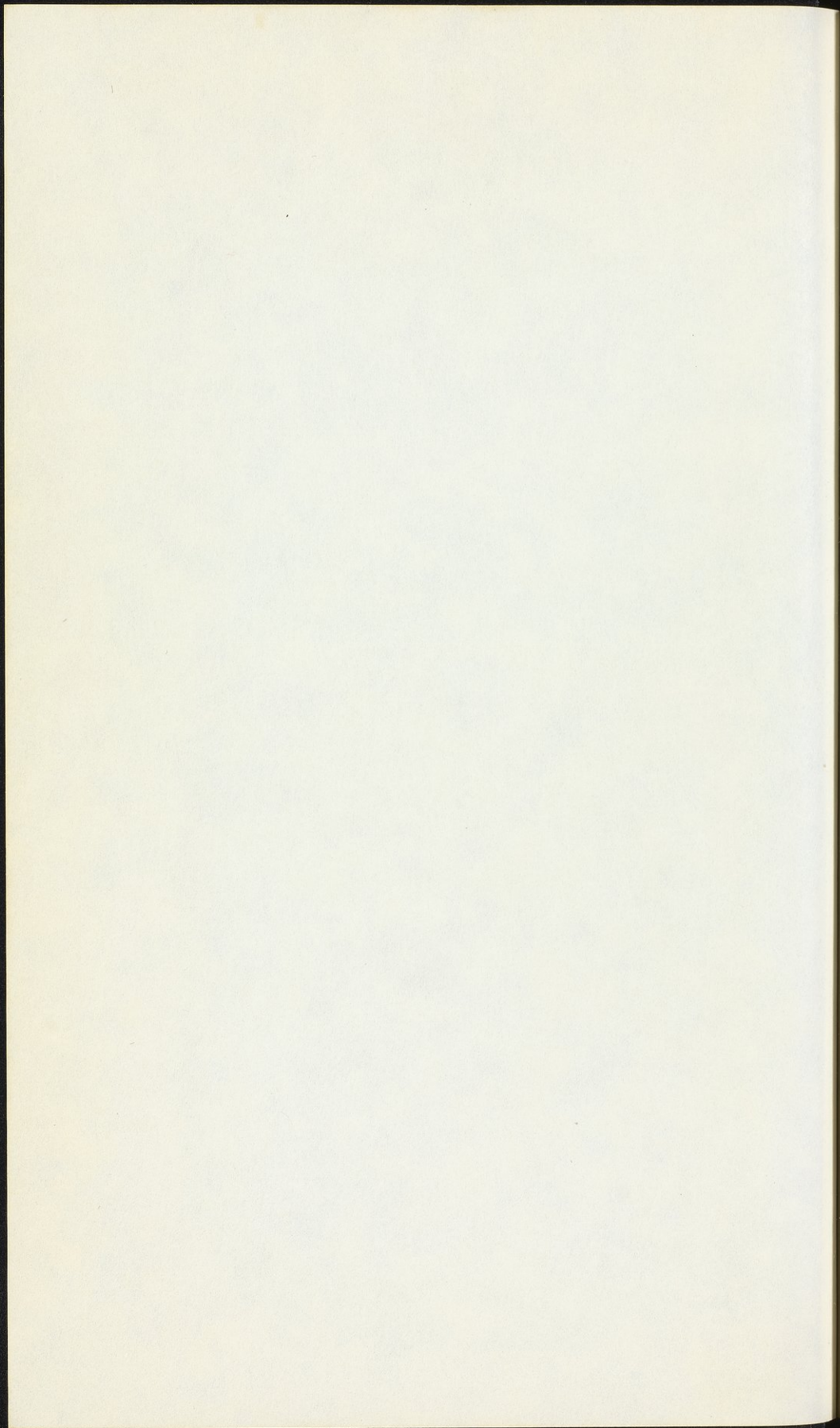
قال

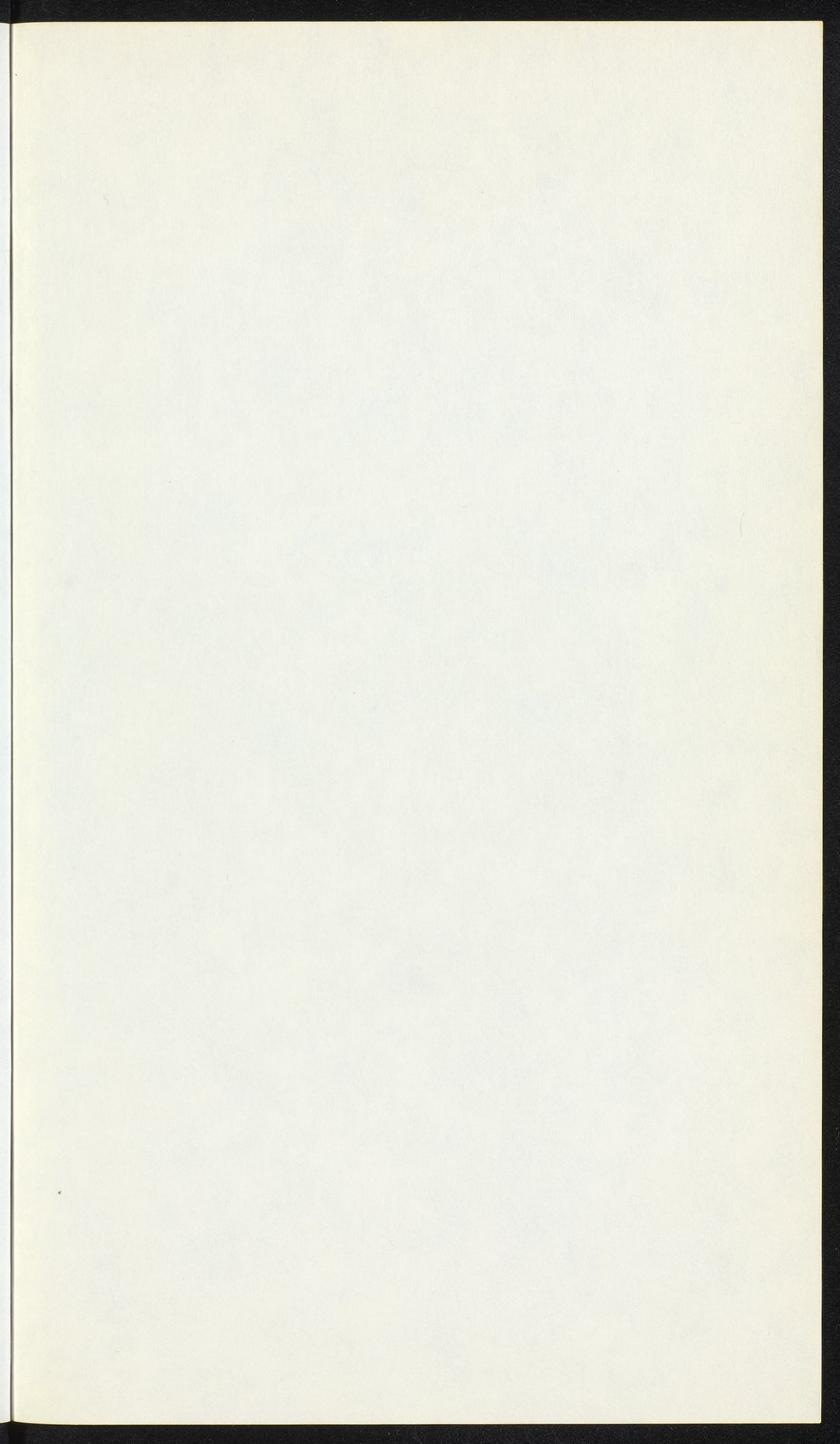
قال

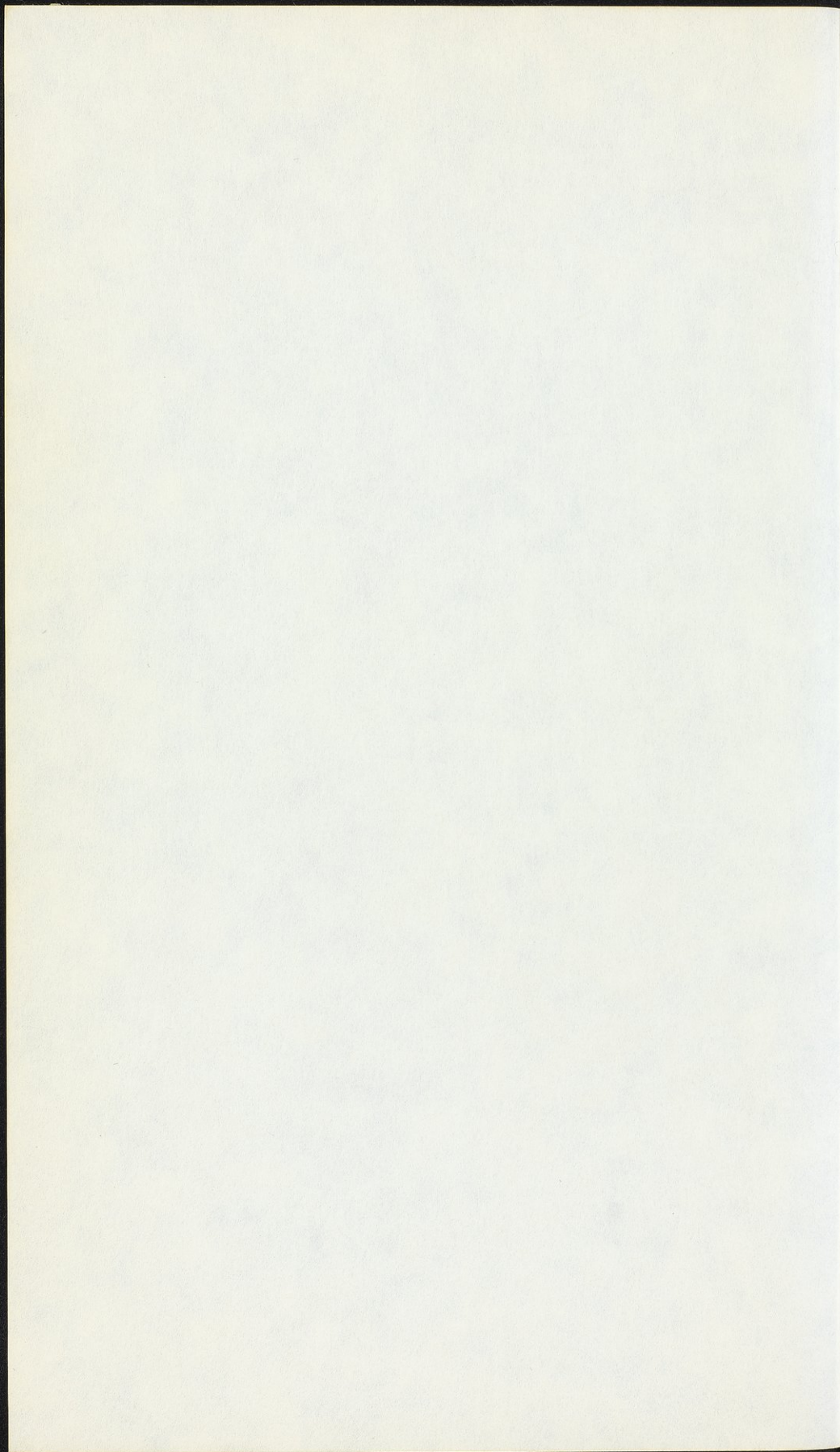
قال

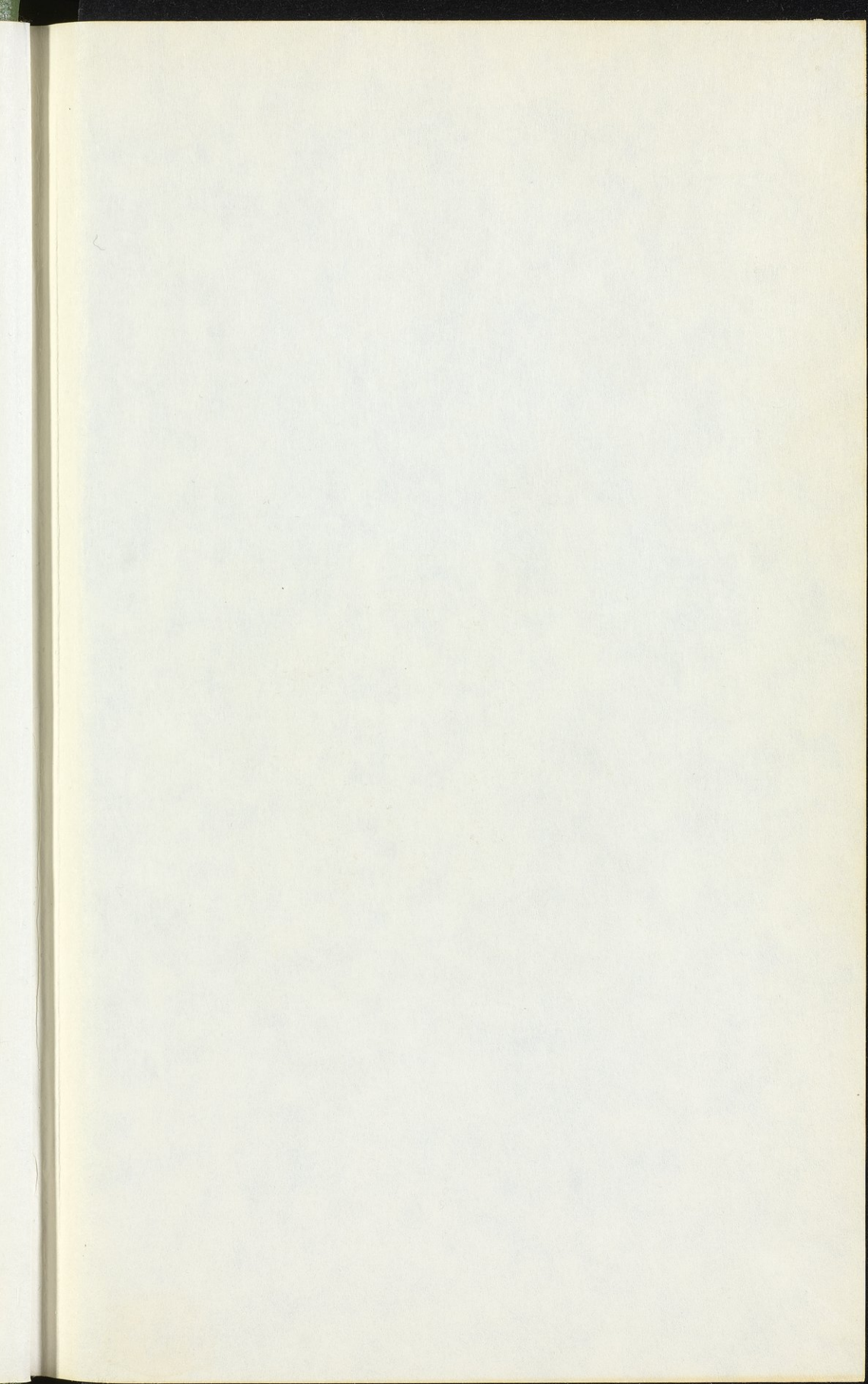
قال

قال











*Restored through
a grant from*

The Cartwright Foundation

